

الكتاب الثاني

حضارة العهد الإمبراطوري الثاني

(القرنان الثالث والرابع)

لقد أطلق على هذا العهد اسم العهد الإمبراطوري الثاني : ولا يعني هذا الإطلاق سوى التوقيت الزمني فقط .

ليس هذا العهد محدوداً بتاريخ واضحة . وليس في بدايته وفي نهايته ما يتصف بجلاء تلك الروببات السياسية - الحروب الميدية ، حملة الاسكندر ، الحروب الاهلية التي لقب اوكتافيانوس عنده نهايتها بـ « اوغسطس » - التي تعين او ترافق احياناً ، اتجهاً جديداً في الحضارة العامة يراه المعاصرون أنفسهم . فتمت ينتهي العهد الإمبراطوري الاول يا ترى ؟ كثيراً ما يلحق به عهد سلالة ساويروس (١٩٣ - ٢٣٥) ، مع ان التجديدات التي حققها هذا العهد أعظم عدداً وتأثيراً ، في نظرة هذا المجلد الشاملة ، من ان لا تؤثر على هذا الحلّ حلاً آخر . ولكن الاخذ بهذا الرأي لا يعمي بصيرتنا عن الاعتراضات التي يثيرها . وهناك سؤال أكثر دقة ايضاً لأن الهامش فيه أعظم اتساعاً : أين ينتهي العهد الإمبراطوري الثاني ، أي الامبراطورية نفسها ؟ هل في السنة ٣٩٥ ، تاريخ وفاة آخر امبراطور مارس وحده السلطة على مجموع العالم الذي احتلته روما في ما مضى ؟ ام في السنة ٤٧٦ حين فقد الغرب آخر امبراطور له الحق في هذا اللقب ؟ ولكن تواريخ أخرى قد اقتُرحت ايضاً ، منها ما يسبق هذين التاريخين ومنها ما يتوسطهما ومنها ما يتأخر عنها . واذا ما اقتصرنا على التاريخين الاولين اللذين يجممان حولهما العسدد الاكبر من الانصار ، فالمجادلات ابعده من ان تهدأ حول الأهمية الحقيقية او الرمزية للحدثين الاول والثاني وحول وعي المعاصرين لهذه الأهمية فوراً او بعد حين . لذلك فالأفضل ألا نختار حتى تحتفظ بمرحلتنا ، عند الحاجة ، في ان نتخطى قليلاً او كثيراً حدود القرن الخامس .

وليس هذا كل ما في الأمر ولا أخطر ما فيه . فما هو مفهوم العهد ؟ هل هو المصور القديمة المتأخرة ام هو مقدمة القرون الوسطى ؟ غالباً ما يختار كل مؤرخ بحسب أصوله الشخصية ، وكل مؤرخ على حق في ما يفعل : فتتفكك المصور القديمة تدريجياً وتشيد الاسس ، الزمنية او

الروحية، لما سيفقد القرون الوسطى، لا سيما إذا ما درسنا هذه الاخيرة في بيزنطية . كل ما هو بشري ينطوي، في كل آن، على بعض القديم وبعض الجديد . بيد ان العهد القديم، في ما يعيننا، هو الذي لا يزال حياً في جوهر مفهومه للانسان وللجمتمع الذي يحاول التكيف حتى لا يدركه الفناء .

نحن نسلّم جداً ان في ذلك تجاوزاً زمنياً . ولكن المهم ليس في ذلك . فمن السهل جداً ، لا بل من الفطري جداً ايضاً، ان نرى في هذه الامبراطورية، « المتأخرة » زمنياً ، وفي حضارتها، الاشكال الذابطة والمريضة وحتى الميتة لحقائق سابقة سليمة . بيد ان هذه الحقائق ليست سليمة بهذا المقدار ، واما « روماني الانحطاط » فلا وجود له إلا في مخيلة الرّسامين والشعراء . فهو ليس براء من المعاضل الجديدة او المتزايدة خطورة التي عليه ان يواجهها فحسب ، بل انه لا يبدو أقل نشاطاً ولا اقل ابتكاراً من أسلافه في محاولة حلّها . اجل ان من يدرس العهد القديم ويراه ينتج هذا القدر من الآراء التي لا يزال العالم المعاصر يتغذى بها ، لا يستطيع الامتناع عن ابداء حكم ازدرائي امام اهمالها التدريجي . ولكن من يرى آنذاك ايضاً كل تعلقه بالحياة ومقاومته لهجوم القوى المضادة لا يستطيع الامتناع عن ابداء شعور اعجاب بهذه الحيوية المستمرة . اما نحن فلنحاول تجنب حكم الاول وشعور الثاني، فالرؤية والفهم هما اهم بكثير من توزيع المديح والمذمة .

الفصل الأول

أزمة القرن الثالث

في شهر نيسان من السنة ١٩٣ أعلن جيش بانونيا سبتييموس ساويروس امبراطوراً؛ وفي شهر ايلول من السنة ٢٨٤ ، نادى الجيش الذي حارب الفرس بديوكليسيانوس امبراطوراً ايضاً . ان هذين التاريخيين يحددان عهداً - هو القرن الثالث اجمالاً - مليئاً ببيادر ازمة متعددة الاشكال ينجم عنها العهد الامبراطوري الثاني . فليست الوثبة السياسية والعسكرية اذن نادرة الحصول بين هذا العهد الاخير والعهد الذي سبقه . غير ان استطالة هذا العهد النادرة وحدها قد تهيب بنزع هذا الطابع عنه ، فليس من معاصر عاشه كله ؛ وليس من معاصر ذاق آلامه النفسية المبرحة كتلها ، الموزعة في الزمان والمكان . وليس من معاصر استطاع التخلص من خداع الوقفات المضحكة التي تخملته ، وليس من معاصر استطاع بالتالي استخلاص مناه الحقيقي . ولكن اكتشاف وحدة العهد يسهل امره اليوم على من لا يتلهى بالاحداث العارضة ، وللمجموع هذه الحوادث من الاهمية في تطور الحضارة العام ما جعل هدف هذا الكتاب بالذات يفرض تحديده مظاهره الرئيسية .

نحن لم نحذف قط ان التوازن الذي حققه العهد الامبراطوري الاول كان توازناً مترجحاً ؛ وان الصعوبات التي برزت في القرن الثالث هي بالضبط ما اتاح في اغلب الاحيان استقصاء وتبيان جرائمها في القرنين الاولين . كانت مجرد جرائم آنذاك وكان بالامكان ان تجبض . ولكنها نمت شيئاً فشيئاً . وجاءت الظروف والإعدادات تعطى الأزمة اتساعها الفائق . فبدأ العالم الروماني، بعد أن عاش عدة قرون عيشة مشتركة ، وكأنه يتفتت جواراً في انهياره الحضارة التي وفر لها الاطار .

ان اول جرثومة اختمرت وخلقت البلبلة التي افادت منها كافة الجرائم الاخرى
الفوضى العسكرية
هي الخطر العسكري الداخلي . وهي اخطر جرثومة حقاً لانها استهدفت القاعدة نفسها لنظام نشأ عن انتصار الاقوى خلال الحروب الاهلية . وهي اقل ما جبهه الرومان من الجرائم : فقد سبق وبرهنت عن مفسادها خلال ازمة السنتين ٦٨ - ٥٩ . لذلك اتخذنا منها

المزيد من الاحتياطات : وكان ثلثي شرها السبب الموجب للنظام الذي اعطته سلالة الانطونيين طيلة قرن تقريباً ، دوام الحياة وسنى العظمة .

اقلع الرومان ، منذ ترايانوس ، عن سياسة الفتح حادتين جهد المستطاع من دور الجيش . واتخذوا حينذاك ، بنوع خاص ، من الخلافة بالتبني ، مبدأ وعقيدة واعتمدها مستفيدين من ان بعض الاباطرة قد ماتوا دون ان ينجبوا اولاداً . فاباح ذلك اختيار الاجدر بغية التأثير على القادة قبل الجنود .

غير ان الاحداث اخذت على نفسها ، حتى قبل وفاة مارك - اوريل ، اظهار ركافة هذه الاحتياطات . فعلى الرغم من تصميم روما على السلم ، جدت مبادرة العدو الخارجي عهد الحروب الكبرى التي اعادت للجيش شعوره بقوته الحقيقية . فبرهن اقدام اوفيد كاسيوس على اغتصاب السلطة ان القادة ما زالوا معرضين للتجربة وقضى اخيراً انتقال السلطة الى كومودوس على ما في نظام التبني من ايها : كان من شأن الوراثة ان تبرز ، وقد ابرزت فعلاً مرة اخرى ، اباطرة غير جديرين جازت ضدنهم ، بعد قطع اي امل آخر ، كافة المؤامرات .

وهكذا فان اغتيال كومودوس قد اعاد الى الجنود ، منذ السنة ١٩٢ ، حق اختيار الامبراطور . فاسرع رجال الحرس ، لاسيا وهم في خير مركز بفعل وجودهم في روما ، الى وضع لقب الامبراطور ، في مزايده علنية بين طامعين : يختارون بينهما ذاك الذي يمتلي جدار معسكرهم ويعدهم باعظم عطاء ، اي ما يعادل ٦٠٠٠ درهم للجندي الواحد . ثم جاء دور جيوش الولايات التي تعلن قائدها امبراطوراً ثم تحارب احداها الاخرى وتتجه نحو العاصمة لفرضه فيها . خرج سبتيموس ساويروس منتصراً من المباراة الاولى وبدا انتصاره بشيراً بتنظيم المستقبل . فخلفه ابناؤه ، ودامت سلالته ، ببعض الصعوبات أحياناً ، اربعاً وعشرين سنة بعد وفاته . ولكن اغتيال آخر انسابه ، في السنة ٢٣٥ ، كان فاتحة نصف قرن من الفوضى العسكرية نصبت الجيوش فيه وعزلت عدداً كبيراً من الاباطرة . فعدد هؤلاء اكثر من ان يحصى ، وان المصادر الادبية التي حاولت احصاءهم لم تأت على ذكر بعضهم : ولولا بعض النقود المضروبة باسمهم ، لجهلنا وجود بعضهم . فنادرون لممري الاباطرة الذين استمروا في منصبهم بضع سنوات . وان غالينوس الذي اعترف به امبراطوراً في روما لمدة ١٥ سنة ، منها سبع بالاشراك مع والده ، قد تفوق على كافة الاباطرة الآخرين بطول ولايته ؛ ولكن اقاليم كثيرة لم تخضع له . اما اسعدم حظاً بعده ، اوريليانوس وبروس ، فلم يتجاوزا خمس او ست سنوات . وكان نصيب الاكثية الساحقة بضعة اشهر فقط ، ولم يعيش احدهم ، بعد المتداة به امبراطوراً ، سوى ثلاثة ايام . اما موتهم فقد كان ما يجب ان يكون . فمئذ كومودوس حتى ديو كليسيانوس مات احداً الاباطرة اسيراً في بلاد اجنبية ؛ وآخر متأثراً بضربات العدو ؛ واثان ، احدهما سبتيموس ساويروس ، مصابين بمرض خلال العمليات الحربية ، وسمح اوريليانوس بتنازل منه لا نظير له ، للعظماء الذين استعاد منهم تدمر وغاليا بان يعيشوا ويموتوا بسلام في ايطاليا ؛ ولكن الباقي دون استثناء ماتوا

ضحايا اقرارهم او ضباط اركانهم أو جنودهم او جنود احد منافسهم

ان الفكر بكل والعقل نفسه يتيه حين نحاول جمع وترتيب التفسيرات التي توفرها المصادر - ويحدث ان تستغني عنها - لاختيار وزوال خطوة هؤلاء الاباطرة المتعاقبين ، والحامين غالباً في آن واحد . فالجيوش تنتخب طامعاً سخياً بالأعطيات الحقيقية الفورية ، او بالوعد ، وقائداً يوحى لها الثقة بان يقودها الى النصر ، واي شخص آخر تقريباً في بعض الاحيان ، كما لو كان ذلك بدافع اناني ، رغبة منها بالاقتراد بالجيوش المهاره . ثم تقتل بمثل سرعتها في الانتخاب ، بسبب فشل أو خيبة أمل ، أو شدة قسوى في النظام أو مجرد هوى ، حتى توفر لنفسها اللذة والكسب في انتخاب الخلف . والانتخاب يوازي الحكم بالموت : فاذا امسك البعض في التغلب على القدر ولم يتراجموا امام الدسيسة ، فان البعض الآخر ترتعد فرائصهم خوفاً ولا يقبلون الا تحلصاً من الموت الفوري . ويحدث احياناً ، في هذه السلسلة الطويلة من الاغتيالات ، ان يتغلب الوجه المضحك الغليظ على الوجه المسرحي المنفر : فهي توفر ، لو ان المصادر اكثر تصريحاً ، حقلاً دراسياً واسعاً للشغفين بالسيكولوجيا الخاصة بالجماعات .

لنفض الطرف هنا عن أوجه الزيفان ، مفتنة كانت ام غير مفتنة . ان هؤلاء الرجال ، المخشوشين بفعل منشايم ، يسكرون بقوتهم ولا يتقيدون بالنظام في غالب الاحيان . ولكن انفلات هيجانهم الصاحب والاولي يعتبر ، كما نرجح ، عن اندفاع قوى عميقة سنحاول فيما يلي تحديدها . ولا يجوز ان نفعل ان هؤلاء الرجال انفسهم ، وفي الوقت نفسه ، يرضون بالقيام بجوهر واجبه . انهم يتحاربون بين جيش وجيش ، ولكنهم يحاربون العدو ايضاً . ويعرف رؤسائهم عند الحاجة ، وهم المستفيدون من هذه الهتافات والمقدمون على هذه الاغتيالات ، كيف يعطون المثل في الحزم الانساني وفي القسوة على السواء . وهو الجيش ، في آخر المطاف ، من يخلص الامبراطورية بعد ان اسهم في ايصالها الى شفير الهاوية . وتكفي هذه الملاحظات لاقضاء النظرية الساذجة القائلة بمنون جماعي لا يعقل ، على كل حال ، ان يدوم بهذا الاستمرار طيلة قرن تقريباً .

ان الخطر البربري ، الذي شجته فوضى حولت الجيش عن مهمته الحقيقية والذي
الخطر البربري شجتها بدوره لأن تهديده ربط السلامة العامة بحسن ارادة الجنود ، قد ارتدى بسرعة فائقة طامعاً خطيراً خيفاً . كان العهد الامبراطوري الاول قد حى العالم المتمدن منه : فوقف في وجه الغزوات ، وحرس الحدود بتيقظ ، وطوق وراقب نقاطاً نادرة برزت فيها وادر الشقاق داخلي . فجاء هذا الحل منطبقاً على عالم بربري هادىء نسبياً . ولكنه ما لبث ان أثبت عدم فعاليته حين اخذت تهز هذا العالم ، مرة اخرى ، تيارات عنيفة ، منذ عهد مارك اوريل : ففي السنة ١٦٧ ، اناح اختراق خط الدانوب لبعض جماعات تضم ، في ماتزم ، كواديين وماركوماثيين ولومبارديين ، اجتياز جبال الألب وبلوغ منطقة فينيشيا . فكانت

ذلك ، اذما استثنينا بعض عهود مصر الفرعونية ، نهاية أمثن وأثبت أمن عرفه مجتمع قديم :
نهاية « السلام الروماني » الذي تفتحت في ظله ، طيلة قرنين ، حضارة العالم الروماني .

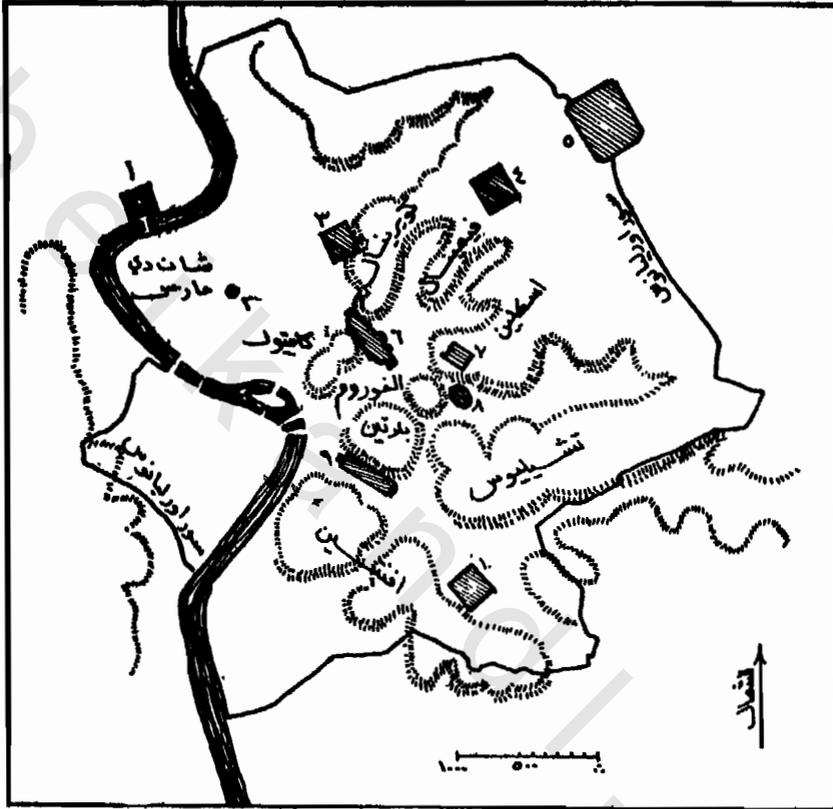
اشدت ساعد شعوب صغيرة ، أهملت عن قصد حتى ذاك العهد لأن احتلال جبالها او صحاريها
بدا باهظ الثمن قليل الفائدة . وفي داخل الامبراطورية نفسها تجمع واهتاج بعض المستائين ممن
أثقلت كاهلهم الحياة النظامية التي ارادت الادارة فرضها عليهم ، وبعض الريفين البؤساء ممن
ضحي بهم لأجل عظمة المدن . واهان الحروب الأهلية التي اسندت السلطة الى سبتيموس ساويروس ،
خلق اشترك قائد جيش بريتانيا في التنازع واستعانته بأفضل جنوده بنية تحقيق آماله في غاليا ،
وضمناً أسرع الجبليون الشماليون الى استغلاله على الفور ؛ وتوفي سبتيموس ساويروس في ايبوراكوم
(York) Eburacum اثناء حملة لم تنجح في استعادة سور انطونين بشكل حاسم : فاعتبر
الرومان انفسهم سعداء اذا استطاعوا الاحتفاظ بسور هدريانوس . وارتدى مثل هذا
الطابع من السرعة التطور في افريقيا ايضاً حيث قطع البرابرة العصاة خطوط المواصلات بين
الموريتانيتين بموازة جبال الريف وغامروا بغزوات بحرية حتى على الشواطئ الاسبانية . وما
لبث البليميون كذلك ان هددوا مصر العليا عند عالية الشلال الاول ، وايزوريتو جبال
طوروس ، آسيا الصغرى الجنوبية .

ولكن ما ذكرنا ليس سوى مناوشات لا شأن لها بالنسبة للأخطار الجديدة الكامنة في
اوروبا الوسطى والشرقية من جهة ، ويران وبلاد ما بين النهرين من جهة ثانية .

اوروبا الوسطى والشرقية
فقد أخذت تحركات بعض الشعوب ، وهي تحركات واسعة وغامضة ،
تقلق السهول الأوروبية الشاسعة . ويفلب على الظن ان مصدر هذه
التحركات لم يكن آسيا الوسطى بعد ، بل يبدو بالترتيب ان ما بعثها ، في القرن الثالث ، هو نزوحات
انطلقت من سواحل بحر البلطيق ، فافضت بالقوط *Goths* جنوباً حتى نهر الدون ، وبحر أزوف .
فغلى العالم الجرمانى ، بفعل تجمعه في الغرب ، طامعاً بثروات العالم الروماني ، وعاجزاً ايضاً ،
في ارض اسيء استثمارها ، عن تغذية شعوب يستنهضها مثل اعلى قاس هو مثل المحارب المرتبط
إقتساماً لرئيس اختيار طوعاً ولا تقبل بالتنظيم الا في سبيل الحرب .

نحن نجمل التفاعل الذي حدث . فقد زالت قوميات قديمة وبرزت اخرى جديدة . وحدثت
انصهارات لمصلحة شعوب كانت وضعية جيداً في الماضي . وتعلم سكان الامبراطورية ، بذعر بيرره
الاختبار ايماً تبرير ، معرفة اسماء جديدة لشعوب لا يهدتها ولا ينهكها شيء : الساكسون ،
المستوطنون جوار مصب نهر الإلب ؛ والفرنك *Franks* المستوطنون ضفاف نهر الرين السفلي
والاوسط ؛ والألمان *Alamans* المستوطنون ضفاف الرين العلوي والدانوب العلوي ، وقد
دفع بهم الى الامام البورغوند والفاندال ، بينما اهتاج الكارب والسامرات الإيازميين ، على طول
نهر الدانوب وحدود آسيا ، بعد ان حرّكهم القوط والهيرول *Hérules* .

اختل اذ ذلك حبل الأمن في كل مكان ، وباستمرار تقريباً ، حتى داخل الحدود ، منذ موت سبتيموس ساويروس . فقام الساكسون بأعمال القرصنة ، حتى في بحر المانش ، وعلى شواطئ المحيط . وحدث ان اجتاز الفرنك غالبا ووصلوا حتى اسبانيا . ودخل الألمان ايطاليا ولم يهزموا الا في بافيا . واجتاز القوط تكررأ نهر الدانوب بغية غزو تراقيا تارة ومويسا واليونان



الشكل ١٩ - روما في القرن الرابع

احاط سور اوريليانوس بمساحة ١٣٧٢,٥ هكتاراً ، في حال ان مساحة مدينة ارغسطس قد بلغت ١٧٨٣ هكتاراً . ١ - ضريح هدريانوس ؛ ٢ - الزون ؛ ٣ - حمامات قسطنطين ؛ ٤ - حمامات ديوكليسيانوس ؛ ٥ - معسكر الحرس ؛ ٦ - ساحات عامة امبراطورية ؛ ٧ - حمامات ترايانوس ؛ ٨ - مسرح فلافيانوس (كوليساوس) ؛ ٩ - ميدان سباق العربات ؛ ١٠ - حمامات كراكلا .

تارة اخرى . واندفعوا نحو البحر الاسود ايضاً وعاثوا فساداً في البوسفور وبحر مرمرية وبحر ايجه نفسه ونهبوا المناطق الساحلية ؛ فاحتلوا افسس وحاصروا تسالونيكي ، ولكن اثينا قاومتهم . عبثاً بذل أباطرة كثيرون مزيداً من الجهد او لاقوا حتفهم في مقاومتهم . اجل غالباً - لا دائماً - ما حققوا النصر في المعارك بين الجيوش وحملوا الالقاء الجيدة ، ولكن زمن ماريوس وقيصر ، حين كان باستطاعة روما اقناء الجرمانيين ، قد ولى . وقد توجب اكثر من مرة ،

منذ ذلك العهد التخلي عن بعض الحقوق وشراء الانسحاب بالمال ووبعد باطل بالهدوء لقاء فريضة سنوية . ثم عمت طريقة أعطى مثلها العهد الامبراطوري الاول : فمن حيث ان اليد العاملة الزراعية تصبح نادرة في المناطق التي تجتاحها الحرب ، اقيم البرابرة في الاراضي الرومانية وأخضعوا لنظام عطوف نسيباً . واستخدم بعض الاباطرة زمراً أجنبية مأجورة بغية تقوية جيشهم . ولكن كل ذلك لم يجدي قبيلاً . استمرت العاصفة حتى ديوكليسيانوس ، فاقفرت الأرياف ، واضطرت المدن الى الانزعال داخل اسوار محصنة أسرع الى بنائها أو الى ترميمها : وأحيطت روما نفسها ، في عهد اوريليانوس ، بالأسوار ، متخفية عن بعض الضواحي التي ضمها اوغسطس الى تنظيمها الاداري ، ومستندة في تحديد مكان الأسوار الى أبلية سابقة . وحين عاد بعض الهدوء ، في اواخر القرن الثالث ، كان الثمن تضحيات اقليمية ملموسة : فقد أخليت أقاليم الحدود الملحقه بأملاك الدولة ، كما اخليت داسيا نهائياً . وتراجع الدفاع عن الامبراطورية من ثم الى الرين والدانوب ، حيث ركّزه اوغسطس : فحدث للمرة الاولى ان اجلي ، على غير أمل بالعودة ، عن اراض راسخة الاحتلال .

ربما كان من الممكن أن تبدي الامبراطورية مقاومة أجدي ، لو لم تضطر
 الشرق
 الفرس الساسانيون
 في الوقت نفسه الى مقاومة عدو رهيب : وهي لم تغامر بقط ، خلال القرنين الاولين ، في خوض عدة حروب كبرى في آن واحد لأنها كانت عالمة بمعجزها عن تعهد الجيوش التي تفرضا هذه الحروب . وها هي منذ الآن مرغمة على ذلك . كان عدوها على الفرات ، حتى ذلك العهد ، المملكة الفارسية : جارسجس ، قادر على شن الغارات الجريئة ، وعدو يصعب اللحاق به في فلووات يسهل فيها هرب فرسانه ، ولكنه قليل العناد في الهجوم والعداء العقائدي للحضارة اليونانية التي أخذت روما على نفسها الدفاع عنها في هذه المناطق ، وخصم ضعيف ، خصوصاً بفعل السهولات التي يوفرها للديسة الأجنبية تراخي أجهزته ، وجوح امراء العائلة الملكية وكبار الأشراف . وقد أحرز عليه سبتيموس ساويروس ، بعد جهد عسكري عظيم ، انتصارات مدوية ، واحتل في اعقاب ذلك ولاية ما بين النهرين ، أي ما يقارب نصف البلاد المنبسطة بين منمطف الفرات ودجلة .

تبدل الوضع بعد ذلك بزمن قصير . فقد برز تيار قومي ، يستغل زوال الخطوة الذي استحقته السلالة الارسانية بفعل هذه الهزائم ، ويساند تمرد نبيل فارسي يدعي انه حفيد الاخمينيين . جاء النجاح كاملاً في السنة ٢٢٤ : زالت المملكة الفارسية من الوجود وحلت محلها المملكة الفارسية بقيادة السلالة الساسانية . فطمعت هذه الاخيرة في استعادة امبراطورية داربوس الاول ، من الافغانستان حتى المتوسط . اجل انها لن تبلغ ما تصبو إليه . ولكن المملكة الجديدة اعظم قوة الى حد بعيد من سابقتها . لجأت الى حصرية حقيقية ، ارغم الأشراف بموجبها على الاخلاص وازدادت موارد الملك . أضف الى ذلك ان الديانة المازدية التي اعتمدت بتصلب متعصب قد وفرت للروح الوطنية قوامها وكيانها . وتمتع كهنوت الهوس بتنظيم رسمي

وبامتيازات ، فقدم للملكية عضداً فعالاً . وغدت الملكية من ثم متحدة بذات حضارة هي العدو اللدود للحضارة المتوسطة .

لم يلبث الرومان ان ادركوا خطورة التبدل . فقد تعرضت بلاد ما بين النهرين لهجمات متكررة ؛ واخضعت ارمينيا حيث استطاع أحد الارساسيين المقاومة اولاً ؛ واجتيز الفرات اكثر من مرّة ، وغزيت سوريا ، وسقطت عاصمتها انطاكية . وجاء دور كيليكيا وقبادوقيا *Cappadoce* اخيراً حين حدثت ، في السنة ٢٦٠ ، الهزيمة النكراء النادرة : انكسار وأسر فاليريانوس ، الامبراطور منذ سبع سنوات بالاشتراك مع ابنه غالينانوس ، على يد ملك الملوك ، ساپور الاول (شاهبور الايرانيين) . فأمر هذا الاخير باعداد نقوش ناتئة ضخمة تمثل الامبراطور متصاعراً ، جاثياً أمام الظافر . وتوفي فاليريانوس في الاسر . ويروي التقليد المسيحي ، الذي حقد عليه حقداً شديداً ، ان جثته حشيت بالثبن وصبغت باللون الاحمر ، وعلقت في احد المعابد ؛ غير ان الرواية غير مقبولة ، أقله فيما يتعلق بهذه الناحية ، لأن المازدية لم تشد معابد حقيقية . ومهما يكن من الامر ، فقد كان للكارثة الرومانية دورها البعيد في الشرق ، ولم تتمكن الامبراطورية من استعادة بلاد ما بين النهرين إلا قبيل جلوس ديوكليسيانوس على العرش .

ان الحكومة المركزية ، أو بالاحرى الحكومة التي اطلقت على نفسها هذا
أخطار الانقسام الاسم ، لانها سيدة روما ، قد عجزت ، بفعل مواجهتها الصعاب العديدة والخطيرة ، وبفعل الانقلابات العسكرية المستمرة التي شلتها ، عن الوقوف في وجه الخطر الخارجي المائل ابدأ في كل مكان . كان عجزها من ثم عاملاً جديداً من عوامل الفوضى . فضعف تضامن الامبراطورية الضروري للدفاع عنها على يد مسؤول واحد يقدر المهام اللازمة نسبياً بقمية تكييف توزيع الموارد عليها . وملت بعض الجيوش والمناطق تقديم المساعدة لغيرها بالرجال والضرائب ، بينما احذقت بها الاخطار من كل جهة . وبرز زعماء محليون متفاوتون جساراً في البدء ، يفرهم التحرر باستثمار الخدمات التي يؤديونها للسكان والهزائم التي يمني بها الامبراطور المعترف بسلطته في غير مكان . فذب الانقسام الى جسم الامبراطورية في تفتت الدفاع الاتاني وفي استقلال الاقاليم الدائرية المتروكة لأمرها .

وما يدعو الى الدهشة ان هذا الانقسام لم يكن أشد بروزاً بفعل قوّة الاسباب وموادة الظروف التي من شأنها تطوير هذا الانشقاق بسرعة . فان النطاق الضيق الذي برز فيه ، اذا ما قورن باتساع الاراضي الرومانية ، لدليل على فعالية عمل الالتحام الذي قام به العهد الامبراطوري الاول . وللمقاومة مثل هذه الازمة ، يجب ان يكون العالم الروماني قد حقق في السابق وحدة أدبية مستقلة عن الوحدة المادية التي أصبحت الآن أترأ بعد عين . فهو قد اجتاز دوئاً انقسام مرحلة الحروب الأهلية التي طبعت آخر العهد الجمهوري بطابعها الخاص . ولكن العاصفة كانت أقصر زمناً ولم تلبسها الفوضى العسكرية ولا الهجمات الخارجية الجدية . فعند نهاية القرن الثالث بالذات يمكننا حقاً تقدير متانة مركب متعدد الاجزاء اوجده الفتح وألمه ملاط وحدة الحضارة .

أُصِفَ الى ذلك ان ما يلفت الانتباه هو ان الدولتين المُهمتين اللتين قامتتا على اساس اقليمي واسع ودامتا بعض الوقت ولعبتا دوراً غير عرضي لم تقوما بمحاولات انفصالية حقيقية .

يطلق عادة اسم « امبراطورية الغالين » على تلك التي حكمها بوستوموس ثم تيتريكوس ، خلال خمسة عشر سنة تقريباً ، في اوائل النصف الثاني من القرن ، في جو سلام عكسه أكثر من حادث خطير . وينطبق الاسم عليها ، لعمري ، مع انها تمتد الى بريطانيا ، والى اسبانيا مؤقتاً ، ومع انها لا تشمل غالباً الناربونية التي لم تنفصل عن ايطاليا . فهي تكرر القوى التي تجتمعها للدفاع عن خط الرين والساحل الغالي غير مبالية باجتياز نهر الرون وجبال الألب . ولكن هذه الامبراطورية تبقى رومانية ، ومن المحال البحث عن أي أثر للقومية الكلتية في أسياها الذين يمينون القناصل ويحملون الألقاب الامبراطورية التقليدية ويدونون على نقودهم الاساطير الغائلة بأزلية روما .

اما الدولة الاخرى التي قد تثير الشبهة فهي تلك التي قامت في جوار واحة عربية سورية ، تدمر السامية ، او بلميرا . جمعت ثروتها بفضل تجارة القوافل . وكانت في القرن الاول تابعة للامبراطورية ثم ضمت الى ممتلكاتها ، ثم انعم عليها هديانوس بنظام تطور مع الزمن حتى غدت مستعمرة . وكانت تختار مجلس شيوخها بين افراد ارستوقراطية من التجار المضطربين للدفاع عن قوافلهم ضد غزاة الصحراء ، والطابعين الى حق المواطنة الرومانية . وفي القرن الثالث احدث فيها الخطر الفارسي القريب تطوراً نحو الملكية . فكان الاباطرة سعداء جداً بتشجيع هذا التطور لأنهم اكتشفوا في زعماء احدى العائلات الكبيرة مواهب عسكرية اسرعوا الى استخدامها لا سيما غذاة هزيمة فاليريانوس وسقوطه في الاسر . وفي الواقع قام اذينة بنجاح بهجوم معاكس على سابور : فاستحق اللقب الملكي وحظي باللقاب رومانية على بعض الغموض . وفي السنة ٢٧١ اخيراً ، صمدت ارملته زنوبيا على القطيعة ، بعد ان اتضح لها استحالة كل تسوية ، فحملت اللقب الامبراطوري وحملت ابنها الذي كانت تحكم باسمه . فسيطرت تدمر آنذاك على الشرق الروماني أي على سوريا ومعظم آسيا الصغرى ومصر . في هذه المدينة التي أتمت تشييد أبنيتها الفخمة في قلب الصحراء ، ازدهرت في ذاك العهد حضارة مختلفة ، هلينية وسامية في آن واحد ، وبمجة بالحياة الفكرية بفضل وجود الفيلسوف والخطيب لونيمنوس في بطانة زنوبيا ، الذي سيموت ضحية القمع الروماني ، وعاطفة على مذهب توحيد الآراء الدينية الذي شجعه ، على ما يبدو ، مستشار الملكة الثاني ، مطران انطاكية ، بولس الساموزاطي الذي حكم عليه اخيراً بجرم الهرطقة . فمن ذا الذي يستطيع يوماً كشف سر الاحلام التي راودت زنوبيا ، احد تلك الوجوه النسائية التي يحيطها الشرق بسرابه والتي تسحر الخيالات المعجبة ، على غرار « الجواهر المفقودة في تدمر القديمة » ؟ ولكن يكفي ، لالظهار قوة الطابع الروماني على « الملكة الشهيرة والتقبة سبتيميا باتراباي » - او على مواهبها كمثلة مهالزة - ان نلفت النظر ، وفقاً لما جاء في « التاريخ الاوغوسطي » الى انها كانت تحظب في الجماهير على طريقة الاباطرة الرومانين معتمرة الخوذة

ومرتدية المطفف الأرجواني ، وانها كانت تفهم اللغة اللاتينية دون ان تتكلمها ، فأرادت ان يتعلمها ابناؤها ، حتى انهم تكلموا اليونانية بصعوبة ، او نادراً على الاقل . اضافة الى هذا ، من جهة ثانية ان الشرق كان قد قدم لروما احدى سلالاتها ، اعني بها سلالة ساويروس التي انتقل احد اعضائها ، ايلغاغال من كهنوت إله حمص الى حكم الامبراطورية الذي استولى عليه . طيلة اربع سنوات .

ندرك من ثم بعض الشيء كيف ان مجدد الوحدة ، اوريليانوس ، بعد انتصاره على تدمر وتخريبها واقضاء قائد جيش امبراطورية الغالين ، وبعد ان اشرك في موكب نصره زونييا وتيتريكوس وأبناءهما على السواء ، اسكن ، في احد مقاصف « تيبور » ، التدمرية التي سرى احفادها في روما بعد مرور قرن كامل ، وأعاد الغالي الى مجلس الشيوخ والى الادارة ايضاً . وينم هذا الحلم ، على الأرجح ، عن شعوره بأن فائدة عمل هذين الملكين ، بعد كل حساب ، املم وهن السلطة المركزية ، فاقت اضراره للقضية الرومانية .

اعار المؤرخون القديما هذه الحلال السياسية والعسكرية ما تستحقه من التضعف النقدي الاول في التاريخ أهمية . ولم يقف منها مؤرخ معاصر موقف اللامبالاة . وليس من ريب في ان الجماهير قد تأثرت بها من خلال انعكاسها الاقتصادية . واذا كانت مسؤوليتها واضحة من هذا القبيل ، فان البلبل التي نزلت حينذاك بحياة الامبراطورية وسكانها المادية تدخل في مجموع هو اعظم اتساعاً الى حد بعيد . فالخلل الاقتصادي في القرن الثالث يشكل ظاهرة نادرة الامة بفعل خطورته وشموله وطابع الجدة في بعض مظاهره .

للمؤرخ اليوم عذره اذا ما شدد على ظاهرة التضعف النقدي الذي زاد الازمة خطورة ، فبعثته هي بعنا مستمراً ايضاً . وهو ليس اول تضخم يمكن تتبع تطوره المتزايد باطراد فحسب ، بل هو ايضاً اول تضخم عرفته البشرية . واذا لم تستطع ضحاياه تحليل اسبابه وجوهره ، فان عاقبته كانت قاسية جداً .

برز الخطر باكراً جداً بوقائع نقدية . ومنشأ هذه الوقائع قديم العهد لان العهد الامبراطوري الأول ، لا سيما فيما يعود للقطع الفضية ، لم يستطع المحافظة على استقرار تام . فنذ سبتيموس ساويروس ادى الجهود العسكرية الى زيادة النفقات . فزادت باستمرار بينما كانت الواردات الاميرية آخذة بالتناقص . وقد الحت الحاجة ، لسد العجز ، على الرغم من المصادر ، الى تقرير التضخم يشكله البدائي أي بافساد معدلات المعادن المركبة الذي حتمه فيما بعد انخفاض الانتاج في المناجم ثم الانفصال الذي قطع الولايات الغربية ، وهي اغنى الولايات بالمناجم ، عن باقي الامبراطورية . وتمزوا المصادر الى كركلا ، ابن سبتيموس ساويروس وخلفه ، مبادرة هذا التطور الكارثة . ولعله اقتصر ، كما نرجح ، على اتخاذ قرارات رسمية ، بدلاً من التدابير الخفية ؛ فمنذ عهد والده انخفض عيار الدينار الفضي بمعدل الثلث . ومهما يكن من الامر ، فان كركلا قد انقص ١١٪

من وزن الـ « اوريوس » واحداث قطعة فضية جديدة ، الـ « انطونيانوس » ^(١) الذي مالبت وضرب بكيات كبيرة وحل اخيراً بصورة نهائية محل الدينار القديم : فقد خفض عياره ٥٠ ٪ بالنسبة للدينار وكان ضعفه وزناً ، اي اكثر من خمسة غرامات بقليل ، وضعفه قيمة . وقد بدأ الافساد ببعض السرعة ثم ازدادت هذه السرعة ازدياداً فائقاً منذ السنة ٢٥٠ بنوع خاص . اما عيار القطع الذهبية فلم يفسد ، ولكن ما ضرب منها كان قليلاً ومتفاوت الوزن جداً . والمنخفض وزن « الانطونيانوس » حتى ثلاثة غرامات تقريباً ولم يتوقف انخفاض عياره عند حد : فعنصر الفضة لا يتجاوز الـ ١ ٪ في بعض قطع النقود المضروبة باسم غالينوس أو باسم كلوديوس الثاني . ولما كان النحاس نفسه غالياً الثمن فقد اتجهوا الى الاستعاضة عنه بالخارصين والقصدير والرصاص .

نتيجة لذلك ، تعددت اصدارات هذه القطع الفضية المزعومة ، لا سيما وان ارتفاع الاسعار قد فرض مضاعفة وسائل التسديد وان كل امبراطور جديد ، مهما ضاقت رقعة سلطته ، كان بحاجة الى سك النقود بغية تأمين الموارد . فارتفع عدد المصانع النقدية ارتفاعاً كبيراً ، مما جعل الرقابة عليها امراً صعباً وافسح المجال امام الكثير من الاختلاسات . وقد اكتشفت ، ولا تزال تكتشف ، مئات الالوف من قطع القرن الثالث هذه التي تم عيوبها عن السرعة في المجازها . ولم تتحسن السياسة المالية بعض التحسن الا في عهد اوريليانوس الذي اضطر ، من جهة ثانية ، الى قمع ثورة ضاربي النقود في روما حين اقفل مصانعمهم ، والذي توفر له الممدن الثمين بعد استعادة تدمر وغاليا .

الف العالم المعاصر ، منذ اربعين سنة ، التضخم وتناججه التي لا يستقرها احد : غير ان ما لم تتوصل التقنية المحككة الى التغلب عليه قد ناء بثقله على مجتمع غر واعزل .

بدهي ان انخفاض وزن وعيار القطع النقدية الجديدة قد ادى الى اختفاء القطع القديمة الجيدة التي جمعتها السلطات للصهر او خزنها الافراد . وعندما اختل الامن ، اهلقت هذه الكنوز المكدمة في مخابها بعد وفاة مكديسها : وتساعدنا خريطة المكتشفات التي تنظم اليوم ، وتواريخ طمرها ، التي يمكن تعيينها على التقريب بواسطة احداث القطع عهداً ، على استعادة تاريخ تنقل زمر الغزاة ، لا سيما الفرنك والالمان منهم ، في غالبا ما بين السنة ٢٧٥ والسنة ٢٧٨ .

بدهي ايضاً ان التضخم قد افضى الى ارتفاع الاسعار بسرعة . بدأ هذا الارتفاع في عهد مبكر ، وقد فرضته اسباب اخرى اهمها انخفاض الانتاج العام . ولكن هبوط النقد الى الحضيض قد اسهم في ذلك اسهاماً عريضاً . غالباً ما فسرت النصيحة التي يقال ان سبتيموس ساويروس قد اسداها الى اولاده تفسيراً حرفياً - « اغنوا الجنود واسخروا من الباقين » - بغية نسبة زيادة الاجر العسكري ، بمعدل النصف ، اليه ، في حال ان كر كلا هو الذي حققها . غير انها في

(١) ارتبط سبتيموس ساويروس ، بتبن صوري ، بسلاطة الانطونيين ، وقد دعي كر كلا رسمياً « مارك اوريل انطونين » . وينكر بعض العلماء ان يكون « الانطونيانوس » قد ساري دينارين .

الواقع تكاد لا تعوض عن انخفاض النقد ، ويغلب على الظن ان الغاية منها كانت اعادة القيمة الشرائية للاجر القديم . ثم ارتفعت الاسعار باستمرار . وتوفر لنا البرديات المصرية ، وهي في العهد الروماني اكثر منها في العهد اللاجي ، ابلغ ايضاحات بهذا الصدد: فقد ارتفع سعر الحبوب عشرين ضعفا بين السنة ٢٥٥ والسنة ٢٩٤ . وقبل التسليم بمرسوم الحد الاعلى الذي اصدره ديوكليسيانوس ، حاولت زيادة الاجور والهبات عبثاً للحاق بهذا الارتفاع . فوزعت بعض القطع الذهبية حين يكون ضربها امراً ممكناً . ثم لحت الحاجة بتسديد اجور الجنود والموظفين عينا . ولكن الاختبارات المعاصرة تحملنا على الاستنتاج ان اية حيلة من هذه الحيل لم توفر لذوي المصالح ما يعادل النقد الثابت .

وبديهى ايضا ان المضاربات النقدية قد رافقت تضخم النقد وانخفاض قيمته الذاتية . عبثاً حاولت السلطات ايقاف تيارها قسراً ومعاقبة تجارة النقد في السوق السوداء والمحافظة على السعر الرسمي . وماذا تستطيع الدولة عمله ، في عهد الفوضى هذا ، ضد تيار على مثل هذه القوة ؟ فقد حدث ، في مصر نفسها ، ان المصارف المرتبطة بالادارة ارتباطاً وثيقاً ، قد رفضت احياناً النقد الامبراطوري . وتهاقت الناس على القطع البرونزية الصغيرة على الاقل التي لم تبع بأكثر من قيمتها . ولكن مجلس الشيوخ والمدن الذين كانوا قد احتفظوا بحق ضربها اوقفا الاصدار الذي غدا باهظ الكلاف بسبب ندرة المعدن . فكانت النتيجة ، مع فقدان السمات النقدية التي توحى الثقة ، تجميد التداول وتهديم الأسس الاولية لحياة اقتصادية ترتكز الى شيء آخر غير المقايضة .

وبديهى اخيراً ان التضخم قد قضى على كل ما بنى منذ قرون على امتلاك واستثمار رؤوس الاموال المنقولة: يسار الطبقات الوسطى ، ومؤسسات عديدة ذات صالح جماعي .

وهكذا ، فان التضخم النقدي ، في موجة معقدة من الاحداث وانعكاساتها الكثيرة ، قد لاشى موارد الدولة في الوقت الذي ازدادت فيه نفقاتها ، وحكم على نفسه من ثم بتصاعد دائم لا حد له ، وغذى الفوضى ، وقلب المجتمع ، وألقى على الارض ، في انهيار عام ، ينجبت كاملة من حضارة درج الناس على الاعتقاد بأنها الحضارة المتينة الوحيدة التي باستطاعتها اسعاد البشر .

ولكن الازمة الاقتصادية برزت في ذاتها، مستقلة عن التضخم النقدي الذي فرضته الضائقة المالية على الباطرة . وان اسبابها ونتائجها أكثر من ان وعواقبها الاجتماعية تعد ، وغالباً ما تكون نتائجها اسباباً ثانوية تسهم في زيادة خطورتها . واذا ما اشعرنا هنا بمرارة فقدان الاحصائيات ، فان ذلك لا يمنعنا من مشاهدة تشابك البلية العظيمة التي تجتاح العالم الروماني الشاسع .

انخفضت كثافة السكان بفعل تطور الاخلاق السابق ، وبفعل الغزوات ، والحروب الاهلية ، واعمال السلب ، والابوثة التي تعقب كل هذه الشرور . اجل لم يبرز هذا النقص ، في بعض المناطق ، إلا في عهد متأخر . ولكن افريقيا ، التي نجت منه حتى آخر عهد سلالة ساويروس ،

قد منيت به ايضاً ابتداء من الاضطرابات التي انفجرت في السنة ٢٣٨ .

كانت النتيجة نقصاً في اليد العاملة النشيطة برز اثره في الارياف والمناجم بنوع خاص ، فكان كارثة شاملة لأنه أفضى الى هبوط في انتاج يمول عليه . فانتهز الأشقياء فرصة القوضى وخرجوا من الامكنة المحددة لهم : وقد حدث أكثر من مرة في صقليا وغاليا ومصر ان عاثت زمر الفارين والفلاحين والعمال الهاربين في المناطق الريفية فساداً . وزادت في الطين بلة المصادرات الوحشية بغية سدّ حاجات الجيوش ، او حاجات سكان المدن حين يكون عضدهم ضرورياً . فنزلت الكارثة بمناطق الحدود خصوصاً : فأسكن البرابرة فيها ، في البقاع الخالية من السكان . ولكن الغزوات الموعلة وتنقلات الجيوش وهجوم الواحد منها على الآخر خلقت القلق المضرب بالانتاج : فان بعض الفرنك المستوطنين في تراقيا مثلاً قد نجوا بجرأ ولجأوا الى المنطقة الريمانية . وبوجه أعم ايضاً ، توقف تداول المصنوعات . فلا مجال من بعد ، عملياً ، لقيام تجارة دولية . اما التجارة بين مدينة ومدينة ، وولاية وولاية ، ومنطقة ومنطقة ، فتقهقرت ايضاً امام اللصوصية مرّة اخرى في البر والقرصنة في المتوسط وبحار اخرى نجح البرابرة في التسرب اليها ، وامام خطر المصادرات وما تستتبعه من تخريب في مواد النقل وانقاص في عدد الزوامل . فمقرت المدن الفاقة ، حتى تلك التي لم تعرفها قط في سالف الازمان . وانقطع اتصال روما احياناً بمصر او افريقيا اللتين تؤمنان لها ، في الظروف العادية ، معظم مؤنها . ثم أصاب الشلل نشاط الصناعة اليدوية والتجارة الذي هو نشاط المدن في الدرجة الاولى .

أضف الى ذلك ان كافة مظاهر الحياة البلدية ، التي كانت مزدهرة من قبل ، قد اخذت في الهبوط والسقوط . وانخفض دخل الضرائب البلدية ، كما تناقص سخاء البورجوازية التي كانت تستنفد رؤوس أموالها دون امل بتجديدها ، والدخل العقاري ايضاً . فكان ذلك نهاية التحسينات التي تنشط الاقتصاد وتوفر الاجور للطبقات العاملة . ولم تبأ آنذاك سوى الاسوار تقريباً بغية الدفاع عن المجموعات السكنية التي غدت قليلة السكان .

وهكذا ، بتجمع هذه الاسباب ، ليس الازدهار الماضي وحده ، على تفاوت توزعه ، ما انتهى الى الزوال . فان ما زال ايضاً هو العناصر الجوهرية للجهاز الاجتماعي في العهد الامبراطوري الاول : تنظيم اليد العاملة لمشاريع الكبرى والانتاج الزراعي ؛ نظام الرقي البشري التدريجي الذي يقابل الرفاهية في المدن ، وهو المثل الأعلى للحضارة المتوسطة . لذلك فان الازمة الاقتصادية تمثل احد العوامل الرئيسية للاضطراب الذي سيطر آنذاك على المجتمع .

كانت نتيجة هذا السيل من خيبات الامل والبلبله والمصائب العامة أو الخاصة إثارة الازمة الدينية التي اخذت بالظهور منذ الاضطرابات الدينية الاضطهادات العامة الاولى القرن الثاني .

ابتعدت النفوس عن العبادات الرسمية ، ولم تكن لتفكر بالعودة اليها . فقد غدت وعود هذه

العبادات ، امام واقع النكبة ، موضوع هزء وسخرية . للسلطات حريتها في تأدية اليماءات التقليدية ، التي تناقصت ايهتها من جهة ثانية ، وفي توزع القاب « إلهية » جديدة ، ولكن كل ذلك ليس سوى طقوس باطلة بعد اليوم . واخذ قلق البشر ، فرديا كان ام جماعيا ، يبحث عن ضمانات اخرى في تعزيات اخرى . فوجدها حيث قام بالبحث عنها من قبل ، اي في العبادات الشرقية ، بما فيها النصرانية ، وفي مذهب توحيد الآراء الذي يعبر عن نزعة واخزة الى حماية اعظم لانها توفق بين كافة القوى الفائقة الطيعة . ولكن البلبلة الدينية قد اتخذت ايضا ، في الصراع ضد النصرانية ، اشكالا سلبية وحاقدة .

لا ريب في ان اكثر من مسيحي ، آنذاك ، قد فسر على طريقته الخاصة واستغل احوال هذه الحياة . زوال الوثنيون بالظفرة الى جعل اتباع هذه الديانة المنشقة مسؤولين عن هذه الاحوال : ان القوى الالهية ، ايا كانت ، تتأثر من عموم السكان ، انتقاماً من جسارة الملحدين . فحدث من ثم ، احيانا ، وعلى غرار ما حدث في العهد السابق ، ان طالبت الجماهير بالتدابير العنيفة ، واذا هي لم تطالب بها فانها تستصوبها وتهلل لها ابدأ .

بيد ان غضبها ، في الواقع ، لا يفضي ، في حال تدخلها ، الا الى خلق الحوادث المحلية او تجسيما . وان الاضطهاد ، على الصعيد العام ، ابعد من ان يكون مستمرا . اجل اتصف هؤلاء الاباطرة الكثيرون بالشدّة ؛ فقد قدروا ثمن الوحدة الادبية ، وكانت غريزتهم كافية لان توقفهم في وجه عقيدة بدت لهم وكأنها تثني مؤمنيا عن واجباتهم نحو الدولة . الا ان المصاعب الخارجية والداخلية ، بصرف النظر عن تنوع ميزاتهم الشخصية التي يجب ان تؤخذ بعين الاعتبار ، قد حدثت من حريتهم في العمل .

استفاد المسيحيون اذن ، في اغلب الاحيان ، من تساهل السلطة . وتساهلها لامبالاة مقسورة ، وعطف في بعض الظروف الاستثنائية فقط . فقد استدعت احدى الاميرات السوريات ، ابنة شقيق سبتيوس ساوريوس ، الى انطاكية ، المعلم السابق في مدرسة الاسكندرية المسيحية ، اوريجينوس وبادلتها اطراف الحديث . وقد وضع ابنها ، الامبراطور ساوريوس ألكسندروس ، صورة يسوع في مُصلاة ، الى جانب صور ابراهيم واورفيوس وغيرهم من عظام الرجال . وربما كان فيلبوس الاول « العربي » مسيحيا – اول امبراطور مسيحي – كما نلاحظ او نقدر بعض العطف على المسيحيين في بطانة بعض الاباطرة . ولكن العداوة المستحكم واقع يتكرر غالباً .

وقد برهنت الاعمال عن هذا العداوة احيانا . فان سبتيوس ساوريوس ، الذي كان مسابراً تقريبا ، انتهى الى منع ومعاقبة الارتدادات الى اليهودية والمسيحية . وصدرت آنذاك احكام عدة بالموت ، تحت ضغط الجماهير ، في كل مكان تقريبا : فان « آلام القديستين بريتوا وفيليشيتا » اللتين نفذ الاعدام بهما في قرطاجة في السنة ٢٠٣ مع مسيحيين آخرين كثيرين ، واحد من اعتمق النصوص تأثيراً في سير الشهداء .

ولكن الحوادث كانت متفرقة آنذاك ولم تتناول التدابير ، في أسوأ الحالات ، سوى منطقة واحدة . أما التجديد العظيم فقد ظهر في منتصف القرن الثالث . ففي السنة ٢٥٠ أولاً ، ثم في السنتين ٢٥٧ و ٢٥٨ ، دشنت بعض البراءات الاضطهادات العامة النظامية : ارغم داسيوس المسيحيين على تقديم الذبائح للآلهة او اقله على تقديم شهادة تثبت القيام بذلك ، ثم جدد فاليريانوس هذا الأمر وحدد سلم العقوبات للمخالفين ، الموت لاعضاء الكليروس والنخبة اطلاقاً ، والاشغال الشاقة للآخرين . واستمرت الحال على هذا المنوال حتى ديوكليسيانوس ، على ان العمل بالبراءات لم يدم طويلاً . فان هومو اخرى كثيرة قد شغلت بال هؤلاء الحكام وخلفائهم : مات داسيوس في حربه ضد القوط منذ السنة ٢٥١ ؛ ولم يسر غالينوس على سياسة ابيه الذي اسره الفرس منذ السنة ٢٦٠ . ومع ذلك فقد كان الاضطراب عميقاً وكانت الضحايا كثيرة بين الطوائف المسيحية . لا نستطيع هنا اثبات ما اذا كان غزو هذه الطوائف قد تأثر بهذه الاضطهادات التي لم توقفه على كل حال : فمشاهد وآلام الحياة الارضية تقوي بالضرورة الامل بمكافآت الحياة الأخرى . ومنذ قبل نهاية عهد الانطونيين ، كانت جذور الديانة المسيحية أعمق من ان يستطيع العنف اقتلاعها . فهي ، من حيث عدد اتباعها ، ومن حيث مزاياها الاجتماعية غالباً ، تمثل قوة لا يستطيع احد ، في ايام تلك المنافسات ، ان يهملها .

غير ان وجودها وانتشارها في قلب الامبراطورية قسد زادا في اضطراب وتصعد مجتمع انقضت عليه آنذاك كل هذه الأعاصير .

الثورة الاجتماعية وداعي المصلحة العليا
فالأزمة من ثم واقع راهن متعدد الأشكال ، وقد شددنا الكلام عن قصد ، في تحليلنا اياها تحليلاً مستفيضاً ، على ما فيه من ايجاز ، بالنسبة لواقع الحال ، على تعدد وتشابك مظاهره وأسبابه . ومن العبث محاولة رد هذه وتلك الى الوحدة .

من الواجب ، والحق يقال ، ان نغير اهتماماً كبيراً التفسير العام الذي قدمه منذ ثلاثين سنة مؤرخ روسي الأصل ، هاجر بلاده بعد ثورة السنة ١٩١٧ - وكأنه معد لفهم اشياء كثيرة - هو ميخائيل روستوفتزييف *Michaël Rostovtzeff* . فقد عبرت الفوضى العسكرية في القرن الثالث ، من وراء احداثها اليومية ، عن ثورة اشد الطبقات الفلاحية خشونة ، التي ينتمي إليها الجنود ، على كبار الملاكين العقاريين والبورجوازيات البلدية ، أي على كافة المنتفعين بالنظام الاجتماعي والسياسي السابق الذين دانوا بسلطتهم وترفعهم لاقتسار واستئثار الوضعاء . فهي من ثم ثورة اجتماعية شبيهة بكل الحركات المماثلة ، يرافقها انفجار الاحقاد وفضاعة الانتقام وانفلات الغرائز البدائية . ونحن نلص الدافع اللاواعي الذي خضع له منفذوها الرئيسيون بفضل بعض الدلائل : معاملة قاسية نادرة عوملت بها بعض المدن التي رافقت احتلالها اعمال التقتيل والنهب ، (بيزنطية) في السنة ١٩٥ ، و (ليون) في السنة ١٩٧ ، و (قرطاجة) في السنة ٢٣٨ ، و (أوتين) في السنة ٢٦٩ مثلاً ؛ الارهاب ، لا سيما في عهد أباطرة سلالة ساويروس الأولين ، الذي استهدف

الطبقة المجلسية ، فتمرضت لأحكام بالموت ، ولمصادر لا تحصى ؛ التدابير السياسية والادارية التي حصرت دور المجلس والشيوخ ؛ التدابير التي فرضت على العناصر الميسورة من سكان المدن أعباء مالية واقتصادية ثقيلة جداً .

ولكن كلاً من هذه الأحداث ، أو مجموعات الأحداث ، اذا ما استجاب لنزعة عامة لا شك في وجودها ، يستجيب ايضاً لضرورات ملحة مباشرة : معاقبة وتقويض كل مقاومة ؛ المعجز المالي والضائقة الاقتصادية ؛ التصميم ، مهما كلف الأمر ، على تسيير الدولة ، كيفما كان التسيير ، على الرغم من الحروب الأهلية والخارجية التي تشل حركتها . لذلك ، فان التفسير الاجتماعي ، مهما بلغ من اتساعه ، يبدو محدوداً ، ولا يعالج سوى ناحية واحدة : وان ميخائيل روستوفتزييف ، بعد ان قدمه في السنة ١٩٢٣ ، قد ادخل عليه بعد ذلك ، اكثر من تصحيح ومفارقة .

ان ما يلخص الحركة العامة ويرمز إليها جيداً ، على ما فيها من تعقيد وتشويش ، في هذه السنوات المظلمة ، هو طابع الأباطرة المشترك وعملهم الذي أفضى الى تفرجج الأزمة . أجل ، لقد نتم اختيار الرؤساء المتأثرين ، بحسب قاعدة مطردة ، عن تفضيل اجتماعي : فقد كانوا رؤساء عسكريين ، لا شك في ذلك ، ولكنهم ، أتوا عن طريق غير عضوية المجلس التي اكتسبت فسيبسانوس ، أو ترايانوس قيادة توكليهاها . ولم تكن الجيوش ، وشأنها في ذلك شأن ملهيمها ، حين ترضى بالسير وراهم ، لتقدم على عمل دام ، يقوم به أشخاص عادمو الحزم يثيرون السخرية : فهي تبحث ، برجفات محيرة ومتناقضات وتقلبات في الرأي يفسر انفلات الغرائز وجه الغرابة فيها ، عن زعيمها ، أي عن ذاك الذي يشاركها الميول الصاخبة ، ثم يكون سعيداً في تحقيقها . وهكذا يبرز ، ويتعاقب في كرسي الحكم ، خلال الثلث الأخير من القرن الثالث اجيالاً ، ذاك الجيل المدهش من « الأباطرة الأثريين » ، الذي بشر به داسيوس ، ومثله كلوديوس الثاني ، وأوريليانوس و بروبوس *Brobud* وكاروس خير تمثيل ، قبل ديوكليسبانوس الذي فرض نفسه مدة طويلة . فزالت مع هؤلاء ، بانتظار قيام غيرها ، سلالات الأباطرة المثقفين ، هواة الفن والآداب الجميلة والفلسفة ، وتلاشى احترام صيغ التسوية المداهنة التي تراعي الظواهر وترسخ في المناصب أفراد النخبة المستنيرة . أجل ، لقد حدث ، منذ اغتيال كومودوس ، ان تسلم الحكم أباطرة ينتسبون الى الطبقات الشعبية في ايطاليا أو في الولايات ؛ ولكن ذلك لم يتعدّ العرض قط . وهانحن أمام سلسلة من رجال وضعاء المنشأ ، متوسطي الثقافة ، ولدوا في اليريا *Illyricum* ، أي في الولايات الشمالية الشرقية من شبه الجزيرة البلقانية ، حيث توطدت حضارة لاتينية فظة ، لم ينخرطوا سوى في الجيش ، منطلقين من أدنى مراتبه ومرتفعين ، بفضل أهليتهم وحدها ، الى المراكز الهامة .

فاذا ما جاز لنا ان نتنظر منهم التحلي بضمير نطلق عليه اليوم صفة « الطبقي » ، فان هذا الضمير ابعد من ان يلهمهم وحده ، وحق ان يكون الغالب فيهم . لا ريب في انهم احتقروا تسلسل المراتب القديمة وجهاوا مفاتن الحضارة الرقيقة . ولكن ما يشجعهم قبل كل شيء هو

وطنية شبه متعصبة ، وحزم لا يثنيه أي وأزع ، وتصميم فولاذي ، لا يرحمهم ولا يرحم سواهم بعنفه ، على انقاذ الامبراطورية وعمل روما التي يشعرون بانهم ابناؤها. وقد شجعهم ، في الوقت نفسه ، بما فيه الكفاية لمقاومة الميل الى العطف على ثورة دائمة يقدم عليها الوضعا ، الاقتناع بان ما من شيء يتحقق دون اعادة نظام شديد : فان هذا النظام ، الضروري للجيش في الحروب التي ينهض بها ، يشكل ايضا العلاج الوحيد للصعوبات الداخلية .

بفضل المجهود العنيد المتواصل الذي بذله هؤلاء الاباطرة وكلفهم حياتهم ، انتهت الازمة الكبرى اخيراً ونجم عن الاطلال التي كدستها نظام جديد يكاد يكون مستقراً . ومع ذلك ، فان الجنود والطبقة التي عبروا عن غضبتها ، لم يحققوا اهدافهم . فاذا كان المحظيون القدماء قد تواروا ، فقد حل محلهم محظيون آخرون : ولم تقض الثورة الاجتماعية الى تحقيق المساواة . وبما لا شك فيه ان قوى اخرى كثيرة ، غير تصميم الريفيين ، الثملين بامكاناتهم ، على الانتقام لبؤسهم ، قد فعلت فعلها في هذا الاعصار الغريب . ولعلمهم افتقروا الى قادة الفكر الذين لم تفتقر اليهم بعض الحركات الثورية اليونانية ، وحتى الرومانية في عهد الجمهورية . فهل كان ممكناً ، بما اشتهروا به من خشونة وفظاظة ، ان يفهموا هؤلاء القادة ويسيروا وراءهم ، لو انهم توفر لهم بعد قرنين من النظام الاجتماعي والادبي ؟ ومهما يكن من الامر ، فان موانع كثيرة قد اوقفت وحبت وحولت عملاً لم يخضع لبرنامج .

وهكذا فان المصلحة العليا ، التي تفقدها انتهازيتها معنى الرحمة ، قد افلحت في اعادة نظام مادي يتيح للجماعة العيش ، مسيراً نزعاتها الروحية ، ومضحياً بها عند الحاجة .

الفصل الثاني

تجدد الأخطار والاضطرابات خلال الأصلاحات الهزلية في القرن الرابع

انقذ حزم الإباطرة الاتيريين الامبراطورية من الغزو والثورة الفوضوية. وأعادوا في الوقت نفسه تنظيمها بسلسلة من التدابير املتها عليهم ذهنية العهد وحاجاته الملحة. ثم جاء ديوكليسيانوس وهو اوفرهم مواهب في حقل الادارة ، على الرغم من انتهازيته ، فوسّع هذه التدابير وأعاد النظر فيها طيلة عشر سنوات على الاقل ، قبل ان ينظم عملاً اكمله قسطنطين بدوره . وعلى الرغم من بطء ومشقة هذا الاصلاح ، فلم يفت المعاصرين ان يتذكروا اوغسطس . فقد بدا ، فعلاً ، في اوائل القرن الرابع ، ان انطلاقة جديدة قد حدثت ، في القوة والوحدة المستعادتين ، قوة خارجية شبيهة ، اقله فيما يعود لسلطة الامبراطور والمركزية ، بتلك التي استطاع اوغسطس تأمينها للامبراطورية الحديثة ، ووحدة تفوق الى حد بعيد تلك التي اوجدها . وليس من ريب في ان حضارة قد برزت آنذاك من الحواء : هي تلك التي يجب ان نعتبرها حضارة العهد الامبراطوري الثاني لانها وحدها بلغت درجة كافية من التلاحم العضوي ، حين لم تعد مجرد مظاهر عرضية متلاصقة .

فهل اعطت جميع امكاناتها الكامنة يا ترى ؟ مهما يكن من الأمر ، فان فترة ازدهارها كانت قصيرة جداً . ومهما يكن من الأمر ايضاً ، فانها قد اصطدمت بعقبات شديدة ، يجدر بنا ان نحدد ما منذ الآن ، حتى ندرك شوائبها وقصر مدتها .

١ - الجهود الباطلة ضد البرابرة

ان اشدّ خطر تعرضت له جاءها من الخارج .

توفى القادة العظام في اواخر القرن الثالث ، باقل توضيحات اقليمية ممكنة ، الى استعادة مناطق الحدود وقمع حركة المنشقين في الداخل . وقد حدث في عهد ديوكليسيانوس وقسطنطين ان اجتازت جيوش رومانية نهري الرين والدانوب اللذين نظم عليها مرة اخرى ادفاع متين . واستعاد ديوكليسيانوس بلاد ما بين النهرين ، لا بل ارفع الساسانيين على التخلي عن بعض الاقاليم

وراء دجلة : ولم يسبق لروما ان حققت مثل هذا التقدم في الشرق .
وفرت هذه الانتصارات والتنظيم الدفاعي الذي وطدها سلباً نسبياً استمر ثلاثة أرباع القرن .
اجل كانت هذه القوة وهذه الطمأنينة سريعتي الزوال . ولكن الجهود العسكري الذي نهض به
العهد الامبراطوري الثاني ، على الرغم من ان الانهيار الاخير قد برهن عن عدم جدواه ، ليس
مجهوداً يحوز اهماله ، وما من امبراطور ، حتى وفاة ثيودوسيوس *Théodose* في السنة ٣٩٥ ،
إلا وقام بواجبه العسكري خير قيام .

١ - الجيش في العهد الامبراطوري الثاني

أثبت الاختبار قصور الجيش القديم ، وعدم انطباقه على ظروف الحرب التي يفرضها
الاعداء الآن . فزيد عدد المهندسين وعُدل تنظيم الجيش .

ما زال المثل الأعلى مثل كل دولة عرفت الاستقرار ، أي حماية كافة الأراضي
تنظيم الحدود
الرومانية : وهو يوجب عدم اهمال مناطق الحدود . ولم يتغير طول الحدود
قط ، اذ انه ازداد بفقدان المناطق الملحقة بالاملاك الأميرية ، ونقص بفقدان داسيا . ولكن
حدوداً محصنة كثيرة قد زالت ، وعلى الرغم من الجهود المبذولة لم يتوفر الوقت لاعادتها الى
مثل ما كانت عليه من متانة . ويبدو ان العمل الذي انجز على طول نهري الرين والدانوب ،
لا سيما في عهد فالنتينيانوس الأول كان أهم عمل نظامي . فقد املت الخنادق المتصلة واستعويض
عنها ، انطلاقاً من أهمية الطرق والانهيار ، بيناء المزيد من الابراج والقليعات والحصون
والمسكرات ، وفاقاً لتقنية غدت أعظم مهارة بفضل الملائق بالفرس : فاقتبست في الغرب
بعض النماذج الشرقية . واعتني كذلك بأسوار المدن فأدخلت التحسينات عليها : فكانت المدن ،
أمام البرابرة الذين ما زالت وسائلهم بدائية ، معاقل تكاد لا تقهر .

بفضل هذه الأشغال ، حدث تطور بطيء جداً ، بدأ منذ نهاية عهد سلالة ساويروس على
الأرجح ، وبلغ الذروة في عهد قسطنطين . أضف الى ذلك ان لا مجال للخيار : فالافتقار الى
العدد الكافي من الجنود الممتازين اقتضى ابقاء أقلهم نشاطاً وقوة في مناطق الحدود التي تسهل
التحصينات فيها المهمة العسكرية بمعناها الحصري . وقد حُددت لهم اجور أقل ارتفاعاً ،
وخصصوا بقطع ارض يتولون زراعتها لتأمين معيشتهم ومعيشة عائلاتهم . ووكل إليهم امر
المراقبة في الدرجة الأولى وأمر رد الهجمات في الدرجة الثانية ، وأمسى الكثير منهم ، في الواقع ،
جنوداً لا كفاءة عندهم يلجأون الى التحصينات اثناء الغزو ، فكانوا من ثم يتلقون الصدمة الأولى
ولا يفلحون في مقاومتها إلا نادراً . اجل ؛ لقد بلغت الصدمات اتساعاً وعنفاً لم يضطر جيش
العهد الامبراطوري الاول ، الذي لعب كله تقريباً جوهر هذا الدور ، لتحملها إلا في ظروف
استثنائية . ولكن رجال وحدات الحدود ، قد أعوزهم آنذاك ، كما يبدو ، التدريب والمناورات
التي انقطعت القيادة عن فرضها عليهم .

جيش الريف ليست هذه حال الوحدات الأخرى . في فترات الهدوء تؤلف هذه الوحدات حاميات تقيم على مسافة كبيرة من الحدود ، وحتى في قلب الأراضي الرومانية في اغلب الأحيان . ويفرض الأمن الداخلي احتياطات تفوق بعددها الاحتياطات السابقة . فقد رغب المسؤولون بنوع خاص في ان تمأ هذه الوحدات بمعرفة تامة ، وان تجمع أولاً حتى يؤلفوا منها جيشاً ريفياً . واخضعوها لهذه الغاية الى تنقلات هامة احياناً ، من طرف الامبراطورية الى طرفها الآخر ، وقد ازداد تكرر هذه الحركات بفعل الاغتصابات التي تستلزم حملات داخلية .

تألف هذه القوى ، في الدرجة الاولى ، شأنها في الماضي ، من الحرس الامبراطوري . ولكن فرق حراسة القيصر ، التي مقتتها الوحدات الأخرى على الدوام ، بسبب امتيازاتها ، زالت من الوجود على اثر الهزيمة التي انزلها قسطنطين بـ « مكسانس » عند جسر ميلفيوس في السنة ٣١٢ . فحلت محلها تدريجياً فرق من الجرمانيين الذين قدموا منذ اوغسطس حرس الامير الخاص ، وابقى ايضاً على وحدة « المظاهرين » التي انشئت في للقرن الثالث والتي استجاب وجودها في الوقت نفسه لاهداف اخرى .

يحمل الجنود الآخرون في الجيوش الريفية اسماء تم عن ميزة وربما عن اصل وحداتهم ، كـ « البلاطيين » و « المرافقين » مثلاً : والمقصود بذلك الاشارة الى فصلهم عن الجيش او اقله التذكير بانهم يؤلفون الوحدة التي يتولى الامبراطور قيادتها شخصياً في زمن الحرب . وقد عسكر بعضهم ، في الواقع ، في الولايات ؛ بينما كان طبيعياً ان يقيم عدد كبير منهم على مقربة من المقر الامبراطوري .

بيد ان الصعوبات التي واجهها العهد الامبراطوري الاول في ادارة حرب هامة لم 'تحل' بفعل هذا الفصل بين جنود الحدود و جنود الإحتياط . فقد ثبت ابدأ خطر إخلاء منطقة كاملة من فرقها الريفية . وليس من ريب ، حين جهز ليسينيوس ١٦٥٠٠٠ رجل في السنة ٣٢٤ ، وقسطنطين ١٣٠٠٠٠ لمهاجمته ، في انهما كليهما تصرفا بكل امكاناتها في فترة استثنائية من الهدوء الداخلي . ثم تبدلت الأمور تبديلاً هاماً بعد انقضاء اربعين سنة تقريباً : فان جوليانوس على الرغم من اهمية الاعدادات ، لم يستطع قيادة اكثر من ٦٥٠٠٠ رجل في حملته على الفرس . وفي السنة ٣٧٨ ، لن يجمع فالنس منهم سوى ٣٠٠٠٠ جندهم في الحقيقة من الشطر الشرقي في الامبراطورية فقط .

كانت هنالك اذن ، على غرار ما حدث في العهد الامبراطوري الاول ، حاجة الى التجنيد الرجال ، على الرغم من الجهود المتزايدة ، من حيث قيمتهم النسبية - بسبب نقص السكان - وقيمته المطلقة على السواء .

ليس لدينا اية دلالة يوثق بها لتحديد عدد المجندين الاجمالي وتتبع ما طرأ عليه من تغييرات . ولكن ما لا ريب فيه هو ان ديوكليسيانوس قد تعهد جنوداً أكثر منهم عدداً في عهد سبتيموس

ساويروس الذي سبق وحدث ثلاث جوقات جديدة من الطراز الكلاسيكي ، وان قسطنطين قد رفع عدد وحدات الجيش ايضاً . وقد تكلمت وثيقة نظرية عن عدد يبلغ ٥٠٠ ٠٠٠ رجل تقريباً ، في اواخر القرن الرابع . ومهما يكن من الأمر ، فان العدد يفوق الى حد بعيد ما بلغه في القرن الثاني .

مهما يكن من الامر ايضاً ، فان هذا العدد لا يزال غير كاف ، لان المهام الواجب تنفيذها امست ، من جهتها ، صعبة جداً . فخمسمائة الف رجل لا يفون بحاجة دولة عليها آنذاك ان تعبىء كل قواها ، ولديها موارد بشرية عظيمة لم تستطع ، لابل لم تحاول ، تجنيدها . اجل يجب ان لا نحكم عليها بمقياس الجمهوريات البلدية القديمة ، ولا بمقياس الدول المعاصرة : فمئذ العهد الجمهوري ، استبعدت روما مبدأ الخدمة الاجبارية . ولكن ما هو اخطر من كل ذلك هو ان مبرر الاعتبارات المالية الذي خضع له اوغسطس في اكتفائه بجيش محدود ، قد توارى الآن امام مبرر آخر هو فقدان الاعتبار الملازم لصفة الجندي بالذات .

يبدو ، اقله في بعض المناطق ، كالتيريا مثلاً ، ان الدعوة للتطوع الاختياري كانت تؤدي الى نتائج حسنة في القرن الثالث . ثم غدت نتائجها العملية دون جدوى في القرن الرابع فعروض اللجوء الى الاجبار عن هذا المعجز ؛ ولكنه زاده خطورة ايضاً ، لان هذا الانتساب لمهنة الجندي قد فقد طابعه الطوعي .

تناول الاجبار في الدرجة الاولى ابناء الجنود . منح سبتيوس ساويروس هؤلاء حق عقد الزواجات الشرعية : فكان ذلك بمثابة تعميم واقع راهن يجعله قانونياً . وكذلك ، فان الدولة ، بتخليها عن قطع الارض لجنود الحدود ، قد عممت نظاماً قديماً لم يستغد منه الا بعض جنود الحصون فقط . ثم فرض مبدأ الوراثة في المهنة الوالدية على كافة الطبقات الاجتماعية ، فطبق بكل شدة في الجيش . فاضطر ابناء الجنود الى الانخراط فيه ، ما لم يكونوا ضعفاء البنية ؛ وخلفوا بالتالي آباءهم في الانتفاع بالاراضي التي كان يستثمرها هؤلاء .

غير ان ارتفاع نسبة الوفيات جعل هذا المورد غير كاف . ولم يفكر احد بمراعاة المساواة في قيد الشبان البالغين سن دخول الخدمة العسكرية . بل اقتصروا على جملة وفقاً على الملكية العقارية . فقد فرض على الملاكين ، منفردين اذا كانت املكهم على بعض الاتساع ، ومجتمعين ومكتتبين اذا كانت املكهم على عكس ذلك ، ان يقدموا المجندين . وهم يختارونهم حيث يستطيعون ، في أدنى طبقات السكان الريفيين وحدها تقريباً ، محاولين استئالة المتطوعين بالمال ، او بين العبيد ، محاولين استئالتهم بالإعتاق : وقد ظهر بعض التجار الذين سهلوا هذه المهمة . وحاول الامبراطور احياناً حماية الضعفاء الذين يقدمون مرغين ، وفي أغلب الاحيان معاقبة المتمردين ؛ وصدر اخيراً قانون اقرت بموجبه عقوبة الاحراق لمن يبترون احد اصابعهم . فكانت نتائج طريقة التجنيد هذه من الضعف بحيث ان الحكومة فضلت ان يقدم لها المحضعون مالا لرجالاً : فهي تستطيع عن طريق المال تأمين حاجتها في غير مكان .

ويعني « غير مكان » البرابرة الحشنيين ، المتعبرين جنوداً ممتازين ، لا سيما لمحاربة برايزة آخرين ، و اقل ميلا الى التمرد على الامبراطور الشرعي . وقد سبق للامبراطورية الاولى ان ادخلت بعضهم في خدمتها ساعمة لهم بالاحتفاظ بعاداتهم القومية . وبسبب الافتقار الى نظام احسن ، انتشر هذا النظام في القرن الثالث وزاد انتشاراً في القرن الرابع . وبدهي ان الرومان قبلوا بتطوعهم الفردي كما قبلوا بهم في المجتمع ايضاً . ولكنهم نظموا في النهاية تجنيدهم . ثم أسكن عدد كبير من الاسرى واللاجئين في اراضي الامبراطورية بغية تعير واستثمار المناطق التي تندر فيها اليد العاملة : وتقوم مهمة الادارة في مراقبتهم ، ويفرض على أبنائهم ، على غرار ابناء الجنود ، الانخراط في الجيش . ونعم آخرون بنظام « الحلفاء » وقدّموا وحدات منظمة بحسب عاداتهم يرئسها ضباط قوميون : وقد حدث في الواقع ، تدريجياً ، ان الذين دخلوا الامبراطورية عنوة تعذر طردهم منها وسمح لهم ، لقاء معاهدة ، ان يعيشوا في منطقة معينة كشعب غريب الى جانب من بقي فيها من الرومان .

من الخطأ الفادح الاعتقاد بأن اللجوء الى هؤلاء البرابرة لم يخيم سوى الغيوم للامبراطورية : فولاهم ، لحصل انهارها قبل موعده بزمن بعيد؛ اضعف الى ذلك انهم ، بفعل اخلاصهم للامبراطور الذي يدفع لهم اجورهم ، قد منعوا او قمعوا كثيراً من الاعتصابات ، وبالتالي من الاضطرابات التي طالما أثارها الجيوش المدنية في القرن الثالث . ولكن وجودهم قد أسهم في اقصاء المواطنين عن الجيش ، وربما كان الخطر يقضي بعاداتهم اليه . فهم يمثلون حلاً سهلاً قد تكون عواقبه ، وستكون ، خطيرة جداً . فبصرف النظر عن الرغائب التي قد يبعثها فيهم الشعور بقوتهم وبالخدمات المؤداة ، لم يعد الجيش الروماني المزعوم ، الذي انتهبوا الى تشكيل أكثره الساحة ، تلك الأداة الممتازة لنشر الحضارة الرومانية كما كان في القرنين الاولين : بل غدا أداة لنشر البربرية . وكان كل شيء ، في الحقيقة ، قضية تقدير ونسبية . ولكن من ذا الذي استطاع ، في ما يتعلق باللجوء الى غير الرومان ، الاستشهاد بسوابق قديمة جداً تظهر فيها حدود الخطر ؟ وفي أي وقت ، خلال القرن الرابع ، اجتيزت هذه الحدود ؟ فأولى بنا من ثم الاكتفاء بأن نلاحظ ان الآراء الخاطئة القديمة ، ذات الطابع الاجتماعي والثقافي معاً ، التي دفعت الى إلقاء مهمة الدفاع عن المصلحة العامة على أشد عناصر السكان فظاظة ، تحمل عبء مسؤولية هذا الوضع وازدياد خطورته .

التنظيم وفن الحرب
تأثر الجيش بأعدائه وتسلّحهم وأساليبهم الحربية فأثره بالخراب البرابرة فيه . فميزته فروق عظيمة عن جيش العصور السالفة .

عرفت الجوقة التقليدية البقاء . ولكنها كانت كثيرة العدد بطيئة الحركة . وما كانت لتستطيع العمل إلا بضم وحدات مساعدة متنوعة محصورة العدد اليها . وقد صنف التجنيد الرجال ، بينها وبين هذه الوحدات ، وفاقاً لنظامهم القانوني ؛ غير ان هذا التمييز قد زال ، منذ براءة كركلا في السنة ٢١٢ ، بفضل شمول حق المواطنة الرومانية كافة الرجال الاحرار

العائشين في الامبراطورية باستثناء المعتقين ؛ فلن ينظر الجيش بعد الآن الى الفئات القانونية ولن يرفض سوى السيد. لذلك فان تكرر استخدام فصائل الجوقات ، منذ العهد الامبراطوري الاول ، قد افضى بالنتيجة الى تجزئة هذه الجوقات - لا يزال الاسم يطلق عليها ، ولكن نادراً ما يتجاوز عددها ألف رجل في ذلك العهد - والى مساواتها عملياً بالوحدات المساعدة . وقد ارتفع العدد الاجمالي لهذه الوحدات المختلفة ارتفاعاً كبيراً .

وتبدل التسلح على طريقة البرابرة . فأهمل المشاة الاسلحة القومية ، البيوم ، والمفصل ، والترس الكبير ، والدرع المعدني ، واعتمدوا الرمح ، والسيف ، والخنجر ، والقوس نفسها احياناً ، والترس المستدير ، والدرع الجلدي . وتسلمت بعض وحدات الفرسان ، على غرار الفرسان ، بالاقواس الجبارة ، وحدث في بعضها ان ألبس الرجال والخياد صفائح حديدية او زروداً .

منذ القرن الثالث ارتفع عدد الفرسان ارتفاعاً عظيماً مطرداً . ويعود ذلك الى ان الجيش يجب ان يكون سريع الحركة . كما يعود الى ان الفرسان الثقيلي التسلح ، القادرين على الانقضاض على العدو ، فرقاً متلاحمة في المناورة ، قد أحدثوا اتجاهاً جديداً في التاريخ العسكري وأثبتوا مجدداً تفوقهم على المشاة . ويمكننا القول ، دون مبالغة في أهميتها - لأن هنالك سوابق ، ولأن هذا المثل لا يحدث تقليداً - ان معركة اندرينوبولس (ادرنه) في السنة ٣٧٨ ، التي رجحت بفضل كرم الفرسان القوط ، يمكن اعتبارها مقدمة للفن الحربي في القرون الوسطى . ولكن الرومان ما زالوا يتلمسون طريقهم . فان اوريليانوس ، قبل استلامه الحكم ، كان قائداً لكافة وحدات الفرسان في الجيش ، المكونة فرقة مستقلة للنهوض بحركات جماعية : غير ان هذه الوحدات الهامة لن تظهر في القرن اللاحق . ومع ذلك فقد أصبح الكرم مهمة الفرسان الرئيسية الذين حملت وحداتهم اسم « الاسافين » المميز .

وتحسنت القيادة اخيراً تحسناً كبيراً . وقد لعب الحذر السياسي دوره في ذلك لأن القيادة الرومان ما زالوا يخشون ، في القرن الثالث ، طموح اعضاء الطبقة المجلسية الذين كان لهم وحدهم الحق ، دون المرور بالدرجات الدنيا ، في تولي قيادة جوقة او جيش . ولكن الاهتمام بالنوع قد لعب دوره ايضاً الذي أمسى في النهاية أهم دور : فقد ارادوا ، بعنادهم في إلغاء امتياز النسب ، اكتشاف الافاضل وتخصيصهم في دورهم العسكري . فحدث من ثم تطور مزدوج . أقصى الشيوخ من جهة عن القيادات . وقد سبق لسبتيموس ساويروس ان وضع فرساناً من الأشراف على رأس الجوقات التي أحدثها . ويعزو التقليد الى غالينانوس براءة تجعل من هذا الاقضاء مبدأ . اجل هنالك وقائع ثابتة تناقض هذا التقليد ؛ ولكن الغلبة في النتيجة للنزعة التي تكلم عنها هذا التقليد . وارتسمت من جهة ثانية ، وبصورة اجدى ، ثم انتصرت ، مع قسطنطين ، النزعة الى فصل الوظائف المدنية عن الوظائف العسكرية .

وهكذا ، فان تعيين المراتب ، وترفيع ذوي الأهلية دون غيرهم ، اللذين يمثلان التجديد

الاجتماعي الرئيسي في القرن الثالث قد عمل بها في القرن الرابع ايضاً . فبينما لم يكن الجندي من قبل ليتجاوز الاستثناء ، درجة قائد المائة ، أي درجة صفار الضباط ، أصبح الآن من شأن جدارته أو حظه ، ان يقوداه الى أعلى الوظائف في سلم المراتب ، وبما ان هذه التمييزات الاجتماعية ، فقدت أو كادت تفقد كل أهمية سياسية ، فانه قد احتل مع الزمن مرتبة الفارس الشريف ، ومرتبة عضو مجلس الشيوخ بعد ذلك . ويرافق هذا الوضع ذيله الطبيعي : فكافة القادة العسكريين ضباط ممتنون لا يخدمون طيلة حياتهم إلا في الجيش .

بفضل زوال كل تمييز قانوني ، غدا التدرج ممكناً للبرابرة انفسهم . وكثيرون هم الذين أفادوا منه . وقد أخذ بعض المعاصرين على قسطنطين انه خصّ الفرنك بمحبته ، ووجه اللوم عينه الى ثيودوسيوس بصدد القوط . وباستطاعتنا فعلاً وضع لائحة طويلة بالقادة البرابرة الذين اشتهروا ولعبوا دوراً خلال النصف الثاني من القرن الرابع ، ناهيك عن القرن الخامس . بيد اننا تقتصر على الاشارة الى وجود القوطيين غيناس والاريك والفاندالي ستيليكوت والقفقاسي باكوريوس على رأس وحدات الجيش الرئيسية التي اتاحت لثيودوسيوس ، في السنة ٣٩٤ ، الانتصار على جيش المقتصب اوجينيوس بقيادة الفرنجي اربوغاست . فالاريك وحده بين هؤلاء ، وهو ملك الفيزيقوط الحلفاء ، لم يكن ضابطاً رومانياً، في حال ان جميع الآخرين قد كسبوا القيادة في خدمة الامبراطورية .

مر كثيرون من هؤلاء الضباط ، الرومانيين او البرابرة ، في اوائل خدمتهم ، في وحدة « الحماة » . وقد تشكلت هذه الوحدة ، منذ احداثها في القرن الثالث ، من صفار الضباط ذوي المناقب والكفاءات فقط . ثم اجيز الانحراط فيها ، في القرن الرابع ، لابناء الشيوخ ، ولكن دون ادخال تغيير جوهري عليها . وكانت هذه الوحدة تؤلف جزءاً من حرس الامبراطور الخاص ، حتى ان افرادها لقبوا اخيراً بـ « المنزليين » فالفوا البلاط وكيفوا عليه تصرفاتهم . ولكنهم لعبوا دور الاركان العامة ايضاً واسندت اليهم المهام الخطيرة . واختير بينهم قواد الجوقات الذين اتيح لهم بعد ذلك تسم مراتب اعلى . فان هذه الوحدة ، التي اوجدت لاعداد النخبة ، قد حققت هدفها : ومن عناوين فخر المعهد الامبراطوري الثاني انها لم تعرف الانحطاط .

فرضت تجزئة الجيش وحدات محصورة العدد تنظيم حشود لم يكن الفصل بين الوظائف المدنية والعسكرية ليسمح بوضعها ، كما في السابق ، تحت امرة حكام المناطق . وانما احدث لقب « القائد » ، في القرن الثالث ، لرؤساء هذه الحشود بالذات . فمنذ ديوكليسيانوس رئس من يعمل هذا اللقب ، مبدئياً ، كافة الجنود في احدى ولايات الحدود ، التي اصبحت اراضيها ، من جهة ثانية ، من جراء التقسيمات النظامية ، اضيق منها في السابق . وقد حدث احياناً ان مارس بعض القادة سلطتهم على اقليم اوسع ؛ فاطلق عليهم آنذاك لقب « الكونت » (رفيق) ، ولكن هذا اللقب لا ميزة نوعية له . اما جيش الريف ، فقد عين له قسطنطين « معلمي جنود » *Magistri militum* احدهما للشاة والثاني للفرسان : وقد راعت هذه الازدواجية سلطة

الإمبراطور بكل عناية . ثم وزع هذا اللقب على نطاق اوسع ، فعين « معلمون » لجيشين . ولكن مالنا وهذه الاصطلاحات التي يكفي ابتذال الألقاب تدريجياً لأن يجعلها غامضة جداً . فالهم هو اننا نادراً ما نرى احد هؤلاء الموظفين الكبار متهماً بعدم الاهلية . اجل كان هؤلاء الرجال نقائصهم ، وقد لجأوا الى الدسيسة . ولكنهم لم يبلغوا في ذلك ما بلغه شيوخ القرن الاول . وهم قد عرفوا مهنتهم خير معرفة .

وفي القمة اخيراً كان الامبراطور وحده الذي ما زالت صفته العسكرية مسيطرة عملياً ، ان لم يكن نظرياً . وما زال الجنود يهللون للأباطرة ، الذين غدت سلطتهم ، في القرن الرابع ، سريرة الزوال ، ان هم لم يعنوا بواجبهم : وغالباً ما دانوا بالمناداة بهم اباطرة ، كجوليانيانوس وفالنتينيانوس الاول وثيودوسيوس ، للبراهين التي أعطوها من قبل عن أهليتهم العسكرية . ولا يقبلون بالتوازي لتسليم القيادة العليا الى القادة ؛ بل يشتركون شخصياً في الحملات ولا يترددون في المخاطرة بحياتهم ، وحتى في التضحية بها . فولايتهم سلسلة متواصلة الحلقات من الجولات يفرضها عليهم الصراع ضد الأعداء في الخارج وفي الداخل .

ونلاحظ بالتدقيق في عداد التبدلات المموسة التي أفضى اليها موت ثيودوسيوس نهاية النشاط العسكري الشخصي الذي كان يقوم به الامبراطور . فهذا الاخير ، منذ السنة ٣٩٥ ، ينزوي في قصره في القسطنطينية او في رافيننا ، 'جلسة' ومنفرداً ، تاركاً لبعض القادة ممن تقف لهم دسائس البلاط بالمرصاد امر قيادة الحملات العسكرية . وفي حين ان المزيد من الصعوبات يدعوم للعمل ، نرى في اعراض هؤلاء الرجال الذين لا يشكون من ضعفهم بل من بعدهم عن عامة البشر بفعل عظمتهم ، - لن يظهر أي امبراطور شرقي في الجيش قبل السنة ٥٩٢ - مقاطعة للتقليد الامبراطوري الروماني . ولعل هذا الإعراض سبب آخر لنهاية الامبراطورية او دليل عليها على الأقل .

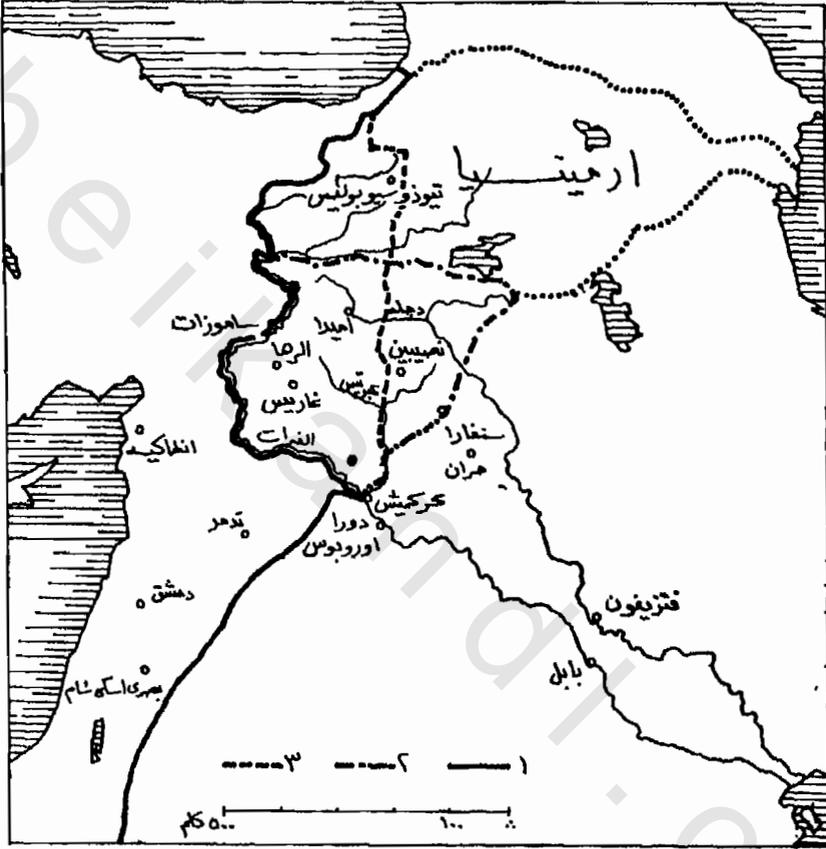
٢ - هجوم البرابرة

ذاك هو جيش العهد الامبراطور الثاني في خطوطه الجوهرية . آمن سلامة الاراضي الرومانية حتى منتصف القرن الرابع . حينذاك ، ودون ان تتمكن من رؤية التراخي فيه او بداية المحطاط داخلي ، اخذ يبرهن عن انه دون المهمة الملقاة على عاتقه . . والحقيقة هي ان هذه المهمة قد أصبحت اعظم ثقلاً : فمن كل جهة ، جدد العدو هجومه ، بحيث لن يترك الامبراطورية تذوق طعم الراحة حتى انهيارها .

لا ريب في ان الفرس شعب اتصف بالصلابة ، ولكنهم لم يكونوا مع ذلك أكثر الفرس
الاعداء اطلاقاً للرومان .

كانوا الاول في الانتقال الى الهجوم حين بلغ ملكهم الشاب ، شاهبور الثاني ، سن الرشد ، في اواخر عهد قسطنطين : وبقي شاهبور هذا حتى مماته (٣٧٩) عدو الرومان العنيد . توفرت

لديه الوسائل القوية والفيلة الهندية والآلات لمحاصرة الحصون . ولن تواجه الامبراطورية ، في أي مكان آخر ، عدواً على مثل هذا التنظيم وهذا التصلب توفيق في السنة ٣٥٩ ، بعد ثلاثة وسبعين يوماً ، الى دخول « اميدا » عنوة (ديار بكر الحالية على دجلة) . وكانت ضرباته قاسية . فقسم جوليانوس على وضع حد لهذه التمديدات بشن هجوم على الطريقة القديمة ، وسار على



الشكل ٢٠ - حدود الامبراطورية شرقاً في القرن الرابع
١ - الحدود بعد هزيمة فاليريانوس في السنة ٢٦٠؛ ٢ - بعد حملات ديوكليسيانوس؛ ٣ - بعد الاتفاق الذي عقد في عهد ثيودسيوس .

كتيزيفون ، وأصيب ، أثناء انسحابه ، بجرح ميمت . فاضطر خلفه ، بقية إنقاذ الجيش ، للتخلي عن جميع الاراضي الواقعة وراء نهر الخابور ؛ وهي لن تستعاد بعد ذلك .

بيد ان الفرس لم يدخلوا سوريا قط كما فعلوا في القرن السابق . فهم ايضاً واجهوا مشاغل اخرى : الغزاة الرحل في تركستان والقفقاس ، والنصرانية التي لم يفلح تصليبهم في استئصالها من مملكتهم ، والهيجان في ارمينيا التي ارادوا اخضاعها او فرض حمايتهم عليها على الاقل . وكان

خلفاء شامبور الثاني دونه حزمًا وتدبيراً . فارسل احدهم الى ثيودوسيوس وقدأ قدم له الهدايا ،
وتحلى اخيراً للرومان عن الجزء الغربي من ارمينيا حتى كرنا (ارزروم الحالية) التي اطلق عليها
اسم « ثيودوسيوبوليس » .
اما الخطر الحقيقي ، الخفيف ، فقد اتى من مكان آخر .

برزت المصاعب مرة اخرى على نهر الرين منذ السنة ٣٥٠ حين نودي بالقائد ماغانس
الرين امبراطوراً . فدفع آخر ابناء قسطنطين ، كونستانس الثاني ، الذي ما زال على
قيد الحياة ، احد ملوك الألامان الى اجتياز النهر في عملية تلهية ، بينما توجه المعتصب على
رأس خيرة فرقه الى بانونيا وايطاليا كي يستطلع حظه فيها : فشمّل الغزو كافة أنحاء غاليا
الشمالية الشرقية .

استعيدت الحدود بعد ذلك ببعض المشقة لا سيما على يد جوليانوس الذي سحق الألامان على
مقربة من سترا سبورغ في السنة ٣٥٧ . ولكن كونستانس الثاني كان مشغولاً بالدس حين
انتقل اللقب الامبراطوري الى جوليانوس الذي توجه هو ايضاً الى البلقان على رأس خيرة جنوده .
توجب من ثم بذل المزيد من الجهود ، وعلى الرغم من الهمة القعساء التي برهن عنها اسيا
الغرب المتعاقبين ، فالنتينيانوس الاول وغراسيانوس ، فان امد سلامة الدولة لم يطل قط . ومنذ
نهاية القرن الثالث سمحت الامبراطورية لبعض القبائل الجرمانية ، ولا سيما الفرنجية منها ، بالاقامة
عند مصاب نهر الرين ، مسندة اليها مهمة المحافظة على هذا الجزء من الحدود . فاتسع آنذاك
نطاق التعديتات الجرمانية حتى شمل المنطقة الشمالية الشرقية من بلجيكا الحالية . ويعود تاريخ
آخر حملة رومانية اجتازت نهر الرين من جهة كولونيا الى السنة ٣٨٨ ، وقد انتهت بهزيمة منكرة .
ولن يلبث الغزو ، على طول نهر الرين ، ان يقذف بالبرابرة الى كافة أنحاء غاليا .

كان تصدع خطّ الدانوب ، بفعل حصوله قبل تصدع خط الرين ، أدهى خطورة
وصول الهون وتعمدي القوط
ايضاً ، لأنه عرض البلقان وايطاليا مباشرة للخطر .
جاءت الهزة من بعيد ، من قلب آسيا الوسطى ، التي اتجه منها نحو اوروبا جمهور
غفير من الهيونغ - نو (أي الهون) الذين أقلقوا الصين زمناً طويلاً : دفعة لا تقاوم تعاضمت
باستمرار بين البدو المختلفي الاجناس الذين تغلبت عليهم وجرتهم ، بقيادة رؤساء نجمل كل شيء
عنهم ، مع اننا مضطرون للاعتراف بانفطارهم على قوة عزيمة نادرة ، وتحمت ضغط ظروف بشرية
واقصادية ملحة ، وبدافع الاحتقار للحضريين وجاذب الثروات التي ينتظر استلابها رجال
الاخبية . دفع هؤلاء المنقول جنوباً بقبائل التركستان ثم ضموا اليهم الـ « ألين » وبلغوا روسيا
الجنوبية حيث واجهوا القوط . فقدموا ، وسقدمون طيلة قرن وأكثر ، اول مثل تاريخي
معروف - يتيح تصور هجرة الهنود الاوروبيين على غرار الغزوات التي غمرت مصر وبلاد ما
بين النهرين في الالف الثاني واول الالف الاول - لجولات وصولات شعوب وامبراطوريات

السياسب الشاسعة التي كان انهارها النهائي صاعقاً على غرار نجاحها .

لم يكن القوط حينذاك جيراناً مقلقين للامبراطورية . فقد عرفوا الاستقرار ، ويقسمهم الماصرون فثنين^(١) . ويبدو ان فئة الاوستروقوط الشرقية قد ألفت دولة حسنة التنظيم فرضت حمايتها على بعض قبائل السياسب الروسية : فوضع بذلك حدّاً لأعمال قرصنتها . اما قنسة الفيزيقوط الغربية فقد كانت أكثر اهتمياً . اقام احد افرادها ، اولفيل ، مدة طويلة في آسيا الصغرى في عهد قسطنطين . اعتنق الديانة المسيحية على المذهب الآري وسم اسقفا وعاد الى مواطنيه وشرع يبشرهم بالانجيل : وفي سبيل ذلك نقل الكتاب المقدس الى اللغة القوطية التي اضطر لأن يضع لها أمجدية . بيد ان تبشيره قد اثار بعض الهيجان . فاضطر ، بعد سبع سنوات قضاها واعظاً ، الى الالتجاء الى الاراضي الرومانية ، مع جمهور من المؤمنين ، في السنة ٣٤٨ . فاستقل الامبراطور فالنس ، الذي شكوا من الغزوات ومن المضد الذي لقيه احد المتعصبين ، هذه الاضطرابات الداخلية لبعث منافس مسيحي للزعيم الوثني . وبالاختصار ، لم يكن القوط ، بعد ان تأثروا بحضارة اعظم تطوراً ، ليشكلوا وحدهم خطراً ذا شأن .

ولكن هاهم الهون يمتازون نهر الفولفا حوالي السنة ٣٧٥ وينطبق عليهم آنذاك ، لا على ما سيكونون عليه بعد قرن ، وصف اميانوس مرسلتينوس الشهير : « هذه الحيوانات المفترسة السائرة على قدمين » ، هؤلاء الفرسان المزدرون بالتعب ، المختطفون شكلاً خارجياً عن الاوروبيين ، المرتدون الالبسة المربعة ، المتمشون على عادات تقز منها النفس ، الزارعون الحريق في كل مكان . قضاوا على مملكة الاوستروقوط ثم قطعوا نهر الدنيستر ودنوا من الفيزيقوط الذين ما لبثوا ان انهزموا وطرودوا نحو ترانسيلفانيا أو الدانوب حيث التحق بهم الاوستروقوط الذين لم ينصهروا في زمر الهون .

استجار المسيحيون بالامبراطور . فسمح لهم فالنس باجتياز النهر املاً منه بالاستفادة من رجالهم . ولكن القطيعة بينه وبينهم وقعت منذ السنة ٣٧٧ ، ومع ان عدد محاربيهم لم يجاوز الـ ١٠٠٠٠٠ ، فانهم قد حطموا ، في التاسع من شهر آب من السنة ٣٧٨ ، الجيش الامبراطوري في الشرق امام اندرينوبولس على الرغم من تفوقه عدداً ، وهلك فالنس نفسه ، واستحال العثور على جثته . سار الظافرون حينذاك نحو القسطنطينية . واذا هم لم يستطيعوا دخول اية مدينة ، فانهم قد نقلوا الخراب الى الارياف . فلم ير ثيودوسيوس بُدأ ، على الرغم من بعض الانتصارات التي ابدت اسوأ الاخطار ، من ان يتفق معهم بادخالهم في خدمته ، وبإغداق الوعود عليهم بالخدمات ، وبالساح لهم بالعيش بين الدانوب والبلقان .

امسى القوط منذئذ في الامبراطورية ، على غرار الفرنك ، ولكنهم توغلوا فيها توغلاً ابعد ، والفوا كتلة اعظم تراصاً وبرهنوا عن مزيد من الجسارة . وبمكنتنا هنا ان نستعيد تعبيراً

(١) « اوستروقوط » لا تعني « القوط الشرقيين » بل اللامعين . وكذلك « الفيزيقوط » م « القوط المعتدلون » .

لارنست ستاين ونقول ان يوم اندرينوبولس يحدّد « بداية نهاية » الامبراطورية الرومانية
كامبراطورية العالم المتوسطي .

فان المثل الذي اعطاه القوط والضربات التي سدّت لقوة الامبراطورية ونفوذها
المهجوم الشامل قد دفعت باعدادها الآخريين الى التّادي في جسارة مطامعهم ومحاولاتهم : فانتقلوا
الى الهجوم في كل مكان بعزيمة متزايدة واحرزوا انتصارات كثيرة .

قام بهذا الهجوم أصغر الشعوب عدداً : الازوريون في آسيا، والاسماعيليون في الصحراء
العربية والبيليميون في مصر العليا . وفي افريقيا ، خرج البدو من الصحراء الكبرى ، والمنشقون
من جبالهم ، مستغلين البلبلّة التي اوجدها الاضطراب الاجتماعي في البلاد تحت ستر الهرطقة
الدوناطية (نسبة لدونات اسقف قرطاجه) ، والثورات التي نظمها بعض زعماء البرابرة او بعض
الموظفين . وفي بريطانيا أكثر البكتيون والسكوتلنديون والاييرلنديون من هجماتهم على الحامية
المسكرية الرومانية التي عجزت عن المحافظة على سور هدريانوس ؛ ثم جاء السكسون عن
طريق البحر الشمالي ؛ وفي اوائل القرن الخامس جرّ احد المغتصبين فرق الجيش وراهه الى غاليا ،
فأخليت الجزيرة التي لم يبق فيها ، في السنة ٤٤١ ، أي بعد اربع وثلاثين سنة ، أي اثر للسيطرة
الرومانية .

ما كان كل هذا ، باستثناء الانشقاقات الافريقية الكبرى التي أوقفت تصدير الخنطة الى روما ،
ليرتدي طابع الأهمية العظمى لو لم تنتقل العدوى ، في الوقت نفسه ، الى قلب الامبراطورية .
فالبرابرة ، القدماء والجدد منهم على السواء ، شنوا الغارات على حدود الدانوب والالب وغاليا .
فحدث ان قاومهم اسلافهم ، ولكنهم توقفوا اخيراً الى شق طريقهم . ولم يبق للحكومة
الامبراطورية نفسها ، التي انقسمت ، بعد موت ثيودوسيوس ، الى بلاطين ، متعادلين غالباً ،
منشقين بالدانس ابدأ ، من مورد آخر سوى محاولة استغلال المناقشات بين الزعماء والزمر
والشعوب .

ستتوفق القسطنطينية ، بفضل استنادها الى آسيا الصغرى ، الى ابداء مقاومة اجدى .
ولكن شبه الجزيرة البلقانية كانت الاولى التي تعرضت للخراب في كل اتجاه : بعد وفاة ثيودوسيوس ،
اجتاز الفيزيقوط « الارليك » تراقيا واليونان حتى البلورينز . فلنصغ الى الاحصاءات المحزنة التي
ذكرها القديس ايرونيموس في السنوات الاخيرة من القرن الرابع : ها هو الدم الروماني يسيل
كل يوم منذ عشرين سنة وأكثر بين القسطنطينية وجبال الالب الجوليانية . فبلدان سكيثيا
(بلاد الغز) وتراقيا ومقدونيا ودردانيا وداسيا^(١) وتساليا واخيا والابير ودملاتيا والبانونيتان

(١) توافق ولاية سكيثيا آنذاك منطقة دوبرودجا الحالية تقريباً . وبعد اخلاء داسيا الحقيقية ، اطلق اسمها
على ولايات جديدة جنوبي الدانوب توافق ، مع دردانيا ، القسم الشرقي من سربيا القديمة .

أضحت فريسة القوط والسارمات والآلين والهون والفاندال والماركومان الذين اجتاحوها
ومزقوها واستلبوها .

بعد ان عم الخراب البلقان ، جاء دور الغرب الذي لم يتردد بلاط الشرق في ان يحول اليه
الغزاة المتكالبين على الثروات السليمة البكر . استهوتهم ايطاليا بنوع خاص قبلقوها بعد ان
داروا حول الادرياتيک . وفي الرابع والعشرين من آب من السنة ٤١٠ ، دخل « الاريك »
روما ، التي كانت تحت رحمة طيلة الستين السابقتين ، وأخضعها لسلب دام ثلاثة ايام . ثم جاء
دور غاليا واسبانيا حيث تدفق غزاة آخرون سبقوا اليها القوط عن طريق الرين . وجاء دور
افريقيا نفسها اخيراً . ففي السنة ٤٥٥ دخل الفاندالي جنسريك ، المستقر في قرطاجنة ، الى روما
التي أباح سلبها طيلة اسبوعين . ولكن مراكبه ، في السنوات الاخيرة ، غزت السواحل والجزر
اليونانية : وهذا دليل على ان الشرق لم يحصل على سلام حقيقي بتخليه عن الشرق .

لنقف هنا في عجاتنا الخاطفة هذه : فلم نقصد من ورائها سوى ان نبين كيف نشأت
الفوضى وبأي عنف انفلتت عاصفة فوضوية ليس من هدف هذا الكتاب تتبع تطورها
وعواقبها من قريب او بعيد .

وفي الواقع ، عبثاً يبحث المؤرخ ، في هذه الفوضى ، عن حدث او تاريخ يستطيع ان يربط
بها عرضه ويكتشف منعطفاً حاسماً في التطور . فاحتلال روما نفسها ، في السنة ٤١٠ ، قد
أذهل المعاصرين . ولكن الرمز الذي يشكله هذا الاحتلال يستخلص قيمته الوحيدة
من ماضي المدينة لا من حاضرها آنذاك - لا يستطيع الاريك ان يختطف شخصية رسمية سوى
غالاً بلاسيديا ابنة ثيودوسيوس وشقيقة الامبراطور هونوريوس ، التي تزوج منها صهرها وخلفها
اتهولف بعد سنوات ، باهة عظيمة في ناربوتا - ولا من مستقبلها . والفكرة التي يوحياها اليوم هي
تلك التي ادلى بها القديس ايرونيوس على الفور : « من كان يستطيع الاعتقاد بان روما ، التي
يؤلف سافاتها هذا العدد الكبير من الانتصارات المهرزة على العالم بأسره ، ستنهار يوماً ؟ » ولكن
في هذا الذهول بعض السداجة ، اذ ان شيبون اميليانوس قد عرف ، قبل ذلك بخمسة قرون
ونصف ، ان هذا الانهيار سيحصل يوماً بصورة محتومة . ولكن ما هو اقرب للصواب الدهشة
التي يبعثها تدقيق يسمح به بعد الاحداث في التاريخ : فان هذا الحدث ، الذي يستهونا وصفه
بالعظيم ، ليس نتيجة أو بداية لاي شيء ، بل مجرد عرض في مركب ابتدأ قبل ذلك بكثير ،
وسيمتد الى ما بعد ذلك بكثير ايضاً .

كيف لا نعتبر ان هذا البطء وهذا الانداس بالذات هما من عناوين مجد روما ايضاً ؟ فلم
يقتض لهدم ما شيدته مدة طويلة فحسب ، بل كانت هي نفسها منتشرة في عالم اصبح سكانه
ابناءها ايضاً : وكان باستطاعتها الاستمرار في الحياة خارج الاسوار التي دخلها السلايون عنوة .
قضى الانسجام مع تقاليد ماضيها ، بالضبط ، ان يمسي هؤلاء البرابرة ابناها بدورهم . وقد

خدمها اكثر من واحد باخلاص حتى ضد بني جنسهم . وأوحى ، حتى بعد سقوطها ، الاحترام للعدد الاكبر منهم فتركت لهم إرثاً ما . ولكن الاستساعة لم تحدث . فهم كانوا كثيري العدد وهي لم تظهر امامهم ، كما في الماضي ، مزدانة بفتنة النصر . فهي قد ماتت ، لمعري ، لانها لم تستطع متابعة عملها التربوي .

لم يحل طول نزاعها دون موتها في القرن الخامس . واذا ما استطاعت القسطنطينية البقاء حينذاك ، فانها قد عاشت حياة حقيرة قبل ان تعرف ، في زمن لاحق ، ايام عز جديدة .

٢ - الصعوبات الداخلية

اذا كانت عودة الاخطار الخارجية واستمرار تجسّمها بعد منتصف القرن الرابع يفسران اموراً كثيرة ، فيجب الا يجهلنا على اممال الصعوبات الداخلية التي بلبت بمجهود الامبراطورية بلبلة دائمة وشلتها شلاً احياناً . كانت القسم الاكبر من هذه الصعوبات قديم العهد . وقد حاولت الامبراطورية ان تضع حلولاً جديدة لعدد منها دون ان تتوفق مع ذلك الى السيطرة عليها .

بديهي ان كل الصعوبات لا تستحق ، منذ الآن ، ان ندرس كلا منها على حدة . ولم تخل جماعة بشرية من المهوم الكثيرة التي اعاقها كل منها في تفتحها . بيد ان تسلسل هذه الصعوبات بحسب اهميتها يتضح للاجيال اللاحقة ، ان هو لم يتضح للمعاصرين . فلنقتصر اذن على الخطرين الاعظمين .

١ - انتقال السلطة والحروب الاهلية

سنفكر دون ابطاء ، بسبب الاضطرابات المادية التي تجرّتها اليها الحروب الاهلية ، بأزمات الخلافة في الامبراطورية وبالاعتصابات ، تلك الامراض الزمنية في العهد الامبراطوري الذي لم يتوصل قط ، طيلة مدّته ، الى وضع وتطبيق قواعد ثابتة لانتقال السلطة . بيد انه أفرغ كل مجبوهه ، آنذاك وقبيل ذلك ، وبصورة مبتكرة جداً احياناً ، وببعض الفعاليّة اخيراً ، وفي ظروف دقيقة جداً ، بغية سدّ هذا النقص .

فالصعوبة ، في العهد الامبراطوري الثاني ، مصدرها الاول دروس الفوضى التي الظروف العامة لقتنها ازمة القرن الثالث . واذا ما قدر لبعض هذه الدروس البقاء آنذاك ، فانها قد مزقت كافة الحجب : ولم يشك احد ، بعد رؤية هذا العدد الكبير من الاباطرة السريمي الزوال ، في ان رضى الجنود ، الحاضن نفسه لكل تقلب مفاجيء ، يتيح تسلّم السلطة والحفاظ عليها . فأسمى السمي وراء السلطة ، على ما في ذلك من مغالطة ، أكثر من طموح عادي بالنسبة للقائد : فهو احياناً حظه الاخير في النجاة من الموت الفوري الذي قد يجرّ اليه زوال حظوته . ففي السنة ٣٥٥ مثلاً ، حاول الفرنجي سيلفانوس ، الذي سبق له وأدى خدمات جلّسى لم تمنع

أعداءه الشخصيين من ان يقدموا لكونستاس الثاني كل وشاية كاذبة عنه ، تخليص حياته بمجمل أنصاره على المناداة به امبراطوراً في كولونيا: غير انه ارتكب خطأ فادحاً، اذ ان الامبراطور، الذي اكتشف ، في هذه الاثناء ، ما انطوت عليه هذه الوشائات من تجنّ واقتراف ، قد اضطر مع ذلك الى اعدام المعتصب قبل مرور شهر على المناداة به . نحن امام حادث لا طائل تحته في حد ذاته ، ولكنه يكشف عن المحاولات التي كان يدفع اليها الاتصال الدائم بالجنود .

نجمت الصعوبة ايضاً عن ثقل وشمول المهام المنوطة بالامبراطور . فمن حيث ان وجوده في كل الجبهات أمر مستحيل ، قضى عليه بأن يرى باستمرار بروز منافسين جدد ، حيثما يتجمع جيش وتسمح فرصة لاكتساب مجد ما او شعبية ما لدى الجنود . واذا ما اضطر للتغيب لمحاربة عدو داخلي او خارجي ، فان غيابه يكون كافياً لبروز منافسين آخرين . اجل كان بالامكان اشراك امبراطورين او أكثر: فهناك سابقة مارك اوريل ولوسوس فيروس (*Lucius Vèrus*) في العهد الامبراطوري الاول . ولكن هذا الحل يفرض اختيار الشركاء والمحافظة ، باتفاقهم ، على وحدة الدولة .

كان من شأن هذا الحل ان يبدو مغريباً جداً لأنه يوافق نزعة فطرية الى الاستمرار السلالي . فمنذ ان كان بشر وملكيات ، كان اشراك الابن في سلطة ابيه طريقة دارجة جداً لأنها تحول دون شعور السلطة عن طريق تأمين الوراثة . وقد اعتمدت الامبراطورية الاولى هذه الطريقة أكثر مرة غير مكتفية حتى بلقب الامبراطور للخلف المعين على هذه الصورة : فان مارك اوريل قد منح ابنه كومودوس لقب « اوغسطس » محتفظاً لنفسه بالجزيرة العظمى دون شراكة وبالنفوذ الذي يوليه اياه فاروق السن . ومن جهة ثانية ، كان هذا الفارق حجر العثرة ، اذ ان هذا النظام ما كان ليسير سيراً حسناً إلا اذا بلغ الابن ، عند وفاة ابيه ، سناً تسمح له بفرض نفسه . ولذلك فقد استفيد ، في عهد الانطونيين ، عملاً بمبدأ اختيار « الأجدد » ، من عدم وجود ابن شرعي للامبراطور ، طيلة أجيال عدة ، للجوء الى التبني .

وبالاختصار ، كان باستطاعة الملكية في العهد الامبراطوري الثاني ، التي ألجئت الى تعيين مساعد ، بل عدة مساعدين ، للامبراطور ، بغية تأمين المهام الحكومية ، لا سيما العسكرية منها ، والتي نزعته مع ذلك ، على غرار سواها ، الى الوراثة السلالية ، ان تستند الى سوابق كثيرة . وهي قد عملت ، وفاقاً للظروف والبشر ، بهذه السابقة تارة وبتلك السابقة أخرى ، لا بل أدركت خير ادراك ، غداة موت قسطنطين ، صعوبة تكاد تكون جديدة - فقد سبق مثل نيرون وبريتانيكوس ، ومثل ابني فسبسيانوس ، وخصوصاً مثل ابني سبتيموس ساويروس - بل هي جديدة على كل حال بمجدة المنازعات التي أثارها ، اعني بها تلك الناجمة عن امبراطور يترك عدة أبناء لا يفصل بينهم أي فاروق كبير سناً او نفوذاً . فلا عجب من ثم اذا كلفتها الاقتتار الى حق ملكي صريح وثابت ثمناً باهظاً من الحروب الاهلية .

نظام ديوكليسيانوس
الرباعي

قد يكون من المملّ حقاً استعراض كافة الحلول التي جرّبت آنذاك. ففي القرن الثالث وحده نماذج وافرة عنها . وقد حدث في السنة ٢٣٨ م اختار مجلس الشيوخ اثنين من اعضائه ومنحها بالتساوي الألقاب نفسها والسلطات عينها بما فيها الخبرة العظمى التي أسندت للمرة الاولى الى شخصين في آن واحد . دام هذا التدبير الثنائي تسعين يوماً وانتهى ، شأن غيره ، بقتل المستفيدين منه . لنهمل اذن هذه المحاولات الفاشلة حتى نتوقف عند محاولة ديوكليسيانوس التي تنطوي على أهمية أعظم واقعية . فهي لم تكن سريعة الزوال - دامت أربع سنوات - وامتازت بأنها كاملة ومبتكرة ، اذ انها اضافت عنصراً جديداً ، هو الاستقالة في موعد محدد ، الى غيره من العناصر التي اوجدتها الاختبارات السابقة .

كان نظام « التتارشية » ، أي الحكومة الرباعية ، منذ زمن بعيد ، موضوع جدل ونقاش . فنذ قرن ، فسرها يعقوب بوركارت ، بأنها نظرية عالم ، ربما انتسب الى « اسرة سييتيس » (Seyès) على حد قول احدهم . ولكن هذا القول ، لم يعد له من قيمة كبيرة في هذه الأيام : فان ديوكليسيانوس لم يتوصل الى هذا النظام إلا تدريجياً ، بخضوعه لشتى ضروب الضغط وبتعديل مقررات املتها انتهازية عملية . ولكن ما لا ريب فيه مع ذلك ، هو ان نظام حكومة رباعية قد قام بعد تسلمه الحكم ، وان واضح هذا النظام قد اعتقد بأنه وضع حداً بواسطته للأزمات التي غالباً ما تعرض لها العهد .

قضى هذا النظام بتعيين امبراطورين في آن واحد ، يكون أحدهما ، رسمياً ، شقيقاً للآخر ، ويكون لها الصلاحيات نفسها والألقاب عينها ، على ان يعتبر احدهما بمثابة البكر اي « الأقوى » و« الاول » بغية تحاشي كل خلاف بينهما . كما قضى بأن يعين ، الى جانب هذين الامبراطورين « قيصوان » يكون كل منهما مساعد الامبراطور الذي اختاره لجدارته دون أي اعتبار للنسب الطبيعي - فقد أقصي بعض الأبناء - وتبناه حين اختياره . أضف الى ذلك ان كل قيصر كان يخلف امبراطوره حين وفاته او استقالته . ولم يتردد ديوكليسيانوس في اصدار قرار يقضي على كل من الرؤساء الاربعة بالاستقالة في مستهل السنة العشرين لممارسته السلطة . وقد استقال هو نفسه في اول ايار (مايو) من السنة ٣٠٥ ، متجاوزاً الأجل بسبعة عشر شهراً فقط بغية ارغام « اخيه » مكسيميانوس على احترامه ، وبتيحاً بذلك ارتقاء القيصرين الى مصف امبراطور ، واختيار قيصرين جديدين .

أمام هذا النظام ، لا نعلم في الحقيقة ، ما هو الأجدر باعجابنا : الابتكار ، أم الصرامة ، أم السذاجة . فهو قد استازم مبدئياً المحافظة الدائمة على الاتفاق ، أقلد بين الامبراطورين . وقد أهمل بعض العواطف الفطرية : الرغبة في الاستمرار عن طريق الأبناء والأحفاد ، النفور من الاستقالة ، وجزع القياصرة بالتبني ، وبأس الأبناء المحرومين من الإرث الوالدي . اجل قضى الاختيار بأن لا يستسلم لهذه الأوهام امبراطور استقال في سن الستين . ولكنه استطاع التأكد ،

قبل ان تدركه المنيبة في السنة ٣١٣ ، من فشل نظامه وتحلي المسؤولين عنه نهائياً . فقد سددت له الضربة الاولى منذ السنة ٣٠٦ ، حين سارع الجيش المرابط في بريطانيا، الذي توفي الامبراطور كونستانس كلور بين وحداته ، بالمناداة بابن الفقيده ، قسطنطين ، دونما اكتراث لقيصره . ومنذ السنة ٣١٠ كان في العالم الروماني عشرة اشخاص يحملون لقب امبراطور ، لا يدخل في عدادهم ديوكليسيانوس الامبراطور الشرقي : فأخذت الفوضى تخيم مرة أخرى .

بعد حروب طويلة باهظة الثمن ، استعادت الامبراطورية السلم الداخلي حل قسطنطين المترجج بقيادة سيد فرد ، هو قسطنطين الذي لم يأبه للعودة الى النظام الرباعي . واذا استحال القول بأنه لم يفكر بأمر الخلافة ، فمن غير المعقول ان المقررات الوحيدة التي اتخذها تقابل مشاريعه النهائية . فهو قد اقتصر ، قبل وفاته بسنتين ، على تقسيم الاراضي الامبراطورية خمسة اجزاء ، أسندت ولاية ثلاثة منها ، وهي الاجزاء الكبرى ، الى ابنائه الثلاثة ، وولاية الجزئين الآخرين الى اثنين من ابناء اخوته .

فهل هذا حله الحقيقي يا ترى ؟ اذا كان الجواب ايجاباً ، فمعنى ذلك انه كان ، قبل الميروفنجيين *Mérovégiens* والكارولنجيين *Carolingiens* ، بزم من بعيد ، اول من ذهب حتى المحال في تطبيق مفهوم غريب هو مفهوم الدولة الملكية كإرث عادي . ولكن ذلك يعني اما تصديق الدولة واما الالتقاء بها في منازعات جديدة ، في حال انه يستحيل الاعتقاد بإمكان وجود مثل هذا العمه عند ذلك الذي صادف صعوبات كثيرة في اول عهده . فالأجدر بناء من ثم ، الاعتقاد بأنه احتفظ لنفسه ، بعد امتحان الامراء الخمسة ، بحق الاختيار وتعيين الامبراطور الحقيقي الذي يخلفه في دور التنسيق . ولكن الموت لم يترك له الوقت اللازم لذلك .

لنضع حداً لهذه النظرة التاريخية التي لم تضعنا ، على كل حال ، امام اي حل جديد . اما الجديد الذي تحقق ، فعملي اكثر منه قانوني ، وفي ذهنية المسؤولين والرعايا اكثر منه في المقررات الامبراطورية .

فمن جهة ، ما عادت السلطة العليا لتتجسد الا استثناء في امبراطور فرد . فقد ملك قسطنطين وحده ثلاثة عشر سنة ، من السنة ٣٢٤ حتى وفاته . ومنذ السنة ٣٥٣ ، تعاقب طيلة عشر سنوات الاباطرة : كونستانس الثاني وجوليانوس وجوفيانوس . ولكن الملك الفردي ، لن يعود بعد ذلك ، إلا خلال الاشهر الاربعة التي سبقت موت ثيودوسيوس في شهر ك ٢ (يناير) من السنة ٣٩٥ ؛ ولا وجود له مع ذلك الاعلياً ، لا قانوناً ، اذ ان اخوين ، هما ابنا الإمبراطور ، قد حملوا حينذاك لقب امبراطور ايضاً . فمدّة عودته قصيرة جداً : اذ ان الشراكة كانت ضرورة ملحة لأسباب عملية .

بيد انه يجدر بنا ان لا نخطيء في فهم هذا الواقع : فالمتصود شراكة وبمحمية لا تقسيم اقليمي ، او دستوري اذا جاز التعبير . الامبراطورية واحدة نظرياً مع كل امبراطور ، سواء عين

معهم قيصر ام لا ، او امبراطور آخر أقل نفوذاً ، كان مكلفاً عملياً ادارة قسم منها او الدفاع عنه . ولم يكن أي امبراطور جديد ليُقبل رسمياً في هذه الهيئة إلا بعد موافقة زميله او زملائه ، ولم تكن وحدة التشريع شيئاً نظرياً فحسب -- دون ان نرى حتى اليوم ، على كل حال ، كيف توصلوا الى الابقاء عليها . والمصير المختلف الذي قرره البرابرة « لشطري » الامبراطورية هو وحده بالنتيجة الذي أفضى الى التمييز بين امبراطورية شرقية وامبراطورية غربية ، وقد تكسر هذا التمييز في الوقائع زمناً طويلاً قبل الاعتراف به رسمياً . لا بل ان الاعتراف الرسمي لم يحصل قط في العصور القديمة مها تجاسرنا في اطالة هذه العصور . ففي السنة ٤٧٦ ، حين اعاد « الاسكندر » اودواكر (ابن اتبلا) الى القسطنطينية ، التي كان متربحاً على عرشها اليزوري تاراسيوكوديسا باسم زينون اليوناني ، الشارات الامبراطورية الموجودة في ايطاليا ، اعتبر رجال القانون الشرقيون ان وحدة الامبراطورية ، التي ما زالت قائمة في نظرهم ، قد توطدت في الواقع : وهذه المزاعم هي التي سيستند اليها جوستينيانوس في وقت لاحق قريب . ولكن « الاجماع » ، وهو موضوع تغنن دائم ، قد فقد معناه منذ زمن بعيد .

قبل ان يتحقق كل ذلك ، أضرت تعدد الاباطرة بالامبراطورية . وكان عجبياً ان يسود الاتفاق فيما بينهم بصورة دائمة . وجرت اقامتهم في مقرات بعيدة الى ازدواجية البلاطات والاجهزة المركزية . وقد اصطدم تصميم الملوك على الاتفاق ، حتى ولو كان مطلقاً وحازماً ، بشق بوادر البطء او اقله بانانية مستشاريهم ودوائهم وحتى الاهالي انفسهم . اضيف الى ذلك ان العمل العسكري ، الذي يستلزم وحدة القيادة ، قد تجزأ أو تقهقر أو ارتدى طابع السرعة بفعل الجهل أو الحساسة : فان فالنس مثلاً ، رغبة منه في احراز النصر منفرداً ، قد هاجم القوط امام اندرينوبولس دون ان ينتظر وصول الامبراطور الآخر الذي كان متوجهاً لنجدته . وهكذا فان العهد الامبراطوري الثاني ، الذي جلبته الظروف الى الحكم الجماعي ، قد تأثر بمساوئه .

هناك جدة اخرى لامراء فيها ، الفكرة السلافية . لم يعرف القرن الرابع الفكرة السلافية وفضل الاختصاصات ما عرفه القرن الثالث ، وحتى القرن الاول ، من اضطرابات . فبعد ان شهد سلالة قسطنطينية وسلالة فالنتينيه ، ترك للقرن الخامس سلالة ثيودوسية . أجل لم تكن الجدة في اشتراك الابن أو الابناء مع ابيهم ، ولا في استمرار حكمهم ، زمناً طويلاً أو قصيراً ، بعد وفاة هذا الاخير ، بل في لجوء الامبراطور نفسه الى عائلته : فقسطنطين قد فكر بابناء اخوته ، وفالنتينيانوس الاول قد اشرك اخاه فالنس معه . وبلغت الفكرة العائليية من القوة ما حملهم على ايجاد رابطة زواجية بين سلالة واخرى : حين بلغ غراسيانوس السادسة عشرة من عمره تزوجه ابوه فالنس من حفيدة قسطنطين البالغة من العمر ١٣ سنة ، ولم يتزوج ثيودوسيوس من ابنة فالنتينيانوس لمجرد جمالها فقط .

لا يعني كل هذا ان تاريخ هذه السلالات قد استمر هادئاً ابدأ . فان تاريخ العائلة القسطنطينية

بنوع خاص يقدم لنا امثلة متعاقبة وافرة عن مآسي البلاط والاعتيالات والخصومات بين الاخوة التي ادت الى الحرب الاهلية . وحدثت ايضاً ثورات واغتصابات رافقتها اغتيال الامبراطور الشرعي . بيد ان اية حادثة من هذه الحوادث العنيفة ، على نقيض ماجرى في القرون السابقة ، لم تنته بانتصار المقتصب . ولعله من حسن طالع جوليانوس ، الذي نادى به جنوده امبراطوراً في لوتيسيا ، ان مات ابن عمه قسطنطين الثاني قبل ان يصطدم بالجيشان . وهو الثائر الوحيد في ذلك العهد الذي نجحت محاولته ، وليس انتاؤه الى العائلة القسطنطينية بغريب عن مجاحه .

يبدو جلياً من ثم ان شعوراً بالاخلاص للسلاطة قد بدأ يظهر ويؤثر حينذاك على الرغم من موانع كثيرة . ولعل افضل دليل على ذلك ان عدم كفاءة أعقاب ثيودوسيوس سياسياً وعسكرياً لم تحمل دون موتهم موتاً طبيعياً . ولم يحدث ان اغتيل احد حفدته إلا في السنة ٤٥٥ : ومنذ نشأة الامبراطورية لم يقدر قط لأباطرة على مثل هذا الهزال ان يستمروا في الحكم هذا الوقت الطويل . والدليل الآخر هو عدد القادة البرابرة الضئيل - ثلاثة او اربعة - الذين حاولوا ، على الرغم من القوة التي تمتعوا بها ، اغتصاب اللقب الامبراطوري . فقد اقترب الهدف الذي كثيراً ما طمح اليه دون جدوى كافة الاباطرة منذ اربعة قرون : ان احترام الارجوان الامبراطوري كان سائراً ، تدريجياً ، في طريق الاستقرار . ويموز لنا ، بهذا الصدد ، ألا نجزم بعدم جدوى جهود الملكية في العهد الامبراطوري الثاني في تنظيم انتقال السلطة .

استمرار داء الامبراطورية المزمع ومع ذلك ، فمهما يكن من ضالة عدد الاضطرابات بالنسبة لمقتضيات منطق تخلخل النظام ، فان الاضطرابات قد قامت ، ويمرضنا اهمالها لعدم فهم حضارة هذا العهد . اجتاحت الامبراطورية حملات داخلية تصادم فيها جيشان تتمهدهما الامبراطورية للدفاع عنها . وقد عرفت الامبراطورية ايضاً مذابح الحروب الاهلية وشدة وطأتها بالاضافة الى ما عرفت من وطأة وعنف الحروب الاهلية . وقد رافق هذه النزعات ، أكثر من مرة طلبات التدخل الاجنبي التي شكلت خيانات حقيقية . فهي قد حولت الجنود ابدأ عن القيام بواجبهم ، وخدمت ، باضعاف حراسة الحدود ، العدو الذي كان يتحين الفرصة للاعتداء عليها : فأدت كل حرب اهلية الى تجسيم الخطر الخارجي .

قام النظام بما لم يقم به أسلافه لمعالجة داء الامبراطورية الوراثي هذا . ولكنه لم يتوفق إلا الى تخفيف ضرره فقط . ولكن هذا الضرر ما زال كافياً لأن يلحق بالناس إساءة فوق إساءة في ممتلكاتهم وألماً فوق ألم في أجسادهم وحزناً فوق حزن في نفوسهم .

٢ - النزاعات الدينية

كان باستطاعة الديانة وسدها ، امام هذه الاحزان ، ان توفر التعزية والسلوان . وسنين في الصفحات التالية انها لم تتخلف عن القيام بهذا الواجب : فان الآلام النفسية المبرحة والمستمرة

قد ساندت الانطلاقة التي أحييت الشعور الديني ووطدته منذ القرن الثاني . ولكن الحرارة التي رافقت هذا الشعور قد أثارت بدورها بعض النزاعات التي غالباً ما تشابكت بالنزاعات الأخرى ، الحروب الأهلية وحتى الخارجية ، التي زاد هواها عنف التعصب الديني .

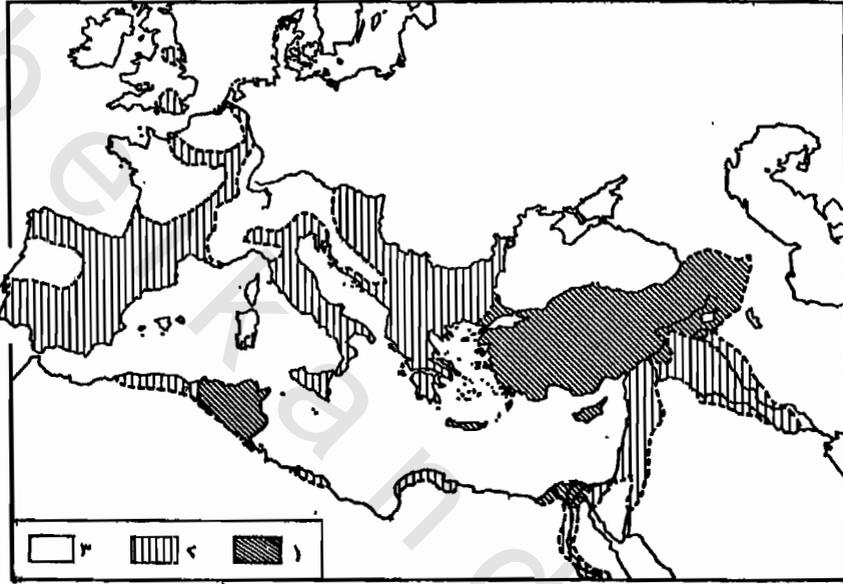
إذا كان القرن الثالث قد دشّن الاضطهاد الكبري ضد المسيحيين ،
فان هذه الاضطهادات ، قد توقفت في السنة ٣٦٠ وعرفت الديانة
المسيحية حينذاك اربعين سنة تقريباً من السلم الخارجي أفادت منها
افادة كبيرة .
السلم الديني
وانتشار الديانة المسيحية
في اواخر القرن الثالث

ما كانت الحكومة لتستطيع تجاهل وجودها أو انتشارها العلتين . فلم يتستر رؤساءها واتباعها بل عملوا على مرأى من الجميع : فقد شيدت الكنائس الجديدة وأحدثت المدافن . وبعد ان استعاد اوريليانوس انطاكية من التدمريين اضطر للفصل في نزاع قسم المسيحيين في هذه المدينة : ففصل فيه لمصلحة اولئك الذين يؤيدهم أساقفة روما وايطاليا ضد اسقف انطاكية السابق ، بولس الساموزاتي الذي عزل بسبب الهرطقة المنسوبة اليه . لا ريب في ان علاقت بولس بزنوبياً ، كان لها أثرها في القرار الامبراطوري . ولكن في هذا القرار ، مع ذلك ، اثباتاً لتساهل رسمي لم يدخل عليه ما يعكسه طيلة النصف الاول من ولاية ديوكليسيانوس . فلا عجب من ثم اذا تكاثرت الارتدادات التي حصل بعضها في بطانة الامبراطور نفسها . ومنذ القرن الثالث أصبح المسيحيون اكثرية في آسيا الصغرى وفي جزء من تراقيا ؛ وفي الأماكن الأخرى ، لا سيما في الشرق ، كانت الديانة المسيحية آخذة بالانتشار . ورغبة في الاختصار نقول ان اقسيفيوس ، اسقف قيصرية ، ربما اعتمد المغالاة في « التاريخ الكنسي » رغبة منه ، عن طريق المقابلة ، في اظهار فظاعة الاضطهاد القريب ؛ بيد ان اللوحة المطوقة التي يرسمها حينذاك عن علائق المسيحيين بالمجتمع العلماني تبدو ، في خطوطها الكبري ، منطبقة على الواقع .

وفجأة ، تبدل كل شيء .

اضطهاد ديوكليسيانوس
فما هو سبب هذا التبدل يا ترى ؟ لكل مؤرخ تقريباً تعليله الخاص . فدون أن ندخل في التفاصيل ، نرى أن أقرب الأدلة للعقل والمنطق هو ذلك الذي يربط بين اضطهاد ديوكليسيانوس والنظام السياسي الديني الذي انتهى الى إقراره : وسنرى ان الانحراف عن الوثنية كان معناه ، في نظر المسؤولين ، التباهي بعدم الإخلاص وعدم الموالاة . أضف الى ذلك ان بعض الحوادث قد جرت في الجيش ، أقله في افريقيا : كإقدام بعض المجندين الجدد او القداماء ، وحتى الضباط ، على رفض القيام بالخدمة العسكرية . ولم يبرهن المسيحيون جميعهم عن انهم رعايا خاضعون تماماً للموجبات المدنية . وما زالت لهرطقة المونتانية ، التي رأى رأياً ترتوليانوس Tertullien الافريقي في البداية ، تثبت فروعاً على الرغم من حكم الكنيسة عليها . فقد يكون ديوكليسيانوس ، ذلك الجندي الذي أصلح الدولة ، قد رغب في إعادة الوحدة

والنظام الادبيين يمثل الشعة التي اعادها الوحدة والنظام في الحقول الاخرى. ولعله ، اخيراً ، بحسب التقليد المسيحي ، تأثر بالحاح قيصره غاليريوس ، الوثني النشط ، وبآراء العرفانين . ولكننا مضطرون للاعتراف بأن هذه التفسيرات كلها لا تشبع نهم العقل ، لأن كلا منها يقابله تفسير آخر يضعفه . ولا تزال معضلة أسباب الاضطهاد ، دون حلٍ منطقي . ولكن الامبراطور نفسه ، بصرف النظر عن كل الاعتبارات ، لا يخضع دائماً للمنطق وحده .



الشكل ٢١ - النصرانية في اواخر القرن الثالث
١ - مناطق تضم نسبة مرتفعة ، وربما اكثرية ، من المسيحيين ؛ ٢ - مناطق دخلتها النصرانية ؛ ٣ - مناطق لم تدخلها النصرانية بعد .

ولكننا ندرك ادراكاً أفضل التدبير المتعصب الاول الذي استهدف المانويين في السنة ٢٩٧ . فقد اشعت عقيدتهم بنوع خاص من اراض خاضعة للمملكة الساسانية ، أي من اراض عدوة . وان البراءة ، التي ساوت بين ممارسات تقوالم وممارسات السحر والتي قضت بنفيهم أو بموتهم ، قد صدقت في الاسكندرية في اعقاب استعادة مصر حيث ساند الملك الفارسي أحد المفتصبين . فكانت من ثم تدبير حرب وتدبير سياسة دينية معاً .

وكان ما صمم ديوكليسيانوس على تنظيمه ضد المسيحيين تدبيراً لا يعرف للشفقة معنى ايضاً . ولكن عمله هذا قد نفذ في عهد متأخر وبصورة بطيئة ولم يصل إلا تدريجياً الى تدابير مماثلة لتدابير داسيوس وفاليريانوس بشمولها وعنفها . فتقرر في الدرجة الاولى تطهير البلاط والجيوش والادارات واقصاء الذين يرفضون تقديم الذبيحة . ثم جاءت المراسم . فتعاقب اربعة

منها خلال السنة ٣٠٣ وفي اوائل السنة ٣٠٤ ، وارتدى كل منها ، بالنسبة لما سبقه ، مزيداً من الشدة بسبب اشتداد الصراع : وبنوع خاص ، عزيت الى المسيحيين الحرائق التي اندلعت في قصر نيكوميديا الامبراطوري حين اقامة ديوكليسيانوس وغاليوريوس فيه . اقتصر الرسوم الاول على حظر الاجتماعات وقرار هدم الكنائس ومصادرة الكتب المقدسة واتلافها . ثم أرغم العلمانيون أخيراً ، على غرار ما حدث قبل ذلك بمئتين سنة ، على تقديم الذبيحة ، تحت طائلة عقوبات متفاوتة الصرامة قد تصل الى الموت احراقاً .

يعتبر التقليد المسيحي هذا الاضطهاد أسمى الاضطهادات شدة . ومهما يكن من الامر ، فانه أطولها امداً . ولكن مدته وشدته قد اختلفتا كثيراً باختلاف مناطق الامبراطورية . وبسبب ازدياد عدد المسيحيين الذي زاد من المخالطات في الحياة العامة ، لم تنفجر الاحقاد الشعبية انفجارها في الماضي ، على ما يبدو ، بنية ارغام الموظفين والقضاة على استعمال الشدة . فقد خضع كل شيء بالتالي ليمول هؤلاء الشخصية ، الحليمة جداً في أغلب الاحيان ، وفي الدرجة الاخيرة للتعليمات المتفاوتة شدة التي يتلقونها . وقد صدرت هذه التعليمات عن الامبراطور او عن القيصر الذي ترتبط به الولايات . ففي غالبا وبريطانيا المرتبطتين « بكونستانس كلور » ، أرفق بالاشخاص وأسيء الى الممتلكات أدنى إساءة يفرضها احترام سلطة ديوكليسيانوس : ومال كونستانس شخصياً الى التساهل لا سيما وقد بدا ضعف الديانة المسيحية في ولاياته خلواً من أي ضرر ممكن . اما في أنحاء الغرب الاخرى فقد كان الاضطهاد عنيفاً ولكنه كان قصير الامد ايضاً لأن مكسيميانوس قد استقال منذ السنة ٣٠٥ . ولم تشتد وطأته اشتداداً طالت مدته إلا في الشرق حيث توقف في السنة ٣١٣ وتجدد حوالي السنة ٣٢٠ ولم ينته إلا بانتصار قسطنطين على ليسينيوس في السنة ٣٢٤ .

تصر قسطنطين :
 اقتناع ومصالحة
 اعاد هذا الانتصار وحدة الامبراطورية تحت سلطة سيّد فرد ، سيد مسيحي هذه المرة . هكذا انتهى - بعد ان أصبح قسطنطين مسيحياً - العهد المضطرب الطويل الذي ابتدأ في السنة ٣٠٦ ، حين نادى به امبراطوراً ، في بريطانيا ، جنود أبيه المتوفى . ولا مجال للدهشة امام الأهمية التي ترتديها هذه الأحداث وهذا الارتداد ، اذا ما نظرنا الى نتائجها بالنسبة لتطور الانسانية جمعاء في العصور اللاحقة . وقد أثار هذه الأهمية شتى المناقشات منذ زمن بعيد .

وان ما سهل هذه المناقشات الصفة التاريخية الركيكة والتحيز الواضح في المصادر الأدبية المسيحية التي تعظم قسطنطين على حساب أعدائه المتعاقبين . اصف الى ذلك ان العوامل المختلفة الكثيرة التي كان لها أثرها حينذاك قد زادت في البلبلة والغموض . ثم ان الخصومة قامت بين أشخاص عديدين . ولم يتظاهر أي واحد منهم باللامبالاة الدينية ، لا بل لم يشعر بها : فقد كان العصر مندفعاً بالكلية ، ومن الجهتين ، نحو الحزاقات بالتميز على العنادية . ومع ذلك فقد جاش في الجميع طموح وحشي ايضاً بحيث يتمدّد معرفة أية عقيدة أو أي طموح قد سيطرا على

كل منهم في هذه الفترة او تلك وفي هذه الدرجة او تلك من المنافسة بينهم ، ما لم تتوصل الى الوقوف على سرّ كل نفس على حدة . ولنضف هنا ان كلا منهم قد استند الى اقليم وطمح الى اقاليم أخرى . ولكن المسألة الدينية ، في كل مكان ، قد عبرت عن وجه خاص متميز من أوجه الظروف المحلية . فقد كان بالامكان الاعتقاد بأن لباريس قيمة قداس ، او قيمة براءة نانت على الاقل ؛ غير انه كان بالامكان ايضاً ، من جهة ثانية ، القنوط من الحصول على مساعدة طائفة تسير وراء منافس ، او على حيادها ، وبالتالي القنوط من القضاء عليها . لذلك فان تبدلات السياسة الدينية قد أملاها آنذاك ، في وقت واحد ، الهوى والمصلحة ، بنسبة تختلف باختلاف الطبائع ، والظروف ، والمعلومات والتخمينات حول واقع الرأي العام ، ووحى وحتى رهان الساعة . ولا يمكن لمنازعات متعددة المعطيات كهذه إلا ان تكون معقدة جداً : فكيف لا تبقى حتى اليوم على جانب كبير من الغموض ؟

انها لمنازعات غامضة ولكنها خلاصة . ويعترينا الحجل لاننا لا نستطيع هنا ان نقدم ، الا بإيجاز هزلي ، ام قضية تنجم عنها : قضية ارتداد ، أو بالأحرى ، تنصر قسطنطين . فقد وجدت لها حلول كثيرة وان قريحة المؤرخين من علماء النفس لم تنته بعد ، في الأرجح ، من اكتشاف حلول اخرى جديدة . والجدل قائم اليوم ، انطلاقاً من المصادر المختلفة ، التي يولي النهج النقدي فيها مركزاً ممتازاً للسكوكات ، حول تاريخ هذا الارتداد ، واسبابه ، ونتائجه المباشرة ، وبالتالي حول صدقه وحتى حقيقته . يفسره البعض بوحي الهي نزل على قسطنطين في احدى الليالي التي سبقت المعركة التي شهنا على مكسانس ، على ضفة التير اليمنى ، فوق جسر ميلفيوس ، الى الشال من روما ، في الثامن والعشرين من شهر ت ١٠ (اكتوبر) من السنة ٣١٢ ، وهؤلاء يرون عادة في الامبراطور مسيحياً مقتنعاً . وعلى نقيض ذلك فان غيرهم يفسرونه كتظاهر املته ، دون اى اقتناع ، انتهازية سياسية مدروسة . وهنالك ، بين هذين الحلين المتطرفين ، حلول اخرى كثيرة لن تتولى تحديدها أو درسها . فيكفي قولنا اعلاه ان اللامبالاة لم تتمكن من النفوس آنذاك للدلالة على اننا نصرّف النظر عن كل حل تستلزمه : فعلى غرار اوغسطس من قبل ، تصرف قسطنطين تصرفاً آخر . ولكن يبدو من المستحيل ايضاً ان ننكر انه قد اعتقد ، باقدامه على تخليص شخصه ، الذي لم يفصل بينه وبين الامبراطور ، بانه انما يخلص الدولة ايضاً : وان الاله الذي كان قد اولاه النصر على مكسانس ، ثم على ليسينيوس بعد مرور اثنتي عشرة سنة ، لن ينقطع عن ارشاده وحمايته وارشاد وحماية خلفائه . فكان الارتداد بهذا المعنى ، بالنسبة لقسطنطين ، عملية سياسية ايضاً : واذا اعوز تنصره الرقة ، وبقي « خشناً » ، كما قال المطران دوشين ، فقد اعوزه التجرد ايضاً .

تسامل وامتيازات
مهما يكن من الأمر ، فقد كان سيد الامبراطورية مسيحياً : فهل تسير
الاضطهادات في اتجاه آخر ؟

تمشى قسطنطين على مبدأ التساهل . وهو قد ورث التساهل عن والده ، ذلك التساهل الذي

بدا ، خلال هذه الحروب ، لكثير من الناس ، وكأنه الحل الوحيد . وقد اضطر غاليريوس نفسه ، عدو النصرانية اللدود ، الى القول به . فحين أصيب بمرض عضال ، قبل وفاته بأيام معدودة ، في ربيع السنة ٣١١ ، سلم بنشر براءة اعترف فيها صراحة بفشل الاضطهاد وأعاد للمسيحيين حرية عبادتهم : « عليهم أن يبادلوا حملنا بالصلاة لأجل خلاصنا ولأجل الدولة ولأجل نفوسهم ، حتى تتم الدولة بازدهار تام ، وحتى يستطيعوا العيش في بلادهم بطمأنينة . » ولم تلغ هذه البراءة قط من بعده . وفي اوائل السنة ٣١٣ ، قبل ان يصطدم ليسينيوس « بمكسيمينوس دايا » ، الذي لم يعمل بها في الشرق ، اجتمع ليسينيوس هذا في ميلانو بقسطنطين ، الذي سبق له وانتصر على مكسانس واصبح سيد الغرب . فاسفر هذا الاجتماع عن تعليمات بمكثنتنا ان نحفظ لها ، اصطلاحاً ، اسمها التقليدي « براءة ميلانو » . وقد اصدر ليسينيوس امره فيها باعادة الممتلكات المصادرة من المسيحيين ونادى بالتساهل حيال كافة المعتقدات : « بعد البحث بكل عناية عما يمكن ان يكون نافعا لخير وسلام الدولة ، وعما يمكن ، في جملة ذلك ، ان يؤدي خدمة لاكثرية الناس ، رأينا قبل كل شيء آخر وجوب تسوية كل ما هو مختص بالاحترام الواجب للذات الالهية ، بغية اعطاء المسيحيين وكافة المواطنين حرية التمشي على الدين الذي يختارونه . » ولم يضيف قسطنطين شيئاً الى ذلك بعد ان انتصر على ليسينيوس في السنة ٣٢٤ واصبح مضطهداً بدوره ، حين اعلن ، محاولاً طمأنة وثنيي الشرق : « ليسر كل منكم على الرأي الذي يفضل . »

غير ان هذه التصريحات لم تحل دون فقدان توازن كان من المستحيل على كل حال المحافظة عليه اذ ان الرجل والامبراطور كانا شخصاً واحداً .

انه لمن الشطط لعمرى ، على الرغم من بعض الحوادث النادرة ، الكلام عن الاضطهاد ضد الوثنية . فقد استمرت طقوسها في الحياة الرسمية ؛ وهي الضرورات المالية التي اوجبت جرد ممتلكات المعابد ، دون ان يكون لدينا اي دليل على المصادرة . ولم يقصد كذلك سوى ايجاد المساواة من ترميم الكنائس القديمة ، وتشديد الكنائس الجديدة ، واعفاء الاكليروس المسيحي من الموجبات المالية الذي تتبع به الكهنة الوثنيون من قبله والذي لن يلبث الكهنوت اليهودي ان يحصل عليه . وكان من الطبيعي ايضاً ان تبدل الشرائع التي لا تأخذ الاخلاق المسيحية بعين الاعتبار : بالغاء العفوبات القانونية التي اصابته منذ اوغسطس ، في مادة الارث ، إلغازين والمتزوجين الذين لم يرزقوا اولاداً .

ولكن قسطنطين ذهب الى ابعد من ذلك . فان بعض الذبائح على الاقل - ونحن لا نعرف اياً منها - قد حرمت . وغدا يوم الأحد يوم الراحة القانونية وحظر القيام فيه باي عمل رسمي غير الاعتاق . واعتبر القانون الاعتاق الذي يحصل في الكنيسة ثابتاً شرعياً كذلك الذي كان يحصل بحسب الاجراءات السابقة . وتقلد الاساقفة حق السلطة القضائية على اعضاء اكليروسهم . واعترف بتحكيمهم المبرم في الدعاوى المدنية بين العلمانيين حتى ولو لم يطلب هذا التحكيم سوى احد الطرفين فقط . وقد بلغ من افراط هذه الامتيازات ان فرض احد خلفاء قسطنطين رضى

الطرفين وانت الاعتراض على السلطة القضائية الجنائية على الكهنة قد توالى حتى اواسط القرن الخامس .

ان مثل هذه التدابير تتخطى إطار الاقتناع الشخصي . وليس لها من تفسير سوى الرغبة في جعل الكنيسة جهازاً رسمياً واشراكها في حياة وسير الدولة وتقوية الدولة بما لرؤساء الكنيسة من تأثير على المؤمنين . وهكذا فان الديانة المسيحية ، بفعل انقلاب الوضع انقلاباً غريباً وشبه محتوم ، اصبحت تدريجياً دين دولة بعد ان كانت في الامس القريب ديناً محرماً .

ومع ذلك فان الديانة المسيحية كانت ابعد من ان تحرز غلبة نهائية عند وفاة نهاية الوثنية قسطنطين . فما زالت الوثنية محتفظة بمراكز قوية جداً . كان الجيش ، باكثريته ، متمسكاً بها . وما زال ينتسب اليها كافة رجال الفكر المشهورين تقريباً . وما زالت تعتنقها ، بنسبة كبيرة ، لاسيما في روما ، العائلات المجلسية التي تمتلك ثروة عقارية طائلة وتقدم للدولة عدداً لا يستهان به من كبار الموظفين . وكان من الممكن ، لو قدر لامبراطور وثني ان يتولى السلطة بعد قسطنطين مباشرة ، ان يبدل الاتجاه الذي سار فيه قسطنطين تبديلاً دائماً .

أخفق جوليانوس لأنه تأخر في المهيم، وزال بسرعة . وارتسنت ردة فعل وثنية بعده بثلاثين سنة ايضاً ، غذاها فيريوس نيكوماخوس فلافيانوس الاديب والموظف الكبير ، بعد ان استفاد المجتمع الروماني الرفيع ، حيث نشأت ، من فتور الشعور الديني المسيحي في المفتصب اوجانيوس الذي أصبح امبراطوراً بفضل الفرنجي « اربوغاست » وأخذ يبحث عن عون على ثيودوسيوس الذي رفض الاعتراف به . فهبت «الريح الشمالية» بعنف في وجه جنود اوجانيوس وشلت جهودهم على ضفاف «النهر البارد»^(١) ووضعت حداً لردة الفعل في شهر ايلول من السنة ٣٩٤ . وهكذا فلمرة الثانية كانت الغلبة «للجليلي» بتوجيهه الريح الشمالية كما سبق له ووجه الرمح الفارسي الى جنب جوليانوس . انتحر فلافيانوس ؛ فارتد ابنه البكر وحصل بذلك على استعادة ممتلكات أبيه كما حصل ، مرتين متواليتين ، على وظيفة « حاكم المدينة » التي سبق له ومارسها في ايام المفتصب .

اذا ما استثنينا هذه الفترات القصيرة التي لم تجد قتيلاً ، فان السلطة قد بقيت في أيدي المسيحيين منذ قسطنطين . وبدهي ان كل امبراطور قد تصرف بحسب مزاجه الشخصي ، وبحسب الظروف احياناً . فعاد بعضهم الى فكرة التساهل : فأشهرها فالنتينيانوس الاول واخوه فالنس في قانون سنائه في السنة ٣٦٤ وجدداه بعد ذلك بسبع سنوات . ولكن التطور جاء على العموم متصلباً : فقد سيطرت التقوى على الجميع يدفع اليها تكاثر الارتدادات والخوف من التوسلات السحرية وتشجيع هاqqي القيب للمتآمرين . ولا تفسير لاحتفاظ الامبراطور بلقب الحبر الاعظم سوى رغبته في مراقبة الوثنية مراقبة اجدى . وكان ثيودوسيوس اول من انقطع

(١) يعرف اليوم باسم « فيباكو » وهو احد زواقد الـ « ايسوتزو » .

عن حمله حين اعتلائه العرش: فجاء انقطاعه هذا اثباتاً لفصل الدولة عما حاول مكسيمينوس دايا وجوليانوس تنظيمه كنيسة وثنية مع ما يستلزمه ذلك من مراتب كهنوتية . وقد سبق لكونستانس الثاني ان امر بأن ينزع من قاعة جلسات مجلس الشيوخ الروماني المذبح المنصوب امام تمثال إله النصر الذي كان الشيوخ الوثنيون يحرقون عليه بعض البخور ؛ بيد ان جوليانوس اعاده في وقت لاحق ؛ ولكنه ازيل في السنة ٣٨٢ ، ولم يظهر مرة اخرى ، ولفترة قصيرة ، على الرغم من الاعتراضات المتكررة ، إلا في عهد اوجانيوس . ونحن نعرف تمام المعرفة قضية «مذبح النصر» هذه بفضل الجدل الادبي الذي أثارته ، ومن الجائز ان نولي حوادثها قيمة الحوادث الرمزية .

ولكن الأخطر من ذلك هو خنق الوثنية اقتصادياً بمصادرة او تدمير ممتلكاتها وبتحريم تقديم الذبائح واستشارة هاتفي الغيب والعرافين وزيارة المعابد ، أي كل ما يدر دخلاً عارضاً . ولعل ما هو أدهى من ذلك ان هذه التجريمات قد استهدفت مثل هذه الاعمال بالذات كظواهر الايمان الفردي . فسنت شرائع صريحة وقاسية في السنة ٣٥٦ قضت ، تحت طائلة عقوبة الموت ، بالكف عن « الاحتفال بالذبائح » ، و « عبادة الأصنام » ، و « الدخول الى المعابد » . كانت هذه التدابير سابقة لأوانها ، فاضطر المسؤولون الى تعديل هذه القوانين . ولكن ثيودوسيوس قد نشر في ٨ ت ٢ (نوفبر) من السنة ٣٩٢ ، قانوناً سرى مفعوله هذه المرة قضى بفرض غرامات ثقيلة على المخالفين والموظفين المهملين وحظر كل عمل عبادة ، ولو لم تراققه الذبائح ، حتى داخل المنازل والاملاك الخاصة . ففضي منذئذ على الوثنية التي ما لبثت ان زالت عملياً خلال القرن الخامس .

الكنيسة والدولة
فلاريب من ثم في ان مساندة الدولة القوية قد خدمت انتشار الديانة المسيحية التي ما كانت ، لولا هذه المساندة ، لتنتصر بمثل هذه السرعة . وهل كانت من المقدر ان تلتصر يا ترى ؟ ان هذا الاعتقاد لجائز . اما تبياناه فأمر آخر ، وليس باستطاعة التاريخ ان يفصل في هذه المسألة . وكذلك فان التاريخ لا يستطيع البت فيما اذا كانت الكنيسة ، في النتيجة ، قد رضيت حقاً عن هذه المساعدة . فالارتدادات الحاصلة تحت الضغط الرسمي تمثل في نظرها مكاسب قد تكون ظاهرة أكثر منها واقعية : وان نفوساً كثيرة لم تتناولها حينذاك عملية التطهير المسبقة الضرورية . اصف الى ذلك انها ، من حيث علاقاتها بالدولة ، قد فقدت بعض استقلالها بمسارعتها الى طلب مساعدة « السلطة المدنية » على الهراطقة والحصول على هذه المساعدة : ففي الشرق حال استمرار السلطة الامبراطورية دون اقلاتها من قبضة رضيت بها في السابق ، ولكن اصدار الحكم في كل ذلك منوط بالمفهوم الشخصي الذي نكوّنه عن المسيحي والديانة المسيحية والكنيسة .

يختلف الأمر عن ذلك فيما يتعلق بالدولة ، اقله من زاوية نظرنا اليها في هذا الفصل . فقد رغبت الدولة ، بشخص قسطنطين ، في توطيد سلطتها ، ان لم يكن بالوحدة الأدبية التي قد يوفرها لرعاياها ، في أجل قريب ، انتصار ايمان يجل محل الوثنية الخائثة ، فأقله بالعهد الذي قد تجده

في الكنيسة بغية تأمين اخلاص المؤمنين الكامل . ورضيت ببعض التضحيات سعيًا وراء هذه الغاية . ولكن لن يتجاسر أحد على القول بأنها حصلت على المكافأة المرتقبة : فهي ، على نقيض ذلك ، قد اصطدمت ، بفعل هذا الواقع ، بعراقيل جديدة .

خسرت هي ايضاً بعض استقلالها . وقد سبقت الاشارة الى اعطياتها وتنازلاتها الاميرية والقانونية . واضطر الامبراطور من جهة ثانية لأن يحسب حساباً ، لا لأخلاق فحسب ، بل لنصائح ايضاً قد ثبتت له قيمتها منذئذ ، بحجج جديدة ، رجال يتصفون بالتصلف احياناً ، وقد حدث أكثر من مرة ان الرجل السياسي ، في ذاته ، قد خضع للمؤمن . وان في مجزرة تسالونيكي التي اُدت في السنة ٣٩٠ الى استحكام الخلاف بين ثيودوسيوس وأسقف ميلانو القديس امبروسيوس لأشهر مثل عن هذه الحوادث التي ترجع انها لم تكن مكدرّة فقط لكبرياء الامبراطور . ففي أعقاب شغب انطلق من الملعب وأدى الى قتل موظف كبير ، اصدر ثيودوسيوس ، تحت تأثير الغضب ، أمراً لم يرجع عن رأيه فيه إلا بعد قوات الأوان : طوّق الجنود الملعب ثم قتلوا ، طيلة ساعات ، ألوفاً من المشاهدين . أنذر امبروسيوس الامبراطور آنذاك بأنه لن يحتفل بالقداس ، بحضوره ، قبل ان يكفّر عن عمله . تردّد المذنب طيلة ستة أشهر على الاقل ثم تواضع اخيراً : فاعترف بخطيئته علناً وسمح له ، في عيد الميلاد ، بتناول جسد الرب . يستحيل علينا هنا لسوء الحظ ان نبين بالتفصيل في أية مجموعة معقدة من القوانين المنشورة والمفاعة تدخل هذه القضية . ولكن لما اوردنا عنها ، على الاقل ، فضل اظهار مدى السلطة الادبية التي تعرض سيد الدولة المطلق للخضوع لها منذ الآن . فعلى الرغم من العطف الذي قد يثيره فينا موقف الاسقف من هذه القضية بالذات ، علينا ان ندرك حقيقة مغزاها : ان مبدأ السلطة المدنية نفسه في خطر ، وان المنازعات مقبلة كثيرة أصولها في ما أوجزناه .

الدولة والمهرطقات
على ان ذلك لم يقد ، على القور ، أسوأ ما تعرضت له الدولة . وما كانت قسطنطين ، بعد ان جعل من الكنيسة نصيراً له ، ليرضى بأن تنقسم على نفسها ، فادارة النفوس يجب ان تكون واحدة على غرار ادارة الاجساد ؛ ويجب بالتالي منع كل انشقاق . ولكن المصادفة قضت بأن يصبح الامبراطور مسيحياً . في فترة قيام مشادات عنيفة خلقت البلبلة في صفوف الاكليروس وبين المؤمنين .

نشأت احدى هذه المشادات عن الاضطهادات . فقد اخذ على بعض الأساقفة وقوفهم موقفاً مرناً جداً من السلطات او قبولهم ، بمزيد من الحلم ، بعودة الملحدين . انفجرت مشادة من هذا النوع في مصر ولكنها بقيت محصورة ولم تدم طويلاً . وانفجرت اخرى أشد خطورة في افريقيا ، زادت في حدتها المخاصمات الشخصية والخلافات حول أصول الاجراءات ، فأفضت منذ السنة ٣١٢ الى تعيين اسقف منشق في قرطاج . كان هذا الانشقاق ، المعروف بالدوناطي نسبة لباعثه الرئيسي ، دوناط ، معداً ، طيلة أكثر من قرن ، لأن يعرف نجاحاً كبيراً لا سيما في نوميديا ، متهدداً في مدن كثيرة اساقفته وكهنته وكنائسه ؛ وكان لا يزال مستمراً

في اواخر القرن السادس ، مستعداً للاستفادة من كل فرصة مؤاتية .

اضفت المشادة الاخرى خطورة خاصة على المجادلات الكبرى حول المسيح التي يجدر بنا ان نعود اليها فيما بعد رغبة منا في تبيان التقدم الذي حققته في ايضاح العقيدة . منذ كان ليسينيوس حاكماً في الشرق ، اقدم كاهن اسكندري اسمه آريوس على اتهام اسقفه بالهرطقة . التي عليه الحرم ، فذهب الى آسيا حيث استفاد من قوة حجته وتضلعه في اللاهوت وحتى في الفلسفة واستمر في المجادلة موضعاً بقوة منطق حقيقة العقيدة التي دعيت بالآرية نسبة لاسمه . كان لدعاوته صداها البعيد حتى بين الاساقفة ، وحين استولى قسطنطين على الشرق بغد انتصاره على ليسينيوس ، علم واجماً بقيام هذه المشادة التي اوجدت في كل مكان انقسامات عميقة . امام هاتين المشادتين ، رأى قسطنطين التدخل ضرورياً لاسيا وقد طالبه الجميع بذلك . فلجأ الى الجامع اعترافاً منه بعدم الاختصاص : بمجم « آرل » في السنة ٣١٤ لمعالجة الهرطقة الدوناطية ؛ وبمجم نيقيا في السنة ٣٢٥ لمعالجة الهرطقة الآرية . بيد انه لم يسمح لهذا الاخير بالمذاكرة بحرية كاملة ، فضغط الامبراطور ، الذي كان مستشاره الاول هوسيو اسقف كوردوبا حتى تعتمد الصيغة التي اصبحت « قانون نيقيا » . ولمس من نفسه القدرة على اعتمادها فنفى آريوس وانصاره الرئيسيين . وهكذا تدخلت الدولة في خلافات النصرانية الداخلية حتى تلك التي لا علاقه لها بها .

وليس هذا كل ما جرى . ففي كلتا القضيتين لم يثبت قسطنطين على قراراته الاولى . فعني طوعاً او قبل باعادة النظر فيها ، واصفى الى الاعتراضات ونزل عند تأثير اعضاء عائلته أو اهل البلاط . حله ذلك على اجراء تبديلات دائمة . فلوحق الدوناطيون ثم اغضي عنهم ثم لوحقوا مرة اخرى . ومبذ السنة ٣٢٧ ، بعد ان استدعى آريوس للتحديث اليه ، اعتبر قسطنطين عقيدته عقيدة قومية ، اما اسقف الاسكندرية الجديد ، اثناسيوس ، الذي رفض الانحناء امام اعاده الاعتبار هذه ، فقد عزل واقصي . وقد رافق كلا من هذه التقلبات ضغط على مجامع الاساقفة وتعليمات الى الموظفين .

ان هذا التصرف المستبد يتصرفه قسطنطين اوجد تقليداً سار عليه خلفاؤه الا القليل منهم ، فوضعوا هم ايضاً القوة العامة في خدمة وحدة الايمان والنظام . وقد جرّم ذلك الى التحزب بحسب اقتناعهم الشخصي الذي غالباً ما تمليه تربية تلقوها او دسائس تحاك من حولهم . اجل لقد لمسوا عادة ان رأيهم تعوزه السلطة الادبية . ولكنهم كانوا يحاولون حينذاك اثباته شرعاً عن طريق مجامع تتفاوت شمولاً وتحضراً وترقب وتوجه بكل عناية . وزغبت الادارة ، من جهة ثانية ، في فرض الطاعة . فاستنفدت الدولة جانباً كبيراً من قوتها باستخدام هذه الاساليب . واصطدمت بمقاومات افقدتها الاعتبار احياناً . وما زاد في الطين بلة ان تدخلها نفسه ، الذي اعوزه الاستمرار ، قد زاد في امد وخطورة اضطرابات كان بالامكان تهدئة بعضها في وقت مبكر قصير .

لم يتبدل موقف الأباطرة المبدئي من الدوناطية الافريقية : ولم يساندها أي منهم علناً . ولكن أكثر من واحد ، ابتداء من قسطنطين ، قد سلّموا بتخفيف أعمال القمع . أضف الى ذلك أن الانشقاق قد استمر لأنه جسّد استياء وهياج الريفين البائسين الثائرين على النظام القائم . فتضررت الكنيسة ، بهذا الصدد ، من جراء الحماية التي رغبّت الدولة في توفيرها لها .

بيد ان المشادات حول الآرية بنوع خاص هي التي اظهرت المساوية المتبادلة الناجمة عن التدخل الامبراطوري في الشؤون الروحية . فلم تعرف هذه الهرطقة عملياً انتشاراً واسعاً في الغرب . وقد اصطدمت في الشرق نفسه اخيراً بالشعور الشعبي الذي اثاره وغذاه تصلب اثنايوس ، ولكنها مدينة بقوتها وديمومتها الى انها حصلت تكراراً على ايد الامبراطور : كونستانس الثاني ، سيد الشرق وحده اولاً وسيد الامبراطورية جمعاء آخرأ ؛ وفالانس ، في الشرق ؛ واخيراً جوستينا ارملة فالنتينيانوس الأول والوصية على ابنها ، في أليريا وايطاليا وافريقيا . فنشأت عن ذلك منازعات ملتوية لانهاية لها يتعذر درس طفوراتها الكثيرة . وقد انتقلت المشادة الدينية بين الاباطرة الشركاء أو بين الاباطرة الشرعيين والمغتصبين الى الصعيّد السياسي احياناً فرافقتها تبدلات وحوادث لا يحصى لها عد . ويكفيّننا لاعطاء فكرة عن تصلب بعضهم فيها بمن بلغت جسارتهم حد إهانة السلطة الامبراطورية ، ان نذكر ان اثنايوس ، الذي عاد عن المنفى بعد وفاة قسطنطين مباشرة ، ارغم ، قبل ان تدرّكه المنية في السنة ٣٧٣ ، على مغادرة الاسكندرية ثلاث مرات يضاف اليها نفيه ، في هذه الاثناء ، بسبب مقاومته لجوليانوس الوثني .

بعد اخفاق الآرية في الغرب ، بفضل الحرب الشعواء التي شنّها عليها هيلاريون اسقف بواتيه والقديس امبروسيوس ، كان الفضل لحزم ثيودوسيوس في القضاء عليها اخيراً في الشرق . ففي السنة الثانية من ولايته ، اي في السنة ٣٨٠ ، اصدر براءة تنص على ان لمستقيمي الرأي دون غيرهم حق حمل لقب « المسيحيين الكاثوليكين » . ثم استند الى مقررات مجمع القسطنطينية الكبير الذي انعقد في السنة ٣٨١ وانتزع من الاساقفة الآريين كنائسهم . فلم يبق عملياً ، عند موته ، آريون في الامبراطورية سوى البرابرة . ومرد ذلك الى ان المسيحيين بين هؤلاء - وعددهم كبير - قد تنصروا على يد القوط ، الذين تنصروا على يد اسقفهم اوليفيلا ، الذي تنصر هو نفسه على يد اسقف آري في آسيا الصغرى . وما كان الامبراطور ليستطيع اتخاذ اي تدبير ضد البرابرة .

كانت الآرية اهم هرطقة عرفها القرن الرابع . غير ان الدولة ساعدت الكنيسة على الوقوف في وجه هرطقات اخرى كثيرة . فنذ قسطنطين حكمت براءات عديدة بالزيف على مذاهب قد لا نعرف عنها شيئاً تقريباً . ولكن اول حكم باعدام الهراطقة المسيحيين لم يصدر الا في عهد متأخر نسبياً . وفي براءة السنة ٣٨٠ ، التي خطأهم جميعاً ، اكتفى ثيودوسيوس باستردادهم ، مضيفاً : « ان الرب سيثأر منهم ، ونحن ايضاً » . ولن يذهب الى ابعد من ذلك سوى احد المغتصبين ، ففي السنة ٣٨٦ ، حين حكم مجمع يوردو على تعليم بريسيليانوس اسقف لوزيتانيا

بالزيف ، اعدم الاسقف مع بعض انصاره : وقضت الضرورة ، تبريراً لهذا العمل بتشبيهم بالمانويين ، الملاحقين بكل شدة منذ ديوكليسيانوس ، والمصنفين ، منذ قسطنطين ، بين الهراطقة المسيحيين المقيتين . وقد احتج اسقف تور القديس مارتينوس على تقتيل البريسيلانيين ، ولكن احتجاجة لم يلق اذناً صاغية . فقد سلم الجميع بتدخل السلطة المدنية حتى ولو ادى الى نتائجه القسوى . ونحن سنرى ان ضحاياه كانت كثيرة جداً .

وهكذا فان الدولة ، بتحالفها مع الكنيسة ، قد اوغلت في الخلافات الدينية ، وان في تاريخ القرن الرابع لدلالة كافية على انها ، في عملها هذا ، قد زادت في الاضطرابات التي هزت الامبراطورية .

الفصل الثالث

الملكيّة المطلقة والبيروقراطية

لقد أطلق بعضهم على العهد الامبراطوري الثاني اسم « الخراب المرمم » . ولكن هذا التحديد غير منصف . فهو يهمل الاخطار التي كان على هذا العهد مواجهتها ، والهزات التي خلخلت ركائزه باستمرار . ويهمل بصورة خاصة تحقيقاته الجديدة ، اذ انه لم يكتفِ بالترميم لا في المقصد ولا في الواقع . شعر هذا العهد ، بحنين الى الماضي ، لا سيما الى « السلم الروماني » . ولكنه اضطر ، في محاولة استعادته ، على الرغم من تبدل معطيات المسألة، الى اكتشاف واعتماد أساليبه الخاصة التي رافقتها بالضرورة بعض الذبول . أضف الى ذلك ان الزمن ، مهما طال أمده ، يعمل عمله في خدمة اولئك الذين يجرّهم ورائه . فما هو شأن مدى التطور الملازم للحياة ، حين يتعرض لأزمة على مثل ديمومة وشمول أزمة القرن الثالث ، ولثورة روحية على غرار انتصار المعتقدات الجديدة ؟ ان صرح العهد الامبراطوري الثاني يمثل بناءً متميزاً ، مشيداً ، شأن اكثرية المساكن البشرية ، وفاقاً لتسويات شاقة ، تعدل باستمرار ، بين التقاليد القديمة ومقتضيات العصر والمثل المتناقضة .

وتمثل تقوية الدولة ، أهم تبدل على الصعيد السياسي : فقد غدت الملكيّة الامبراطورية مطلقة وبيروقراطية .

أسباب تحول الدولة
سبق للامبراطورية الاولى ، ان أخذت تتطور في هذا الاتجاه . ولم تسلك هذه الطريق ، كما رأينا ، بدافع الميل أو اللذة ، بل بحثاً عن الفعالية والتلاحم في العمل . لقد بقي النظام ، في عهد الانطونيين ، خاضعاً لمثل أعلى في الحرية . وكان جل ما يتمتع به ، ان تحكم المدن نفسها حكماً ذاتياً مستقلاً ، محتفظاً للحكومة المركزية ولممثلها الاقليميين بدور التنسيق فقط . وبدلاً من ان يحاول خنق هذه الحياة البلدية ، حيث قامت من قبله ، بذل جهده في إيقاظها ، حيث لم تستند الى أي تقليد . فهو قد أثر ، بسبب افتقاره الى الرجال ، أي الى الموظفين الأكفاء ، عدم الاهتمام للشؤون الصفرى . ولكن ضغط الأحداث القاهر ، لا سيما الصعوبات المالية التي تعرضت لها المدن ، قد أرغمته على التدخل ، في سبيل المساعدة أولاً ، واحتكار السلطة اخيراً . وحدث الشيء نفسه لمجلس الشيوخ ، اذ ان التطور الذي يعيننا قد

فرضه بسرعة ، منذ البدء ، الحذر السياسي ؛ ولكن ، اذا كان لهذا الحذر أثره العظيم ، فان الضرورات التقنية كان لها أثرها أيضاً . وهكذا فقد ازدادت سلطات الامير ، عملياً او قانوناً ، ازدياداً مطرداً، جرّ بالضرورة ، تحت اشراف هذا الاخير ، الى تنظيم جهاز دولة ازداد تقيده وتكاثر اجزائه باطراد أيضاً .

انطلقت الحركة اذن . ولعله كان باستطاعة ثورة أدبية ، او « فلسفية » ، بحسب مفهوم القرن الثامن عشر الفرنسي ، ان تقضي على هذه النزعة بأن تعيد الى مثل الحرية قوته الاولى . ولكن هذه الثورة لم تحدث . فان التيار العقلي ، الذي برز من قبل في العهد الامبراطوري الاول ، قد جرّ النفوس الى حيث اجتذبتها الوقائع ايضاً . ثم ان الشرق قد قدم ، بالاضافة الى دياناته ، ذكرى ومثل ملكياته المطلقة ذات الحق الالهي : وكانت مصر بينها دولة لا تزال الادارة فيها تراقب كافة مظاهر حياة ونشاط الرعايا ، ان لم توجهها توجيهاً كما فعلت في زمن الفراعنة والبطالسة . وجاءت من الشرق ايضاً مثل محبة البشر والعطف على الضعفاء التي تسربت تدريجياً الى النفوس : وجلي ان هذه المثل مرتبطة بمثل الملك الكلي القدرة المطالب ضميرياً باستخدام قدرته الكلية لسعادة رعاياه ، والقادر وحده على ان ينشر بينهم عدالة انسانية تفضل العدل في معناه الحمري . وقد صادفت هذه الاختبارات والآراء والمشاعر عضداً قوياً لدى سلالة ساويروس التي كانت مؤسسها ، المولود في افريقيا ، متزوجاً من سورية : فطيلة أربعين سنة تقريباً ، في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث ، كان للشرق أثره البعيد عن طريق الإباطرة أنفسهم ونساء عائلتهم وكثير من الموظفين .

علينا ألا نتجاهل هذه السوابق وهذه التأثيرات . ومع ذلك ، لم يكن لأي عامل ، في تكوين دولة العهد الامبراطوري الثاني ، فعالية الظروف التي أرغمت هي على العيش فيها . فطيلة قرن كامل هددت وجودها بالخطر أزمة فريدة ، ولم يحل ثقلها عليها دون الاخطار والاضطرابات التي كان من حسن طالع الامبراطورية الاولى أنها لم تحدث في آن واحد . فهناك البرابرة على الحدود ، وفي قلب الاراضي الامبراطورية احياناً . وهناك ، في الداخل ، الاعتصابات والحرب الاهلية والفوضى ؛ وفي الداخل ايضاً ، المعجز المالي والازمة الاقتصادية وزوال الازدهار والامن في المدن التي كانت حتى ذلك الحين مراكز اولى للحضارة . لم يكن من علاج لهذا الواقع ولهذا الخطر الدائم ، سوى جمع كافة السلطات في ايدي الامبراطور والاعتراف بحقه في مصادرة كافة الموارد البشرية والمادية ، ووحدة العمل في مجهود متزايد وحازم . اجل ان الحرية قد ماتت منذ زمن بعيد ، أي منذ آخر العهد الجمهوري . ولكن ما زالت هنالك بعض الحريات : فهذه هي التي زالت ، وكأنها بذخ غدا مستحيلاً .

١ - اموال الدولة

يتوجب علينا انطلاقةً من هذه الملاحظة ، ان نستهل هذا البحث بمطالب الدولة من رعاياها . سبق ورأينا كيف أمنت الرجال لجيشها . ولا تزال امامنا المطالب التي لا مفر من تسميتها

بالمالية ، في مفهومها الواسع ، مع ان الدولة غالباً ما تحاول تحصيلها عن طريق غير طريق النقد .

التنفقات
جر ازدياد الاعباء الى ازدياد المطالب . وقد نشأ هذا الازدياد خصوصاً عن ارتفاع عدد الجندين وعن ارتفاع اعظم في عدد الموظفين . وتلقى اصحاب الحقوق القسم الاكبر من اجورهم او من مرتباتهم عيناً ، اي حصصاً غذائية أو البسة : وفي ذلك ضماناً ضرورية ضد ارتفاع الاسعار ، وظرف مؤات ، كما لا يخفى ، لتبذير وخسارة ثقل وطأهما بالنتيجة على المكلفين . اصف الى ذلك ان تجهيز الامبراطورية المادي ، تحقيقاً لهذه الغاية او لغيرها ، يتطلب تمهداً وتحسيناً : فالضرورة تقضي بايجاد المخازن للمحاصيل والمكاتب للادارات ، والطرق ووسائل النقل وسعاة البريد ، الخ . فالجيش والبيروقراطية يمثلان عبئاً ثقيلاً جداً ، لعله اثقل عبء اطلاقاً على الرغم من افتقارنا الى الاحصاءات المالية .

غير ان كل شيء يحملنا على الاعتقاد بان النفقات الاخرى لم تتدن قط . فالباطرة ، على غرار اسلافهم ، ارادوا ربط اسمهم بالانشاءات الكبرى . وبما ان هنالك عدة اباطرة في اغلب الاحيان ، فهنالك عدة بلاطات ايضاً . فهم يتركون روما وينتقلون بسهولة ، مما يؤدي الى تشييد وتعهد قصر لكل منهم . انفق قسطنطين اموالاً طائلة حين شيد على البوسفور روما ثانية والى خلفاؤه تجميلها من بعده . ولا يعني ذلك ان سكان العاصمة الساقطة من مرتبتها قد حرموا نعم الدولة ؛ وقد اسرع قسطنطين الى شمل سكان القسطنطينية بها ايضاً . ولم يكتف اوريليانوس بتوزيع القمح مجاناً ، بل شرع في توزيع الخبز ايضاً ، ثم عمد خلفاؤه الى التوفير بتخفيض نوع الطحين ، ولكن فالنتينيانوس عاد فاقر الخبز الأبيض ، وافر اوريليانوس نفسه توزيع الزيت والملح ولحم الخنزير في بعض المواعيد ، كما اقر توزيع القمصان الذي لم يعمل به قط . ولم تنفد الالعب شيئاً من سناها ، لا بل ادخلت زيادات على ايام الاعياد .

الموارد
اقتضى من ثم زيادة الجهود الجبائي . اجل كان الاقتصاد اقل ازدهاراً منه في الماضي . ولكن كركلا" منح المواطنة الرومانية كافة الرجال الأحرار في الامبراطورية ؛ فمن حيث انهم أصبحوا كلهم متساوين قانوناً امام الدولة ، أصبح ممكناً اخضاعهم للموجبات الاميرية ، واستطاعت الحكومة ، دونما اهتمام للامتميازات القديمة ، ان تأتي بشيء جديد .

اما هذا الجديد فقد حققه ديوكليسيانوس الذي توصل في اوائل القرن الرابع ، بعد ان تلمس طريقه ، كما فعل حين اقام النظام الرباعي ، الى اعداد ما اصبح منذئذ الضريبة الرئيسية ، أعني بها الضريبة الشخصية (الاعناق) . ان المعاضل الكثيرة التي تثيرها هذه الضريبة والتي يدور حولها جدال عسير لا تسمح بأن نعطي هنا سوى فكرة موجزة عن مبدئها ، لا سيما وان تطبيق هذا المبدأ قد تفاوت شدة بحسب المناطق . كان الهدف منها استبدال الضريبة المقاربية المتنوعة الاشكال والمعدلات ، والضرائب على الفلاحين او على المواشي ، بضريبة موحدة يكون مطرحها ثابتاً وعادلاً . يجري لهذه الغاية مرة كل خمسة عشر سنة ، تقدير مبني على مسح الاراضي

والاحصاءات، تجمع بموجبه العناصر المختلفة الضرورية للإنتاج الريفي، أي الأراضي والأشجار والمواشي واليد العاملة، وتُردّ، بالاستناد إلى معدلات محدّده بحسب جنس الأشخاص، وطبيعة المواشي، والأقليم، ونوع التربة، والمزروعات، إلى عدد معين من الوحدات الاصطلاحية المعتبرة متساوية بين بعضها، ومن ثم قابلة للجمع. هذه الوحدة الجبائية الاصطلاحية هي «النير»، أو «الرأس»، كما درجت تسميتها. تقف الإدارة بهذه الطريقة على مجموع الرؤوس المحصاة في الامبراطورية وتوزيمها بين الولايات والمناطق والملاكين. ويكفيها من ثم أن تقدر حاجاتها السنوية حتى تحدّد تدريجياً، بصورة آلية، الفريضة المطلوبة من كل مكلتف.

تجبي الضريبة الشخصية عيناً بكليتها تقريباً: وتتسعب منها رسوم عدة أهمها الضريبة العينية السنوية التي تخصص لتموين الجيش والمدن الكبرى. ولكن الدولة بحاجة إلى مداخيل نقدية أيضاً، ولا يمكن، من جهة ثانية، أن تبقى الزراعة وحدها حقل نشاط السكان. لذلك أبقى على بعض الضرائب غير المباشرة، المحدودة الدخل، على الرغم من ارتفاع معدلها. ولذلك، خصوصاً، أحدثت قسطنطين ضرائب تدفع ذهباً أو فضة وتتناول بالتالي أعضاء بعض الطبقات الاجتماعية. وفرض على أعضاء الطبقة المجلسية، وجلتهم من الملاكين الأثرياء، أن يدفعوا ذهباً رسماً عقارياً إضافياً تراوح معدله بين ١ و ٤ خلال القرن الرابع، بحسب ثروتهم. ودفعت العائلات الكهنوتية في المدن ضريبة «ذهب التاج»: والمقصود بها مبدئياً تقديم تاج للامبراطور لمناسبة حدث سعيد؛ ولكن فالنتينيانوس نزع عنها الطابع الاختياري دون أن يجعلها دائمة على كل حال. وكان على التجار، والصناعيين، والبغيات أنفسهم، والفلاحين الذين يقصدون المدينة لبيع محاصيلهم، أن يدفعوا ذهباً وفضة، مرة كل أربع سنوات، رسماً نجمل معدله.

تضاف إلى كل ذلك إيرادات تمتلكها الدولة وتمتلكها الامبراطور الخاصة، وقد ميز بينها سبتيموس ساوريوس. أن هذه الممتلكات، التي كانت واسعة جداً في العهد السابق، قد ازداد اتساعها بفعل المصادر التي كان ضحيتها أعضاء الطبقات الغنية خلال أزمة القرن الثالث. ثم ازداد اتساعها في القرن الرابع أيضاً، إذ وضعت الدولة يدها على أملاك المدن، ولم تتنازل لهذه المدن أخيراً إلا عن ثلث إيرادات هذه الأملاك وثلث المكوس المفروضة عليها. وعلى الرغم من الاعطيات الامبراطورية التي تكاثرت في القرن الثالث وما بعده، ما زالت هذه الممتلكات شاسعة جداً. وعاش البلاط، اجمالاً، من مداخيل الممتلكات الخاصة التي أوكل أمر استثمارها إلى القيمين. بينما سلت الإدارة الممتلكات الأخرى إلى بعض الملتزمين.

واكتمل النظام المالي في العهد الامبراطوري الثاني بما فرضه على الأفراد من ^{التسخير} خدمات كثيرة مجانية أو شبه مجانية ساعدت على تخفيض نفقات الدولة دون أن تساعد على تخفيض العبء الحقيقي الذي يتحمله الرعايا. وهذه الخدمات هي ما ندعوه اليوم بـ «السخرة» وما أطلق عليه الرومان اسم *Munera*. وكان لهذا التعبير، منذ البدء البعيد،

مفهوم مبهم اذ انه قد استخدم للدلالة على المهام الممارسة وعلى النفقات والموجبات الاخرى. التي تستلزمها ، مع فارق سخاء يتجلى في القبول بـ « معارك المسايين » التي يقدمها للشعب اولئك الذين ينالون شرفاً ما . اما الآن فقد انتفى عنه أي معنى من معاني التلقائية ، بحيث ان تطور معاني المفردات يعكس تطور العلائق بين الجماعة والفرد بالذات : فقد غدا الواجب يقضي بتنفيذ ما كان يقام به في السابق شكراناً او غيرة او مجرداً باطلاً . وتجدر الاشارة الى ان طبيعة « التسخير » واطار الخاضعين قد عرفا في الوقت نفسه اتساعاً عظيماً : فليس المقصود به بعد اليوم المهام الشريفة فقط ، التي تستهوي الاثرياء او اليسورين .

تنوع المهام تنوعاً لا حد له كما تنوع لائحة الخاضعين لها بحسب مرتبتهم الاجتماعية و ثروتهم ، ومهنتهم ومكان اقامتهم أو مكان أملاكهم ، مع ان هناك نزعة جلية الى فرضها على كافة الاهالي بغية التخفيف من وطأتها عن كل فرد . قد نحاول عبثاً وضع لائحة كاملة بهذه الخدمات أو وضع نبذة تاريخية عنها لتحديد تاريخ ظهور كل منها وتتبع تطورات تطبيقها : اننا في اغلب الأحيان نفتقر الى المعطيات . فالدولة تفرض ايواء رجالها من موظفين أو مجندين ، وتلزم المكلفين بنقل الضريبة العينية السنوية الى المخزن القريب ، ومن مخزن الى مخزن احياناً ، وتصادر اليد العاملة وادوات العمل والمواد اللازمة لتعهد ابنيتها والطرق والجسور، وتلزم بتقديم الزواهل وحيوانات الجر تأميناً لخدمة البريد العام الذي اعسف المقيمين على جوانب الطرق بعد ان اثقله تقدم الادارة. ولكن « التسخير » يطلق على موجبات متنوعة ايضاً: كاستئجار الأملاك العامة التي لم يستأجرها احد ، وتسليم كميات تعينها الدولة من المصنوعات أو من المواد الغذائية بأسعار محددة ، وتأمين وظائف عامة ، وضيمة جداً احياناً ، في المدن ، واخيراً وخصوصاً – وهذا اثقل تسخير – جباية الضرائب اي تحمل مسؤولية ايرادها .

هذا هو النظام باجزائه المختلفة اصلاً ومفهوماً ؛ لم توجه اية فكرة نظرية ، بل النواقص الحاجة فقط . وهو لا يختلف بذلك عن اكثرية الانظمة في كل البلدان وفي كل الازمنة . فان التجديد الرئيسي نفسه فيه ، أي إلزام كافة المواطنين ، بمن فيهم اولئك الذين يقيمون في ايطاليا التي اعفيت اراضيها من الضريبة منذ السنة ١٦٧ قبل المسيح ، ليس نتيجة لبراءة كركلا الاجزئيا . فقد سبق ، قبل هذا الاخير ، ان دفع الضريبة العقارية مواطنون كثيرون جداً ممن يقيمون في الولايات . وقد افضى الغاء الامتياز الايطالي الى اغتصاب ، اذ ان مكسانس قد استفاد في السنة ٣٠٦ ، من الاستياء العام . ولكن الدولة تصلبت بسبب حاجتها الى الضرائب الايطالية . وكذلك فان الاعباء الاميرية المفروضة على الطبقة المجلسية لا ترد الى عداء استهدف هذه الطبقة . ولو ان هنالك نزعة الى ايجاد المساواة ، وراء السياسة المالية ، لظهرت في امكنة اخرى حيث لا نلمس لها أثراً . ولكن من الطبيعي ان تطلب الدولة المال حيث هو متوفر .

لا مرأى في ان هذه الضرورة قد اتاحت تحقيق بعض التقدم اقله نحو توزيع الاعباء توزيعاً كثر انصافاً . ولكن ، ما اكثر الشكاوى ا فهناك ، كما هو طبيعي ، شكاوى المكلف المزمته .

وقد اعترض لاكتانس بقعة ساذجة على دقة مأموري الاحصاء في تنفيذ عملهم . ومع ذلك فان سير النظام سيء ، واذا لم تعرف الدولة في القرن الرابع الضائقات التي عرقتها في القرن الثالث ، فانها كثيراً ما تتخبط في العسرى وتضطر في مدار السنة لزيادة رسم اضافي على الضريبة الشخصية التي حددت هي نفسها قيمتها في اول السنة . وقد يحدث احياناً ان تتكدر المتأخرات الاميرية بحيث يجب الغاؤها ، فتسمح لوظيفيها ، اقله لصغار موظفيها ، ذوي الدخل المحدود ، بأن يؤمنوا لأنفسهم دخلاً عارضاً بتقبل هبة ، لا يحددها قانون ، من المكلفين المرتبطين بهم .

ثبتت جميع هذه الدلائل عدم انطباق النظام على الحاجات . وتقوم سيئته الكبرى في تعذر ضبط جدول الضريبة الشخصية يومياً بتتبع تقلبات مطرحها . اضاف الى ذلك ان حسن سيره يفرض ألا يمنح أي اعفاء وألا يتهرب أي مكلف من واجباته . ولكن كلا هذين الشرطين لم يتوفرا : فهناك اعفاءات رسمية من هذا المطلب او ذلك ، كما ان هنالك شخصيات كبيرة كثيرة لا تدفع الضريبة الشخصية المتوجبة على املاكها الي جباة لا يتمتعون حيالها بأية سلطة . فتزداد من ثم أعباء الجيران ازيداً مرهقاً احياناً ، اذ ان الدولة تتمدك بمطالبيها من كل مدينة وتوجهه ، في سبيل الحصول عليها ، الى المأمورين البلديين دون غيرهم .

لو ان الدولة ، التي أمنت الاجهزة الادارية القديمة وأحدثت العديد غيرها ، او كلت الى موظفيها ، بمساعدة القوة العامة أمر تحصيل الضريبة المباشرة ، تخضعت لعمري لمنطقها الخاص . اما ما اعوزها فهو الجرأة على التخلص من عاداتها المتأصلة ، او بالاحرى ، على ما نرجح ، الرجال الكفاء المستعدون للخدمة . والدليل على ذلك ان فالنتيانوس الاول قد حاول الاصلاح وأوكل الى مكاتب حكام الولايات امر جباية الضريبة الشخصية ، ولكن وجب العدول عن هذا الاصلاح ، بعد مرور عشرين عاماً ، امام اعتراضات هذه المكاتب نفسها : فألقت الجباية مرة أخرى ، شأنها في السابق ، على عاتق المأمورين في كل مدينة .

ولكن هذا العمل الذي اضيف الى أعمالهم الكثيرة قد أنهكهم ، فأضاعوا وقتهم في الجولات والمساعي . ومن حيث هم مسؤولون جماعياً عن ايراد الضرائب ، فانهم تعرضوا لشتى ضروب الضعف والانهار . فكانت النتيجة انهم انتهوا الى الافلاس .

٢ الادارة المحلية والاقليمية

ويقودنا ذلك ، عن طريق اموال الدولة- ولكن العامل الرئيسي هو نقص التنظيم المخطط المدينة الجباي- الى احد الفوارق الحقيقية العظيمة النتائج بين العهد الامبراطوري الثاني والعهد الذي سبقه . فلم يعد هنالك من بورجوازية بلدية تتبرع بادارة الشؤون المحلية ، بل «قواد عشرة» «مرغون» ، كما حدث بين حين وآخر في عهد الانطونيين تفرض عليهم الدولة القيام بدور الموظفين المجانين المقوتين في نظر مواطنيهم ونظر انفسهم . فلم يعد بالتالي

من مدينة بالمعنى الذي اطلقه الاغريق والرومان على هذا الموصوف في السابق . فزال بزوالها ، عنصر مقوم جوهرى من عناصر الحضارة التي تباهى بها العالم المتوسطي ، ذاك العنصر الذي تعلق به الناس ايما تعلق بسبب قرابه في الزمان وحيويته .

على الرغم من الصعوبات التي بدأت تعرفها الموازنات البلدية والتي حملت الاباطرة على توسيع جهاز الاوصياء ، فان عهد سلالة ساويروس الامبراطورية ما زال عهداً خيراً بالنسبة للمدن - لا بل عهداً ذهبياً ، كما يبدو في بعض المناطق ، كافريقيا التي ينتسب اليها مؤسس السلالة والتي خصها برعاية خاصة . وقد برهن سبتيموس ساويروس عن تنازل هام بادخال النظام البلدي الى « قواعد الولايات » في مصر وابعطاء الاسكندرية الى « بولي » ، اي مجلس الشيوخ الذي طالب به سكانها دون جدوى منذ زمن بعيد . ولكن سرعان ما قامت الأزمة الكبرى التي لم تمض اكثرية المدن العظمى ، بعدها ، نهوضاً حقيقياً .

انكشفت المدن آنذاك داخل اسوارها ، ومات قسم من سكانها أو صغروا من المال ، ومع ذلك فقد بدت للسلطة الامبراطورية درجات ادارية مريحة من حيث ان سكانها يؤلفون الجماعات الوحيدة بين الرعايا التي تتقيد بانظمتها وتسهل مهمتها . وما زالت هناك في الظاهر بعض الاجهزة البلدية . فاذا ما زالت جمعية الشعب من كل مكات ، فهناك العائلة (Curie) والقضاة الذين تنتخبهم . وقد يقوم في المدن الكبرى ، التي حافظت على نشاطها التجاري أو استعادته ، متطوعون يطمحون الى هذه المراكز ويبسطون يدأ سخية امام الجماعة . اما في المدن الاخرى فليست هذه المراكز سوى ضرب من « التسخير » ، ففدت وظيفة ممثل العائلة - الذي أخذ اسمه محل تدريجياً محل اسم « قائد العشرة » ، على ما بينهما من فوارق - واجباً تفرضه الدولة على كل من يملك حداً ادنى من ثروة زهيدة نسبياً .

سنعود الى المظهر الاجتماعي الذي ينطوي عليه هذا التبدل العميق ، مقتصرين هنا على المظهر الاداري . فلا تزال اجهزة المدينة مستقلة . ولا تتمتع الدولة الى جانبها اي موظف أو ممثل دائم . فان الوصي (Curateur) نفسه الذي عينه الامبراطور في السابق ، تنتخبه اليوم عائلته انتخاباً . ولكن هذه الاجهزة تتلقى الاوامر وكافة اعضائها يتعرضون للعقوبات اذا لم ينفذوها . فالبقاء الظاهر على الاستقلال ليس بالتالي سوى حيلة تستهدف ارغام ما تبقى من الطبقة المتوسطة على التكرس لخدمة الجماعة المحلية والدولة ، ليس بالمجان فحسب ، بل بالمجازفة بالثروة ايضاً . فهم ملازمون ، على الرغم من كل العراقيل ، بتأمين المهام البلدية العادية ، المحافظة على الامن ، والعناية بالابنية والشوارع ، والتموين ، والاعياد ، الخ . ، وتلبية الأوامر الحكومية بتولي جباية الضرائب ، وجمع الجندين ، وتنفيذ اعمال « التسخير » المختلفة . فهل ما يدعش والحالة هذه اذا لم يحسنوا القيام بجميع هذه الاعمال ، حتى بمساعدة « حامى المدينة » الذي لن يلبث ان يسيى واحداً منهم ؟

بدد اغتصابات تقوم الحياة الحقيقية خارج نطاق ادارات المدن التي تسير نحو الزوال ولا يبقياها الاملاك الكبرى سوى القسر .

اخذت هذه الحياة تنتقل الى املاك الاثرياء الذين تهزأ سلطتهم العملية من الاوصياء ، ومن

الموظفين انفسهم ، مع ان الانظمة لم تعترف لهم بعد باية سلطة قانونية . ان ارتباط الفلاح (المستعمر) بالاملاك ارتباطاً شرعياً ، الذي اقرته الدولة حينذاك للعبولة دون فرار اليد العاملة ، لا يولي الملاك اية سلطة ادارية . ويصح القول نفسه في الحماية التي يمنحها الملاك بعض الفلاحين الاحرار في الجوار . ولكن الواقع غير ذلك . فالاثر يبرزعون ويجمعون الضرائب كما يطيب لهم في الاراضي العائدة اليهم دونما اكثر اثار منهم لتسييد حصيلة الضرائب . ولما كانت الشرطة لا تتجاسر على التعرض لهم ، فانهم يمارسون حق الحماية ، ويحصلون حقهم بأيديهم ، ويستولون على ممتلكات واشخاص مدينينهم . ويعود تحريم السجون الخاصة لاول مرة الى السنة ٣٨٨ ، ثم يعقبه تحريمات عدة في القرن الخامس ، وسيصدر في الوقت نفسه امر بتحريم تعهد الزمر المسلحة . فبدأ من ثم القضاء على حقوق الدولة ، بفعل اغتصابات يستحيل قمعها ، لمصلحة ذوي الاملاك الكبرى .

بيد ان كل ذلك ليس سوى تباشر تطوراً سيقود الى نتائج بعيدة جداً . وانت البيروقراطية
 أجهزة الدولة ، على تقيض ذلك ، لم تعرف يوماً مثل هذا العدد ومثل هذه القوة . فالمركية ، مع ما تستتبعه من ادارات وموظفين ، احدى الميزات الخاصة بالعهد الامبراطوري الثاني . ليس لدينا ، بصدد العهد السابق ، مصدر افضل من « لائحة الوظائف » التي تضع امام امام اعيننا « بياناً بالوظائف » والقوات العسكرية في كل من « شطري » الامبراطورية ، الشرقي والغربي ، في اواخر القرن الرابع . ومع ذلك فلا يجوز لنا ان نشك دققة واحدة في النمو العظيم الذي طرأ على المصالح الاقليمية والمركية . فالواجب يقضي على الحكومة ان تواجه اعباء لا تسمح لها نواب الدهر بعد اليوم باعمالها . اضع الى ذلك ان تقسيم العمل غدا ، الى حد ما ، فرضاً واجباً : فهي ، بدافع الحذر ، وحرصاً منها على الكفاءة والفعالية ، فصلت فصلاً نهائياً بين الادارة المدنية والقيادة العسكرية . واضطرت اخيراً الى احداث درجات وسيطة بغية تخفيف عملها الخاص وتنسيق النشاطات المحلية تنسيقاً افضل . ولكن ، اذا طرأت هذه الزيادة العظيمة على عدد المصالح ورؤسائها من موظفين كبار ومتوسطين ، فاننا نفهم هذه الزيادة في عدد صفار الموظفين في المكاتب ايضاً : في اواخر القرن الرابع ، كان لكل حاكم ولاية ١٠٠٠ مستخدم ؛ ولكل نائب ٣٠٠ ؛ ولكونت الشرق (القائد العسكري) ٦٠٠ ؛ ولكونت الاعطيات المقدسة في الغرب ٨٥٠ ؛ ولرئيس الحرس الامبراطوري في الشرق أكثر من ١٠٠٠ .

خضع صفار الموظفين هؤلاء لتنظيم عسكري على الرغم من صفتهم المدنية . فوزعوا فرقاً فرقاً ، لابل سجلوا اسماً في وحدة عسكرية احياناً . فقد اعتبرت الوظيفة الغامة ، في حد ذاتها ، Militia أي « خدمة عسكرية » . وخضعت لتسلسل داخلي دقيق ، ولنظام خاص ، ولقواعد ترفيع ؛ وحق عادة للموظف ، بعد قضاء عشرين او خمس وعشرين سنة في الخدمة ، التمتع « بالشرفية » أي الاحتفاظ باللقب والامتيازات الشرفية . لم يبق كل ذلك دون نتيجة على الصعيد الاجتماعي ، وأسهم ، على الصعيد الاداري ، في توفير التلاحم الشديد لما يجب تسميته

بالبيروقراطية الامبراطورية ، وهي الاولى ، بوضوح معالمها ، بعد البيروقراطية المصرية . هذا واقع لا شك فيه ، ولا أبسط منه ايضاً . ولكن ما هو جوهرى ، على استحالة تحقيقه ، هو التمكن من تقدير قيمة هؤلاء الموظفين تقنياً واخلاقياً . فلوراثة دورها الاول في تعيينهم ، وللدسياسة ، الى جانب الاستحقاق والاقدمية ، دور في ترفيعهم . وعلى الرغم من ان كافة التعيينات منوطة بالامبراطور الذي يتحرر ، حتى عند ملء المراكز الرفيعة ، من الواجب القديم القاضي باختيار الموظفين بين اولئك الذي شغلوا هذا أو ذاك من مناصب القضاء ، فانه يشعر بالحاجة الى مراقبة موظفيه . وهو يستخدم لهذه الغاية « موظفي الشؤون » الذين يكلفون تنفيذ مهام تستوجب الثقة ويقومون بأعمال التجسس في المصالح ايضاً . ونحن نرجح ان هذا الجهاز كان ضرورياً ، اذ انه ، بعد اقدم جوليانوس على إلغائه ، قد أعيد مرة ثانية ، وضم في النهاية عدّة ألوف من هؤلاء الموظفين . بيد اننا لا نستطيع الفصل في فعالية هذا الجهاز . فما هي الأهمية التي يجدر بنا ان ننسبها ، لأجل الحكم على هذه الادارة ، الى القرارات الامبراطورية في سبيل تقويم الاعوجاجات والى شكاوى المكلفين ؟ ان البيروقراطية لا تنتظم دون تلمس وتردد ، ولم تنظر الطبقات الاجتماعية ، التي تعبّر مصادرها عن آرائها ، نظرة رضى الى تسلط الدولة الثقيل على الممتلكات والاشخاص . ومهما يكن من الامر ، فيجب التسليم للمستائين من النظام انه يفضي الى البطء ويقضي على روح المبادرة ، ولكن الانتقادات تتلاشى امام هذه الحقيقة : لولا هذه الادارة لصارت الدولة الى انهيار سريع .

أوليات ما زال اسم « الولاية » قائماً ؛ ولكن مفهومه قد تبدل تبدلاً كبيراً . وها نحن نشير الى التبدلات الرئيسية دون ان نغامر في ردّها الى اطوارها التاريخي ، وهي مغامرة عملة لا تفضي بنا الى الحقيقة الثابتة على كل حال . لم يعد هناك من تمييز بين الولايات وايطاليا : باستثناء روما التي قسمت منذ ديوكليسيانوس الى دواثر شبيهة كل الشبه بالولايات ، دون ان يطلق عليها هذا الاسم الذي قد يثير النزق والانفعال . ولم يعد من تمييز كذلك بين الولايات المجلسية والولايات الامبراطورية : فالامبراطور وحده ، دون مداورات ، يعين الحكام أجمعين ويشرف على الادارة جمعاء . وليس هناك عملياً ، باستثناء حالات نادرة جداً ، من قيادات عسكرية يمارسها الحكام : فقد عادت هذه القيادات الى الرؤساء العسكريين . ونجرت الولايات القديمة خصوصاً ، بدافع الحذر السياسي ؛ وتخفيفاً من العبء الملقى على كاهل الحكام ايضاً . كان عددها يناهز الخمسين تقريباً حين تولى ديوكليسيانوس الحكم . فرفعها هذا الأخير الى ضعف هذا العدد تقريباً وأحدث سبع ولايات في ايطاليا . وعند وفاة ثيودوسيوس أضيفت سبعة عشر ولاية ايطالية الى أكثر من مائة ولاية .

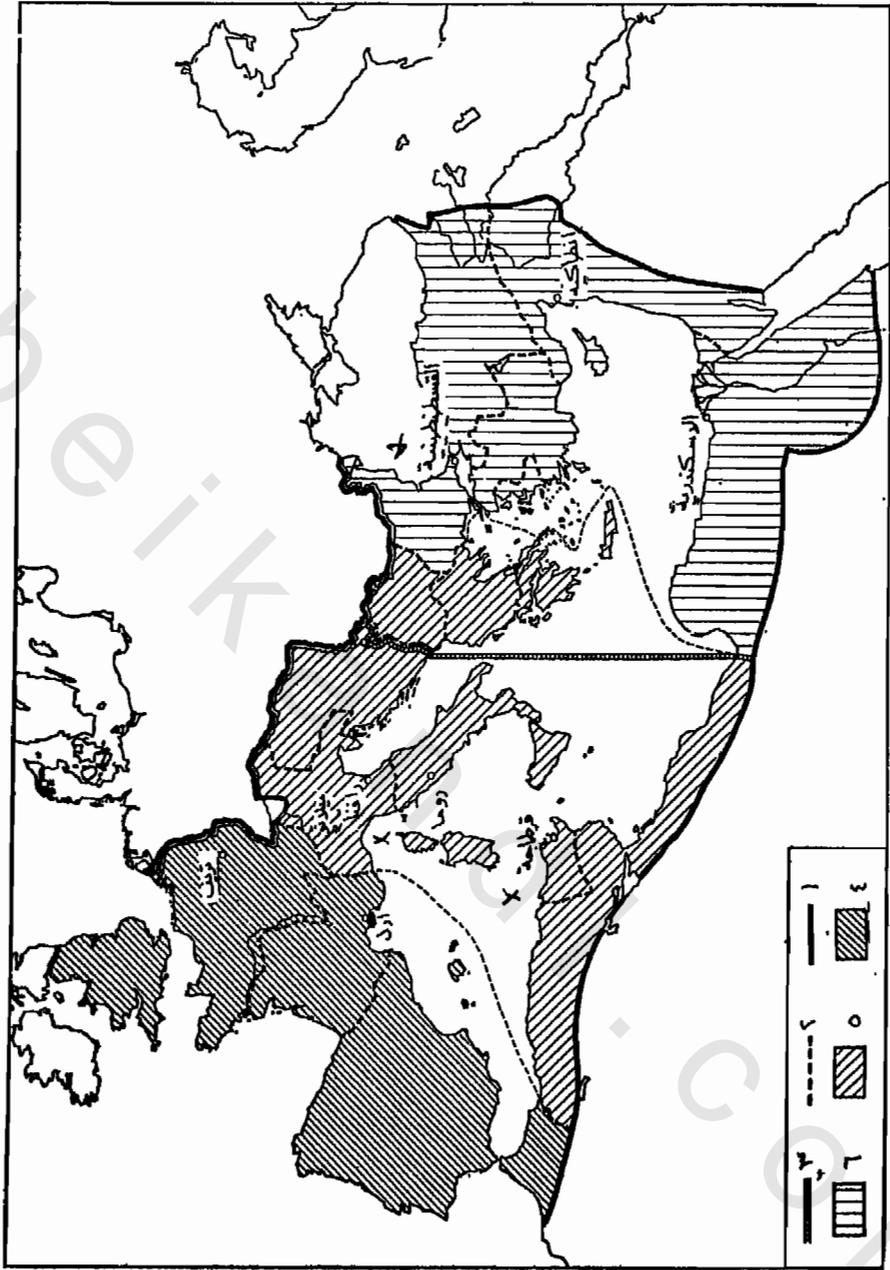
لم تتساو هذه الولايات ، لا أهمية حقيقية ولا مرتبة ، وتنعكس منزلتها في لقب حاكمها . ولا يزال ثلاثة من الحكام ، بقوة استمرار غريبة ، يحملون لقب « بروفنصل » القديم : وهؤلاء هم ، بحسب تقليد العهد الامبراطوري الاول ، حاكما آسيا وافريقيا اللذان أضيف اليها ، احتراماً

لماضي اليونان ، حاكم آخيا. ويقسم الآخرون ثلاث فئات. ولكن أهمية هذه التميزات الوحيدة محصورة في تحديد درجة الحاكم في سلسلة مراتب الموظفين . وتتفاوت حرية الحكام في العمل بنسبة قريبهم من الرئيس او بعدهم عنه ، او بنسبة أهمية الرئيس العسكري الموجود في ولايتهم . وكان عليهم ، قبل أي شيء آخر ، حتى اذا ما نجوا من مثل هذه القيود ، تأمين تنفيذ الاوامر الصادرة عن رؤسائهم . وما كنا لنرى فيهم خلفاء الحكام القديما لو لم يتعاظم دورهم القضائي في أعقاب انحطاط المدن : فدرجت تسميتهم كلهم « قضاة » . ولكن أحكامهم قابلة الاستئناف .

ان نزعة العهد الى السُلطة المطلقة ، بما تنطوي عليه من تناقض ظاهر أكثر منه حقيقي ، لم تقض به الى إلغاء الجمعيات في الولايات : فهو على نقيض ذلك قد احدث جمعية في كل ولاية . والاعراب من ذلك ان اعتناق الامبراطور للديانة المسيحية لم يبلغ واجب هذه الجمعيات ، حتى في عهد متأخر ، في القيام بطقوس العبادة الامبراطورية : فهي تعين ، شأنها في الماضي ، كاهن الولاية ، والعبادة الامبراطورية هي الوحيدة بين « أجماد » التنظيم القديم ، اقليمياً ومحلياً ، التي حافظت على ملء رونقها . واستمرت الحكومة المركزية في السماح للجمعيات بتهنئة كبار الموظفين ومحاولة افقادهم الخطوة ، ولكن نجاح هذه المحاولة ما زال عسيراً كما في السابق . لا بل سمحت لها آنذاك بأن تتقدم منها بتمنيات ، جريئة جداً أحياناً : وهكذا في السنة ٣٩٩ لم تتردد جمعية ولاية « المدن الخمس » *Pentapole* الافريقية في اثاره النقاش لمعرفة رأي الاعضاء في ارفاق مقدمة تاج ذهبي للامبراطور اركاديوس والتاس تخفيف الضرائب بطلب إلغاء القيادة العسكرية التي تخضع لها . وان هذا التساهل ، الذي لم ينجم عنه أي خطر ، قد اتاح للامبراطور الحفاظ على حد أدنى من الاتصال بالرأي العام في المواضيع ذات الصالح المحلي : وهو حد تحتاج اليه كافة الانظمة ، حتى المطلقة منها .

لم يكن يمكن بحكم الولايات ، بسبب كثرتهم ، الاتصال اتصالاً مباشراً دائماً بالبرشيات والحكومة المركزية . لذلك احدث ديوكليسيانوس درجة وسيطة هي « البرشية » واسندت السلطة فيها الى « وكيل قائد حرس القيصر » . كان عدد البرشيات في البدء اثنتي عشرة ثم أمسى خمسة عشر في اواخر القرن الرابع . ضم كل منها عدداً معيناً من الولايات في وحدة اقليمية كبرى . بيد ان مدينتي روما والقسطنطينية والولايات الثلاث التي اسندت السلطة فيها الى بروقنصل فلم تدخل في هذا التقسيم ، بل ارتبطت مباشرة بالحكومة المركزية . فالفت بريطانيا ابرشية ؛ وغاليا ابرشتين ، احدها للنصف الجنوبي والثانية للقسم الشمالي ، وكانت مدينتا « تريف » وفيينا مقر الوكيلين ؛ ومصر وكيرينا ابرشية ؛ الخ . وقامت في هذه البرشيات جمعيات على نمط الجمعيات في الولايات .

راقب الوكلاء عمل الحكام ومارسوا سلطة قضائية استثنائية . واستفاد « كونت الشرق » ، وهو وكيل البرشية التي ضمت الولايات حول سوريا ، من مركز استثنائي بسبب جوار بلاد



الشكل ٢٢ - الأبرشيات وقيادات الحرس في السنة ٣٩٥ .
 ١ - حدود الامبراطورية؛ ٢ - حدود الأبرشية؛ ٣ - الحد الفاصل بين شطوي الامبراطورية الشرقي (اركاديوس)
 والغربي (هونوريوس) في السنة ٣٩٥ ؛ ٤ - قيادة حرس غالبا ؛ ٥ - قيادة حرس ألبانيا وايطاليا وافريقيا ؛
 ٦ - قيادة حرس الشرق .

فارس . اما في الابريشيات الاخرى فلم يحظ الوكلاء بهذا المركز الهام . كانوا يرسلون الامبراطور مباشرة ، ولم تحدث وظائفهم الا لضعاف قيادة حرس القصر ، ولكن التنظيم الجديد الذي ادخل على هذه الاخيرة اخضعهم لها في النهاية . وما لبثوا ان اصبحوا مجرد جهاز للتحويل ، وما عتمت بعض المراكز ان بقيت شاغرة . فتغلبت النزعة الى المركزية ، مع ما تستلزمه من تسلسل دقيق في المراتب ، على النزعة الى النظام الاقليمي التي لم تبرز يوماً بقوة على كل حال .

ادخل قسطنطين تعديلات عظيمة على قيادة حرس القصر . منذ العهد قيادة حرس القصر الامبراطوري الاول تعدت صلاحيات هذا الجهاز ، الى حد بعيد ، قيادة فرق الحرس التسع : فقد مارس قادة الحرس سلطة قضائية وتوصلوا من جهة ثانية ، لاسيما منذ القرن الثالث ، بفعل اشرافهم على تموين الجيش ، الى فرض رقابتهم على كل الادارة المالية تقريباً . ومع ذلك ، لم تحدث تجزئة اقليمية قط ، على الرغم من ازدواجية الحكم غير النادرة . بيد ان النظام الرباعي قد ادى الى هذه التجزئة عملياً بتخصيص كل امبراطور ، ان لم يكن كل قيصر ، بقائد حرس . ومع ان قسطنطين قد اعاد الوحدة الامبراطورية في شخصه ، فقد رجع تدريجياً الى تقسيم الامبراطورية دوائر اقليمية كبرى اسندت الى قادة حرس مختلفين . اجل كان هؤلاء القادة ، لمدة طويلة ، معتبرين وكأنهم هيئة واحدة . ولكن مبدأ التجزئة الجغرافية قد سيطر في النهاية . اما بصدد التجزئة نفسها ، فالتردد والغموض امرات غير نادرين ، ومرد ذلك الى اختلاف عدد الاباطرة و « الحصص » المخصصة لكل منهم . قامت في اغلب الاحيان ثلاث قيادات : واحدة للشرق ، من كيرينا حتى تراقيا ، واخرى لاطاليا وافريقيا والمناطق الباقية من شبه الجزيرة البلقانية ؛ وثالثة لبريطانيا وغاليا واسبانيا ومراكش . اما المعضلة ، التي برزت منذ قبل وفاة ثيودوسيوس ، فكانت في التوصل الى التوفيق بين هذه التجزئة وتقسيم الامبراطورية الى شطرين بفعل ازدواجية الاباطرة التي افضت الى ازدواجية الامبراطوريات . وقد طالب الشرق بزيادة حصته في شبه الجزيرة البلقانية ، فجر ذلك الى نزاع حول ابرشيتين .

بعد ان انقضى قسطنطين فرق حرس القصر ، انقضى سلطات القادة العسكرية وجعل منهم موظفين مدنيين فقط . كانت صلاحياتهم واسعة ومتنوعة ، ويتناول اهمها ، بالاضافة الى البريد العام والتعليم والتسمير والمحافظة على النظام بصورة عامة ، الخ ، الضرائب والقضاء . وهي في الحقيقة صلاحيات هامة جداً ، على الرغم من ان عطف ثيودوسيوس وحده يفسر مكانة قائد الشرق العالي روفينوس الايلوزي - من بلدة ايزوز في مقاطعة الاكيتين - ، وقد تركه لابنه اركاديوس في السنة ٣٩٥ . وروفين هو الذي عرف كيف يسوي قضية تسالونيكى بالاتفاق مع القديس امبروسيوس . اما القادة الثلاثة الذين اقاموا في القسطنطينية وميلانو وتريف - نقل هذا المركز الاخير الى « آرل » في السنوات الاخيرة من القرن الرابع - فقد اشرافوا على التشريع واقتروا كافة تعيينات الموظفين في الولايات وسيروا الادارة ، ومارسوا سلطة قضائية تمييزية اصدرها بموجبها احكاماً حبرمة ، فكانوا ، اذا ما وضعنا قيادة الجيوش جانباً ، اشبه بنواب الملك : لذلك

ارتأى الامبراطور احياناً اسناد منصبهم الى هيئة مؤلفة من قاندين .

تتضح بالتالي ، في الادارة المحلية والاقليمية ، حتى تلك التي ابقى فيها على الاسماء القديمة ، الخلاقات العميقة بين العهد الامبراطوري الثاني والعهد الذي سبقه . ويصيح القول نفسه في العواصم ، على الرغم من ان رواسب العهد السابق تبرز فيها بوضوحاً على جانب اقوى .

العاصمات

روما والقسطنطينية

يجب الا نخطيء في صيغة الجمع هذه: العواصم . فليس لاي من قادة الحرس مكاتبه في روما . ولا يقيم الامبراطور فيها الا استثناء ولفترات قصيرة . ففي الغرب نفسه ، نراه ممضياً ايامه في تريف ، أو ميلانو - ولن يلبث ان يعضها في رافنا التي تتصل بالبحر ويسهل الدفاع عنها - أو سيرميوم (ميتروفترا الحالية على نهر الساف) النخ. ولكن ليست هذه كلها سوى مراكز اقامة ، لا عواصم ؛ فلا تزال روما هي « المدينة » ، ولا تزال الامبراطورية « رومانية » .

غير ان قسطنطين قد احدث روما ثانية ، خاضعاً لاعتبارات لا يزال الخلاف قائماً بين المفاصرين حول طبيعتها وأهميتها . ليس باستطاعة احد ان ينفي رغبته في تخليد اسمه بمشروع هندسي عظيم : فان قسطنطينوبولس ، « مدينة قسطنطين » ، المبنية في موقع يضمن له قدم بيزنطية الأهمية الاقتصادية ، ستكون مدينة تختلف عن سيرتا النوميديّة التي رمت وأطلق عليها اسم قسطنطينية . وليس باستطاعة احد ايضاً ان ينفي الاعتبارات العسكرية : مناعة الموقع الطبيعي ؛ أهميته الاستراتيجية عند مصب البوسفور الذي اجتازه القوط في القرن الثالث ؛ قربه من الدانوب السفلي الذي يهدده خطر البرابرة ؛ جوار الولايات الشرقية التي يهددها الخطر الفارسي والتي خضعت لسلطة ليسينيوس الذي هزم في شهر ايلول من السنة ٣٢٤ ، بينما تقرر اختيار الموقع منذ شهر تشرين الثاني . ولكن الاتفاق حول اعتبارات روحية ممكنة ليس أمراً بسيطاً . قد يكون قسطنطين اراد عاصمة مسيحية غير روما المتسمة اتساماً عميقاً بالطابع الوثني : ولكنه ، اذا لم يدرك مسبقاً ان توارى الامبراطور ، في عداد اسباب اخرى ، سيفضي الى جعل روما عاصمة النصرانية الغربية ، لم يفته مع ذلك ، في القسطنطينية ، ان يوعز بالقيام بكافة الطقوس الوثنية المعدّة للتأسيس ، ثم للتدشين في السنة ٣٣٠ ، وبتشديد أكثر من معبد . ومن جهة ثانية ، اذا كان هذا الامبراطور الذي لم يتقن اليونانية قد فرض اللاتينية لغة رسمية في القسطنطينية ونقل اليها كثيراً من العائلات الرومانية ، فانه قد ارتكب خطأ فادحاً اذا كان قد اعتقد بأنه يوطد ، بهذه الطريقة ، الحضارة اللاتينية في البلاد اليونانية : فما لبثت مدينته ، في الواقع ، ان باقت حصن الحضارة اليونانية في وجه روما نفسها .

لقد خاب امل قسطنطين في هذا المقصد او ذاك من مقاصده ، ولكنه مع ذلك قد حقق منها ما هو جوهرى : فالقسطنطينية ، التي استلمت منه صدارة العاصمة والتي اشتركت فيها مع روما قبل ان تغدو عاصمة الشرق الوحيدة ، لم تفقدها قط إلا في القرن العشرين . وقد آثر الامبراطور نفسه الاقامة فيها على الاقامة في روما . فكثيراً ما أقام قبل تأسيسها في نيكوميديا

او انطاكية حين كان يقصد العيش في الشرق . وما زال ، بعد السنة ٣٣٠ يقيم في هذه او تلك من هاتين المدينتين : ولكنها اقامة قصيرة في مجموعها ، إلا اذا انصرف الى اعداد الحرب ضد الساسانيين ؛ ولكننا لا نرى ، على كل حال ، الى جانب القسطنطينية ، مدناً توازي ميلانو ورافنا .

ان روما مدينة لماضيها بالابقاء على أنظمة خاصة ، كما ان القسطنطينية الرواسب الشرفية في العوام مدينة لمساواتها لروما نظرياً بالتمتع بأنظمة مماثلة . ولكن هذه الانظمة ما لبثت ، في الاولى كما في الثانية ، ان فقدت سلطتها كلياً بفعل تطور ظهرت بوادره منذ أمد بعيد .

في كلا العاصمتين مجلس شيوخ ، منظم على غرار مجلس الشيوخ في العهد السابقة ، أي خاضع لسلم المراتب وفقاً للوظائف التي يمارسها القضاة او يسندها الامبراطور اليهم اسماً . اما مجلس روما فقد فاق مجلس القسطنطينية عزاً ، لأن باستطاعة ايطاليا ان تنتدب اليه ممثلين عن العائلات الكبيرة أكثر من الشرق البلقاني . وقد بقي ، لمدة طويلة ، المجلس الوحيد الذي يبلغه الامبراطور جلوسه على العرش ، فكان يسرع ، كما هو بديهي ، الى الاعراب عن استحسان هذا الجلوس . الى هذه البادرة انتهت النظريات والمشادات الكثيرة المختلفة حول تعيين الامبراطور ، او أقله تثنيته ، من قبل المجلس : فالامبراطور الاخير الذي اختاره هذا المجلس هو تاسيتوس الذي ملك عدة أشهر في السنة ٢٧٥ . وهكذا دواليك : فليس بعد من ولايات مجلسية ؛ وليس من خزانة باستثناء الصندوق البلدي ؛ وليس من ضرب نقود ؛ وليس من احتكار في ممارسة بعض الوظائف ؛ وليس من سلطة قضائية . ولا تتناول مناقشات الجمعيتين سوى المواضيع العادية . ولا يأخذ الامبراطور امانيتها بعين الاعتبار إلا كما يطيب له شخصياً : فلم يفلح المجلس الروماني مثلاً في استصدار قرار باعادة مذبح إله النصر الى قاعة جلساته الخاصة .

لم يحافظ اي من مناصب القضاة الجمهورية القديمة ، على تقيض ما حدث في العهد الامبراطوري الأول ، على اهمية اثره في الحصول على الوظائف العامة : فهذه قد غدت مستقلة عن «سلم الاجساد» . لا يزال الامبراطور يسند الى بعضهم مناصب قضاء اسمية ، لا سيما القنصلية ، ولكنه يفعل ذلك بغية مكافأة الذين خدموه خدمة صادقة ، اثناء تقاعدهم على العموم ، لا سعياً وراء مزيد من الحرية في العمل ، عند اختيار وترقيع الموظفين ، كما في السابق .

اصبح ارفع هذه المناصب القديمة لقباً على مستوى الامبراطورية دون روابط عملية بالعوام . فعلى الرغم من ازدواجية هذه الأخيرة ، لم يبق هناك سوى قنصلين اثنين يعود أمر تعيينهما للامبراطور دون سواء . وفي حال تعدد الاباطرة ، لا يتم الاختيار ، الذي يحاول ايجاد المساواة بين الشرق والغرب ، الا بالاتفاق بينهما . ورغبة في تلافى المخاصمات ، قرّ الرأي منذ السنة ٣٩٦ ، اذ كان الامبراطوران ، ابنا ثيودوسيوس ، قنصلين في آن واحد ، على ان يعين كل منهما القنصلين مناوبة ، كما قرّ الرأي ، بعد فترة قصيرة ، على ان يعين كل منهما احد القنصلين . غير ان هذا المنصب لم يبق له من امتياز سوى تنظيم الالعاب العامة . ولما كان الامبراطور يفتق عن

« القناصل » ، بما لهذا التعبير من مفهوم قديم ، فلم يقدم الا نادراً على تعيين القناصل القضاة . فازدادت من ثم قيمة اللقب الشرفية ازدياداً كبيراً ، واحيط باهية عظيمة . ونحن لا نعرف ، الى جانب الاباطرة ، سوى حالة واحدة حصل فيها قنصل قديم على قنصلية ثانية في القرن الرابع ، هي حالة قائد فرنجي .

لم يدم عملياً ، بين المناصب الأخرى ، سوى وزارتي المالية والعدلية . وهما قد نظمتا في القسطنطينية ايضاً . وكانت وزارة العدلية بنوع خاص كثيرة النفقات بسبب الالعب التي تقع اكلافها على كاهل شاغلي هذه الوزارة . فانتهاوا الى تعيين هؤلاء قبل موعد الاستلام بعشر سنوات : حين عين ابن سيمناكوس وزيراً للعدلية ، اقيمت الالعاب استمرت سبعة ايام واستازمت نفقات باهظة ، مع ان البنخ فيها كان عادياً - انفق آخرون ضعف ما انفق عليها ، اي ما يزيد عن اربعة ملايين فرنك ذهباً بسعر الفرنك في السنة ١٩١٤ - غير ان الوقت قد توفر لسيمناكوس حتى يطلب من اصدقائه الحيوانات المفترسة والألاهي . اما بالمقابلة فالصلاحيات شبه لاغية لا تتعدى واجب القيام ببعض الاعمال القانونية . فنحن اذن امام « تسخير » حقيقي ، ولن تلبث التعيينات ان تصبح من نصيب الذين يضبطون حسابات ثرواتهم لاجل الضريبة الخاصة المتوجبة على اعضاء الطبقة المجلسية . ولكن هؤلاء القضاة ، على نقيض ممثلي الوحدات العائلية في المدن العادية ، لا يكسفون وجوههم لانهم قادرون على تحمل ضخامة مثل هذه النفقات .

ان الشخصية الاولى ، في العاصمتين ، هي « حاكم المدينة » الذي احدثت وظيفته في روما في العهد الامبراطوري الاول ، وفي القسطنطينية في أواسط القرن الرابع . فهو يمثل الامبراطور الذي يعينه ، وكثيراً ما يستبدله . يرئس مجلس الشيوخ ويفصل في دعاوى المدينة والملحقات المحددة في روما بنطاق المائة ميل التقليدي . يسهر على النظام والتموين متغلباً بذلك على حكام الامن والضريبة العينية السنوية . فيكسبه كل ذلك سلطة حقيقية لا سببها في روما التي لا يقيم فيها الامبراطور : ويختاره هذا الاخير ، بالتالي ، في صفوف الارستوقراطية الوثنية ، كسيمناكوس مثلاً ، حين يكون ساعياً وراء اظهار رغبته في تحقيق الوثائم .

يتضح لنا ان حياة العاصمتين ، بفعل التوزيع المجاني على الشعب وسخاء الاغنياء ، أعظم بهاء منها في المدن الاقليمية . ولكنها ، على الرغم من الرواسب ومظاهر المراعاة المعدة للحفاظ على نفوذها ، لا تتمتعان ، بالنسبة لها ، بمزيد من الاستقلال الحقيقي . ومهما يكن من الامر ، فان التقليد يرغب في ان تسهم اجهزتها المحلية ، وهي وريثة أسماء مجيدة ، في شؤون الدولة : ولكن هذا الموضوع اقل وروداً آنذاك منه في الماضي .

٣ - الحكومة المركزية والامبراطور

أنيطت شؤون الدولة هذه ، بالاضافة الى رقابة الادارة والدفع بها الى الامام ، بالامبراطور دون سواه .

الدولة والنظام الشخصي اقتضى لمثل هذه الدولة ، التي ترى توسع أعمالها وتعتمد ، بغية تنفيذها تنفيذاً أفضل ، أساليب مركزية ضيقة ، تنظيم حكومي قوي . لم يخل العهد الامبراطوري الثاني من هذا التنظيم . لا بل بلغت النظر انه توصل ، على الرغم من قصره ، الى تحقيق تنظيم يمثل هذه القوة ، ويمثل هذا الاستقرار نسبياً ، أقله بصدد المصالح ، ان لم يكن بصدد الرجال . وقد توصل ، في بعض المواضيع ، الى التمييز بين مفهوم الدولة ومفهوم الامبراطور .

بيد ان مفهوم الامبراطور ما زال يسيطر على مفهوم الدولة ، ويلاشيه ملاحظة في أكثر الاحيان . ولكن هذه الظاهرة ليست نتيجة الطابع البدائي الذي تتسم به دولة في طور التكون ، كما حدث في العهد الامبراطوري الاول ، بقدر ما هي نتيجة السلطة المطلقة التي تقسح مكاناً كبيراً لاهواء الامبراطور الشخصية وللتأثيرات الخاصة التي قد يخضع لها . وكان تجنّبها يستلزم ملكة عقلية ووضوحاً منطقياً يسيّرهما نهج فكري ساد في عهد الانطونيين ، ولكنه أهمل بعد ذلك . ومتى ميزت الدول العصرية بين هذين المفهومين يا ترى ؟

قامت ، في ما يعيننا ، مصاعب أخرى أيضاً : تعدد الاباطرة أولاً ، وتبدل عددهم ثانياً وخصوصاً . فقد وجب لكل منهم حكومته ودوائره المركزية المحدثة تقسيماً او دمجاً بحسب التقلبات السياسية . ولحسن الطالع ، انتهى هذا التعدد في أغلب الاحيان الى نظام ثنائي قسمت الامبراطورية بموجبيه الى شرق وغرب . ومها يكن من الأمر فان هذا النظام هو الذي وطده وجود ابني ثيودوسيوس في اوائل القرن الخامس ، واذا ما زالت حكومة الغرب بعد ذلك ، فان حكومة الشرق قد استمرت في الامبراطورية البيزنطية .

ان للتقدم الذي احرز في مثل هذه الظروف أهمية يزيد من شأنها ان النزعة التي الكونتية يعكسها لقب الـ *Comes* ، أي « الرقيق » ، الذي اشتقت منه كلمة « كونت » ، كانت قادرة على إيقافه نهائياً .

لم تجهل الامبراطورية الاولى هذا اللقب الذي عرف باسم « الصديق » آنذاك ، ولكنه لم يفض قط الى ما يشبه الرتب البلاطية في الملكيات الهلينية . أعاده قسطنطين ، بعد فترة زوال ، بمنحه موظفين او كلت اليهم في البداية مهام خاصة تحل بالنظام السائد . ولكنه لن يلبث ان يفرط في توزيعه ، فيحتدي حدوده خلفاؤه . وعلى الرغم من ان اللقب ، في بعض الحالات ، — سبق وأشرنا الى كونت الشرق — لا يتميز عن اسم الوظيفة الرسمي ، فانه قد أصبح سمية تزيينية قبل كل شيء آخر استلزم احداث ثلاث درجات اطلق عليها اسم « الرتب » .

ان الكونت ، نظرياً ، لا يخدم الدولة بل الامبراطور الذي تربطه به صلة شخصية قوامها المودة والشكران والاعجاب ؛ كما ان مجموع الكونتية يؤلفون « معيته » نظرياً ويرافقونه في تنقلاته . ولكن ليس لهذه النظريات من نتيجة عملية : كانت هذه المثل ، منذ أمد بعيد ، اساس التنظيم الحربي عند البرابرة الجرمانيين . وليس ما يمنع الاعتقاد بتأثير هؤلاء على قسطنطين .

ومن المحتمل جداً أيضاً ان تكون هذه المثل حينئذ الى العادات والاعراف الهلينية والرومانية على السواء : فما زالت الملكية الامبراطورية ، في جوهرها ، ملكية شخصية مبنية على مفهوم الانسان المتفوق . ويغلب على الظن ان ما اوجب الاخذ بها ، في البدء ، هو واجب حل بعض الصعوبات حلاً سريعاً . ثم فقدت جدواها ، في التطبيق العملي ، بفعل حتمية صيرورة الالقاب البلاطية الى الابتذال والحاجة الى المحافظة على الآلة الادارية العادية . ومهما يكن من الأمر ، فان « معية » قسطنطين وخلفائه ليست مسؤولة قط عن انقسام الدولة في القرن الخامس ، وانما اقتصر الـ « معية » التي كانت لها الغلبة بعد ذلك ، والتي كانت ابعد تأصلاً جرمانياً ، على استخدام مفرداتها .

بعد اجهاض هذا الخطر ، قامت على رأس الدولة ، بغية ممارسة أهم صلاحياتها ،
 اجهزة وظائف ثابتة . واذا ما كان بعضها ، من هذا القبيل ، موروثاً عن
 العهد الامبراطوري الاول ، فان التقدم في الطريق التي شقها هذا الاخير ،
 واقع راهن .

يطلق على « مجلس الامير » القديم ، بفعل متطلبات آداب المجتمع ، اسم « الموقف » (المجمع)
 اذ ان اعضاءه يشتركون فيه وقوفاً . تعود رئاسته ، في غياب الامبراطور ، الى « وزير مالية
 القصر » . يدرس شتى الشؤون ، ويشترك كبار رؤساء المصالح في جلساته . وللموقف ، بالاضافة
 الى ذلك ، امناء سره الذين يؤمنون استمرار اعماله بواسطة الاختزال .

اما اولئك الذي يمكن تسميتهم بالوزراء فلا يزالون قليلي العدد جداً . فهناك « رئيس امناء
 السر » الذي يضبط يومياً جدول الموظفين والرؤساء العسكريين ويمارس بالتالي وظيفة على
 بعض الاهمية . ويدير الخزانة ، بحسب مصدر الواردات ، « كونت الاعطيات المقدسة »
 و « كونت الاملاك الخاصة » . ويرئس دوائر المستشارية « سيد الدوائر » الذي تتعاظم اهميته
 باستمرار ، كما يبدو ، ولعل السبب في ذلك انه رئيس « موظفي الشؤون » ايضاً ، الذين يمارسون ،
 بفعل انتشارهم في كل مكان ، عملاً اهماً لا يختلف عن الجاسوسية احياناً . ويجدر بنا ايضاً ان
 نضيف الى هذه القائمة قائد حرس القصر المعين على رأس الادارة الاقليمية .

تجدر الاشارة هنا الى ان الحكومة المركزية خلو من وظيفة وزير اول . وربما كان « وزير
 مالية القصر » مؤهلاً قبل غيره لشغل هذا المركز . وربما اسندت الوظيفة الى رجال لم يعرفوا كيف
 يستثمرون طاقاتها : ومهما يكن من الأمر فقد فقدت اهميتها . ولكن السبب الرئيسي ، في الارجح ،
 هو ان اباطرة القرن الرابع كانوا حذرين فقسما السلطة بين مساعديهم حفاظاً على سلطتهم الخاصة .
 ولنشر مرة اخرى هنا الى فصل الوظائف العسكرية عن الوظائف المدنية : « فسيد الدوائر » هو من
 يرئس الجنود البرابرة في الحرس الشخصي ، ولكن « للحامين » رئيساً خاصاً هو « كونت المنزلين » ،
 كما ان « اسياد الجنود » يرئسون الجيوش ، حتى تلك المقيمة في جوار المقر الامبراطوري . فقد
 فرضت امثلة العديد من الاختبارات المؤسفة اللجوء الى التبصر والحكمة . ولن يحدث الا بعد

وفاة ثيودوسيوس ان يبرز اشخاص يصبحون اسياء الحكومة الحقيقيين، على الرغم من تعرضهم الدائم لفقدان اللحظة بصورة مسرحية مفاجئة : القائد ستيليكون في الغرب ، وقائد الحرس روفينوس واقثروبوس مدير غرفة الامبراطور في الشرق ، الذين سيرز بعدهم كثيرون سواهم . بيد ان تنوع الوظائف الرسمية التي يشغلونها يبين ان لاصلة عضوية بين اية وظيفة منها وسلطتهم . فهم لا يدينون بهذه السلطة الالعطف . الامبراطور الشخصي ولعدد الزين ، وحتى للقرابات اللامعة التي اتاح لهم هذا العطف تكوينها : تزوج ستيليكون من ابنة عم الامبراطور في السنة نفسها التي ولد فيها هذا الأخير ، فعين وصياً عليه ثم زوجه ابنتيه على التوالي . ولكن الملكية ، حتى في زمن اباطرة ضعفاء من امثال اركاديوس وهونوريوس ، لم تسمح بقيام وظيفة قد تعطي صلاحياتها الرسمية دور تنسيقي ، وبالتالي دور ادارة حقيقية لمن تسند اليه .

كان للامبراطور مفضلوه المقربون : وهل خلا منهم اي حكم مطلق ؟

دسائس البلاط

قام هنالك بلاط اقل فجوراً منه في العهد الامبراطوري الأول - ومرد ذلك الى ان النصرانية ، بعد ارتداد قسطنطين ، قد تركت اثرأ قوياً في الاخلاق - ولكنه ليس دونه بطانة أو حقلأ خصباً للدسائس . وقد يحدث فيه ان تتدخل النساء في السياسة . ولكن ذلك لم يبلغ قط ما بلغه في بلاط سلالة ساويروس حيث تذكرنا الاميرات السوريات جوليا دومنا امرأة سبتيموس ساويروس ووالدة كركلا وشقيقتها جوليا ميذا ، وابنتا هذه الأخيرة جوليا سوامياس وجوليا ماميا ، والدتا ايلغابال وساويروس اسكندر ، بطموحن وعزمهن اللذين لا يقفان عند حد ، باكثر الملكات السلوقيات او اللاجيات افتاناً وتهيجاً . ومع ذلك فاذا كان من الطبيعي ان تتوارى النساء في فوضى القرن الثالث ، فانهن قد ظهرن مجدداً في القرن الرابع . فقد ادمت بعض المآسي البلاطية ملك قسطنطين الذي اعز بقتل ابنه كريسبوس بتحريض من امرأته الثانية فوستا التي ما لبثت ان اعدمت الحياة بعد اشهر معدودة . وافاد جوليانوس افادة جلي من عطف الامبراطورة افسافيا عليه لدى كونستانس الثاني . وجعل موت فالنتينيانوس الاول من ارملة جوستينا ولية العهد ، واسرع ثيودوسيوس في ترفيع ستيليكون بعد ان وافق على زواج ابنة شقيقه منه . ويمكننا الاستشهاد بمزيد من الامثلة التي يوفرها لنا خلفاء ثيودوسيوس .

كان للرجال ايضاً تأثيراتهم ولم تكن دون تأثيرات النساء طابعاً شخصياً . فان « للقصر المقدس » ، بالضرورة ، مصالحه التي يحتل رؤساؤها مركزهم في تسلسل الموظفين . وقد وفرت احدى هذه المصالح بنوع خاص ، « الغرفة المقدسة » ، لمن ينتمي اليها ، تقرباً شخصياً وحميماً من الامبراطور . فطلى نقيض كافة المصالح الاخرى التي أقفلت في وجه العبيد او المعتقين ، إلا في بعض المراتب الدنيا ، ما زالت هذه المصلحة مخصصة بهم تقريباً : لابل كان بينهم شرقيون كثيرون ، وخصيان كثيرون ايضاً بحسب عادة يفسرها منشأهم . وعلى الرغم من هذا الذل ، وربما بسببه ، فقد حدث احياناً ان توصل بعضهم الى التأثير على الامبراطور نفسه . اجل قامت

سوابق مماثلة في عهد سلالة كلوديووس، ولكنها سوابق غير مشينة. اما الآن فاننا نشاهد خصياناً « يتولون شؤون الغرفة المقدسة » ، أي مدراء غرفة كباراً يسند اليهم القيام بالمهام الدقيقة وبالدرجات التفثيشية وبأكثر من ذلك . تلك حال افسيفيوس الذي أوحى بأكثر من قرار من قرارات كونستانس الثاني ، ثم اعدم في اوائل ملك جوليانوس . وتلك خصوصاً حال اقتروبيوس الذي كان متقدماً في السن حين دخل في خدمة ثيودوسيوس وتوصل بسرعة الى احدى الوظائف العليا ، فتركه ثيودوسيوس لابنه الذي كلفه بعد ذلك القيام بحملة عسكرية ورفعته الى رتبة القنصلية .

نعتقد بأن هذه الأمثلة كافية للتكهن بما عزم به بلاط القرن الرابع من دسائس وبما سيكون من امره في القرن الخامس حين ينقطع الامبراطور عن العيش مع الجيش حيث كان ينجو من بعض هذه التأثيرات . واذا ما انجز في القصر عمل حكومي واداري جدي ، فقد حيكبت فيه ايضاً مؤامرات مظلمة تفرز منها النفس احياناً ، ناهيك عن الرشايات والحيانات وما تجرّ اليه من تحاسد وما تثيره من تنافس حاد بين موظفين يساندهم اقرباؤهم او زبائنهم .

كان كل هذا ثمن الحكم المطلق . بيد ان الامبراطور لم يتمتع يوماً ، في الواقع ،
بمثل هذا الحكم .

الامبراطور :
الرئيس العسكري

فهو لا يزال رئيس الجيش ومختاره . وقد سبق وألحنا اعلاه الى حقيقة اعتراف مجلس الشيوخ به ؛ اما اتصالات الشعب الوحيدة به فلا تجري ، كما هي الحال منذ امد بعيد ، إلا في الملعب أثناء الالعاب . بيد ان الأمر على خلاف ذلك مع الجنود . فالحدث الرئيسي ، الفعلي والنظري معاً ، الذي يرافق جلوس امبراطور جديد على العرش هو تقديمه الى فرق مختارة تنادي به اميراطوراً ؛ ثم يلي الاحتفال اعلان توزيع الهبات . هذه هي الحال حين يجري كل شيء في ظل النظام ، فإذا نقول اذن عن الاغتصابات ؟ ان خير ما نعرفه عنها في أصوله الاجرائية هو ذلك الذي استفاد منه جوليانوس في لوتيسيا في اوائل السنة ٣٦٠ . فحين خضع للتمرد ، الذي اعدته الاركان خير اعداد على كل حال ، رفع على ترس احد المشاة ووضع على رأسه ، عوضاً عن التاج ، عقدٌ احد حملة الاعلام الكلتيين . وعد حينذاك بتوزيع الذهب والفضة (ما يعادل ١٤٠ فرنكاً بسعر السنة ١٩١٤ لكل جندي) . وفي اليوم التالي ألقى خطبة في ميدان مارس فصق له الجنود وأعربوا عن استحسانهم بضرب تروسهم بالرمح . ظهرت للمرة الاولى في هذه المشاهد طقوس بربرية ، أهمها اعتلاء الترس الكبير ، تدل على التطور الذي طرأ على التجنيد ، ولن تستقر إلا في عهد لاحق على الأرجح . وبقي اخيراً دور الجيش كجيش ، الذي يتفق وأعرق تقاليد النظام : والجدّة الوحيدة هي ان الجيش قد غدا وحده منذئذ صاحب الحق في منح السلطة .

ان هذا الطابع العسكري لا يزول يجولس الامبراطور على العرش . فالوظائف الذين يعتبرون جميعهم ممثلين للامبراطور او معاونين له يعتبرون جميعهم جنوداً ايضاً . بزتهم تستلزم النجاد . والنجاد يدخل كذلك في بزة الامبراطور الاعتيادية مع المعطف الارجواني الذي يرتديه الرئيس

الحربي . واذا ما ندر الاحتفال بواكب المنتصرين ، فان فكرة النصر تدخل في الاحتفالات التي حلت عملياً محل هذه المواكب في اعياد الجلوس التي تقام برونق خاص كل عشر سنوات : فكان هنالك الذكرى العشرية الاولى والذكرى العشرية الثانية ، وحتى الذكرى العشرية الثالثة لجلوس قسطنطين . واستمرت هذه الفكرة . في النعوت التي ما زالت تضاف الى الالقاب الامبراطورية .

بمثل الاله إلا ان الجيش ، الذي هو القوة فحسب ، لا يستطيع ان يعطي السلطة إلا مرتكراً
أدبياً خشناً اذا ما اكتفي به . وقد ساد الاعتقاد ، تصريحاً او تلميحاً ، بأن الجنود ، الذين لا ينتخبون باختيارهم ، يكتفون بأن يعترفوا وينادوا بذلك الذي أمناه ثيمستوس « الكائن الساهوي » و « رسول السماء » . وسين كان الجيش الجمهوري ينادي بقائه امبراطوراً بعد النصر ، كان يجيبي فيه حبيب الاله . وكان للامبراطور منذ القدم ارتباطات خاصة بهذا الإله . ولكن طابع الملكية الدينية ومظهر الامبراطور الالهي قد برزا بقوة منذ الامبراطورية الاولى التي حرصت على ألا تنقل الى روما مثالية الملكيات الهلينية كاملة .

برزت قوة هذه النزعة منذ اواخر القرن الثاني بنوع خاص حين احرزت التأثيرات الشرقية غلبة حاسمة . ولم يبلغ النظام يوماً ، في سلوكه هذه الطريق ، ما بلغه قبيل جلوس ديوكليسيانوس . ولنهمل هنا تجاوزات ايلغاغال التي ليست سوى حدث عابر . ولكننا نلاحظ ، طيلة القرن الثاني ، التقدم المستمر في العلاقة بين فكرة « الاله الشمس » ، سيد الكون ، وفكرة الامبراطور بمثله على الارض ، بل أقنومه البشري . لقد رغب بعض الاباطرة في السابق بأن يمثلوا على قطع النقود حاملين تاجاً مشعاً يرمز الى الشمس : اما الآن فيظهر هذا التاج على رأس كافة الاباطرة . وقد بلغ هذا التطور ذروته في عهد اوريليانوس . فقد درجت منذ سلالة ساويروس عادة غير رسمية تقضي باطلاق لقب « الاله » على الامبراطور . اما اوريليانوس فقد أرفق اسمه ، على النقود ، بالصيغة الرسمية « المولود إلهاً وسيداً » : ويستلزم هذا التحديد عبادة شخصية تؤدي فروضها للامبراطور وهو على قيد الحياة .

لا مراء في ان ديوكليسيانوس قد خطا خطوة الى الوراء . بيد ان الحل الذي اعتمده أبعد تقدماً من ذلك الذي اعتمده اباطرة القرنين الاولين . اقتصر هؤلاء على اعتبار أنفسهم أبناء سلفهم « الالهي » . اما ديوكليسيانوس فقد أطلق على نفسه اسم « جوفوس » وأطلقه على قيصره ، بينا اختار الامبراطور والقيصر الآخران اسم هرقلوس . ومعنى هذين الاسمين « ابن جوبيتر » و « ابن هرقل » ، أي ابنا إلهين هما أوسع آلهة الزون الروماني شهرة آنذاك ، الاول كسيد العالم والثاني نظراً لوضع قوته في خدمة سعادة البشر . تسلم أبناء هؤلاء الآلهة النعمة الالهية من آباؤهم . فكانوا وسطاء بين الآلهة والبشر يحظون بالهام وعضد اولئك ، بينا يقدم لهم هؤلاء الطاعة والاحترام الديني دون ان يستلزم ذلك العبادة بالذات .

قد نجد احياناً ، حتى ابان الاضطرابات التي عقبها اعتزال ديوكليسيانوس الحكم ، استمرار عرف اعتماد هذه الالقاب الرسمية في كلا السلالتين . وعلى كل حال فان مفهوم الطابع الالهي في

الاباطرة قد امتد حتى ظفر الامبراطور المسيحي قسطنطين . على ان هذا الظفر لا يكون ثورة من هذا القبيل . فقد سلمت النصرانية على الدوام ، كما قال القديس بولس ، بأن « لا سلطان إلا من الله » ، ولا يعقل ان يسمح قسطنطين بزوال الاساس النظري لسلطته في نظر الوثنيين من رعاياه . ولا يلزم لذلك سوى حدّ أدنى من التوفيق بين الاتجاهين ، أي إلغاء الابوة الالهية ، وأسمي جوبتير وهرقل دون ابدالهما بأي اسم آخر : وقد درجت الوثنية نفسها ، منذ زمن بعيد ، على الكلام عن « الالوهة » و « الإله » بمعناها الواسع . فجوهر الفكرة من ثم لا يزال باقياً لخير الجميع : الله يختار الامبراطور نائباً عنه ؛ يده تمد له الصولجان ؛ يقويه ويلهمه .

الحقوق والواجبات يستتبع ذلك واجبات على الامبراطور لا يجد الوثنيون من امثال ثيمستوس وسينيزيوس - الذي لم يكن بعد أسقفاً على بتوليايس في كيرينا حين وجه الى اركادوس ، في السنة ٣٩٩ ، خطابه « حول الملكية » - او المسيحيون من امثال افسيفيوس أسقف قيصرية ، صعوبة في الاتفاق عليها . ولا تختلف هذه الواجبات ، في الواقع ، عن تلك التي حدّدها أكثر الفلاسفة منذ اواخر القرن الرابع قبل المسيح . وقد انطوت عليها كلها تقريباً مثالية الملكية الهلينية نفسها ، كما انها لم تكن بعيدة عن مثالية الامبراطورية الاولى . غير ان الامراطورية الثانية تتكلم عنها بمزيد من التشديد وتضفي عليها طابعاً يتسم بمزيد من الصوفية . لن يتميز الملك عن المستبد اذا هو بنى سلطته على الخوف لا على المحبة ؛ واذا هو لم يمارس كل الفضائل ، لا سيما العدل ومحبة البشر ؛ واذا هو لم يقدم لزعاياه مثل الخير بغية ارشادهم وتخليصهم ؛ واذا هو لم يقتد بالاله ، « مثاله الاول » بالنسج في بناء الدولة وادارتها على منوال المدينة السماوية . عرف الاباطرة جميعهم هذه الواجبات ؛ وقد سمح كثير منهم للخطباء بتوضيحها وتفسيرها امامهم بلهجة تعليمية لا تخلو احياناً من درس ضمني على الاقل ، دون ان تنقلب يوماً الى انتقاد صريح . فقد قال سينيزيوس لاركادوس : « اما انت فعليك ان لا تسقط من المرتبة التي عينت لك ، وان لا تحط من لقب الملك الذي تحمله على غرار الله ، وان تتقيد ، على نقبض ذلك ، بهذه القدوة ، وان تغمر المدن باحسانات لا تحصى ، وان توفر كل سعادة ممكنة لكل من رعاياك » . وليس من امبراطور ، على كل حال ، يعترض على تبني هذه الافكار . فان بياناتهم الرسمية وبراءاتهم تستوحى باستمرار هذه الفضائل التي يعرفون ان من واجبهم التحلي بها . فلنكتف ، بين نصوص كثيرة مماثلة أخرى ، بأن نقرأ هذا المقطع من مقدمة براءة ديوكليسيانوس حول الحدّ الاعلى : « فالينا نحن الساهرين ، نحن آباء الجنس البشري ، يعود واجب احقاق الحق حتى تجد الانسانية ، التي لم يحالفها الحظ في الدفاع عن نفسها ، انفرجاً يؤول الى الخير العام ، بفعال تدابيرنا الاحترافية » . وان في التشريع ، الذي يتميز ، في القرن الرابع ، بالقسوة في مكافحة الزنى والخطف ، لتعبيراً عن تصميم المسؤولين على الزام الرعايا بالتقيد بالانظمة الاخلاقية . بيد ان هذا المفهوم يمنح الامبراطور سلطات غير محدودة ايضاً . عرف الملك ، في العهد الهليني ، بأنه « الشريعة الحية » ، فرجع اليه غالباً آنذاك ، وهو يقبل تفسيرين : اما الانسان الذي

يعطي الشريعة حقيقتها الحية بفرض التقيد بها ، واما الانسان الذي تكون ارادته الحية الشريعة بالذات . ويتجنب كثيرون توضيح فكرهم ويحتمون وراء تأكيدات مطمئنة ، فقد قال ثيمستوس : « الملك هو شريعة حية ، شريعة الهية آتية من العلاء ، هبة زمنية من الكرم الازلي ، انبثاق من طبيعته ، ... لا بد له ان يتجه اليها وينزع الى الاقتداء بها » . ولكن ثيمستوس هذا نفسه لا يتردد في مكان آخر في ان يقول للامبراطور : « انت الشريعة الحية ، ودونك الشرائع الكتابية » . غير انه لا يلبث ان يضيف بان واجبه يقضي عليه ، والحالة هذه ، بتفسير الشرائع وتخفيف صرامتها .

مها يكن من الأمر ، فمن ذا الذي يستطيع الحكم في استعمال الامبراطور لحقوقه وفي طريقة قيامه بواجباته ؟ فليس سوى القديس امبروسوس ، الذي يهول امام المؤمن بالسلاح الروحي الذي تعطيه اياه الاسقفية ، من يستطيع حمل ثيودوسيوس على الاعتراف بخطيئته . ولذلك فالامبراطور عملياً هو « الشريعة الحية » بكل ما لهذا التعبير من معنى .

ينعكس كل ذلك في اصول الاحتفالات . ابقى الاباطرة المسيحيون على الكثير العادات الجارية في الاحتفالات مما خلفته لهم الوثنية . حملوا حتى ثيودوسيوس لقب الحبر الاعظم الذي تخلى عنه غراتيانوس في السنوات الاخيرة من ملكه . وفي الولايات استمر الاحتفال بالعبادة الامبراطورية باستثناء تقديم الذبائح فقط . وما زالت طقوس التأليه تراقف الجنائز الامبراطورية في القرن الرابع ، كما ان النصوص الرسمية ما زالت تلقب كل امبراطور ميت بـ « الالهي » . اضيفت الى ذلك عناصر اخرى خالية من اي طابع مسيحي أو وثني يميز كالمها الى سلطة الملك النظرية واشترাকে في طاقات لا تتوفر للبشرية العادية . وانه لمن الصعب ، في الحقيقة ، توقيت ظهور كل منها وتحديد أصلها وتفسيرها الحقيقيين . فالوراثة الهلينية واضحة في كثير منها . ولكن ما هي السوابق المتفرقة التي قدمتها الامبراطورية الأولى ؟ وما هي العناصر المنتقلة من التقليد المستمر في الشرق ، داخل حدود الامبراطورية ، الذي ازداد رسوخاً آنذاك بفعل الغليان الشرقي ؟ وما هي اخيراً نسبة استيحاء مثل الملكية الساسانية التي انتقل اليها ايضاً بعض الارث الهليني وقسم كبير مباشر من الارث الايراني ؟ تبدو بعض المصادر المعادية لديوكليسيانوس ميالة الى المغالاة في الكلام عن ابتكاراته وتقليده للاعداد . اما نحن فيكفينا ، دون الدخول في هذه المجادلات ، ملاحظة اتجاه ملموس نحو غاية واحدة .

حلت الكلمة (« سيدنا ») ، اخيراً ، في اعلى لائحة الالقاب الامبراطورية ، محل اللقبين التقليديين (« الامبراطور القيصر ») . وكان كل ما يعود للامبراطور « مقدساً » : قصره ، غرفته ، مجمه ، صوانه ، الخ . يحمل التاج ، رأسه يحاط بالهالة في صورته . تمارس « العبادة » امامه بالسجود وبتقبيل اسفل معطفه . يسك الكرة بيده رمزاً للقوة الكونية .

اخذت اصول آداب المعاشرة تنظم حياته . غير انها لم تحرمه اللذات الشاقة . فهو يتعاطى الفنص حتى ولو انقطع عن التوجه الى الجيش . وتعد المآدب في البلاط حيث تؤدي معاقره

المحرة الى المشاجرات . ولعل وجود القادة البرابرة قد ساعد على استمرار هذه الاذواق الخشنة . ولكن الابهة تتجلى في ايام الاحتفالات باحمرار الارجوان ، ولعان الذهب والميناء ، واشعاع عرق اللؤلؤ والحجارة الكريمة والجواهر ، بما وصفه سينيذوس ، في السنة ٣٩٩ ، بـ « سطوع الوان متقلب شبيه بسطوع الوان الطواويس » ، يأتون من بعيد بالرمل الحاوي الذهب ويندرونه على طريقه ، من رأسه حتى قدميه - اذ ان الحجارة الكريمة تثبت في وشاح التاج والالبسة والنجاد والاحذية نفسها - يحمل الامبراطور بيتاً ثقيلاً وزاهياً يحمده على العرش الذي يستقر فيه وراء طنفسة تراح في البرهة الأخيرة ، بينما يراقب « الصامتون » القاعة . واذا وصف يوحنا الذهبي الفم ، حتى في السنة ٣٩٩ ، في كلامه عن الامبراطور حين يخرج الى المدينة ، « الجنود المجللين بالذهب ، والزوامل البيضاء المزينة بشتى انواع الزينة الثمينة ، والعربات المنزلة بالحجارة الكريمة مع اغطيتها الناصعة البياض وصفائنها المعدنية المترجحة ، والتنانين المطرزة على الملابس الحريرية ، والتروس المزدانة بالسرر الذهبية ، والحجارة الكريمة المنثورة على الخنازل .. » والاحصنة المتوشحة بالذهب مع حكاياتها المذهبة ، « فانه يسارع الى القول ان زينة الامبراطور الفاتنة تفوق بذخ الموكب .

ان مدينة بيزنطية القديمة أصبحت القسطنطينية . ولكن الابهات البلاطية في بيزنطية القرون الوسطى انتقلت ، منذ ذاك الحين ، الى روما الجديدة .

سبق ورأينا ان دسائس البلاط وحظوة المقربين غير المستقرة قد لازمت هذه الحكم المطلق الابهات بالضرورة . ويصح القول نفسه في الحكم المطلق الذي أوحى بهذه الابهات دون ان يفيد منها افادة تذكر .

لنعد اليه في آخر هذا الفصل الذي دار كله حوله . بديهي ان قانون الجلالة القديم لا يزال يحمي العرش وتسهر على تطبيقه محاكم عادية او خاصة برعت الشرطة في تمييزها بالدعاوى مع ما يرافقها من اعمال تعذيب ماهر في الاستجواب وتنفيذ الاحكام . فقد زال مفهوم « المواطن » منذ زمن بعيد ، عملياً . اما الآن فالتعبير نفسه يتلاشى امام التعبير « رعايا » وتبرز في اللغة اليونانية كلمة *Douloi* « العبيد » . والحقيقة هي ان سلطة الدولة ، التي يجسدها الامبراطور ، تلجأ الى الاقتسارات الكثيرة : فهو يتولى ، كما رأينا ، فرض معتقداته على غيره ، ويدعي ، كما سنرى ، بحق فرض العمل والمنزلة الاجتماعية على الغير .

التجديدات الاقتصادية والاجتماعية

تتسم الحياة الاقتصادية والاجتماعية في العهد الامبراطوري الثاني بثلاثة طوابق رئيسية . هنالك في الدرجة الاولى تدخل الدولة . فالدولة لم تتمش على مذهب جديد اخذت على نفسها تطبيقه ونشره ، بل نزع ، بتأثير أرسخ المفاهيم قديماً ، وعلى غرار كافة الدول ، الى اعتبار حقها النظري في التدخل في هذه الحقول غير محدود تقريباً . ولكنها شأن النظام السابق أبعد من ان تفكر باستخدام هذا الحق استخداماً تلقائياً . اما التشريع الذي توحى به لها ، خدمة للضعفاء ، آراء الفلاسفة حول محبة البشر والتعاليم الاخلاقية المسيحية ، فلم يؤمر تأثيراً حقيقياً في التطور العام . فالى أية نتيجة كان من الممكن ، في الظروف العادية ، ان يؤدي التيار الذي يعبر عنه هذا التشريع ؟ ليس باستطاعة احد ان يجيب على هذا السؤال . والحقيقة الثابتة هي انه اصطدم منذ القرن الثالث بمجاجات مباشرة اعتبرتها السلطة السياسية اعظم إلحاحاً . وهذه الحاجات هي بالضبط ما أدركته السلطة . فطبقت في معالجتها حلولاً بدت لها غاية في البساطة - وهي غاية في البساطة فعلاً - ، ولكن هذه الحلول ، المعتمدة في البدء كحيل فقط ، كان نصيبها الاستمرار والشمول ، اذ ان شنشنة ونهجاً قد تكوناً ، هما شنشنة ونهج التدخل المستبد اللذان كان الخضوع لها امراً محتوماً : ان بعض الآلات الملتشابهة ، اذا ما اخضعت للحركة ، لا تتوقف بل تلتقف الجسم بكليته .

وهناك رسوخ الحضارة بين الأغنياء والفقراء وبين المقتدرين والضعفاء ، ليس على الصعيد الاقتصادي فقط ، بل على الصعيد الاجتماعي والقانوني ايضاً . وان في ذلك لعمرى مغالطة بل مغالطات . فواجب الدولة ، وفاقاً للمثالية المسيطرة ، يقضي عليها بحماية الضعفاء . وتقضي مصلحتها والمخطط العام لسياستها المستبدة بالحوول دون تعاضل قوة الأقوياء القادرين أكثر من غيرهم على الوقوف في وجهها . ولعل مهمتها السلبية اخيراً تجد تسهيلات نادرة في اضمحلال القسم الأكبر من النخبة الاجتماعية القديمة الذي تحقق في القرن الثالث . ولكن شيئاً من كل ذلك لم يحدث . فقد برزت ارسوقراطية جديدة كان قوامها ، حتى ولو حملت أسماء اعرق العائلات ، حفدة جامعي الثروات اiban الاضطرابات ، ولاسيما حفدة كبار الموظفين الذين جمعوا بفضل العطف

الامبراطوري ممتلكات عظيمة جداً في غالب الاحيان . وقد بلغت في الواقع من القوة ما أرغم الدولة على ان تحسب لها حساباً . فلم تقدم على التدخل ضد تجاوزاتها إلا نادراً وبدون جدوى . لا بل انها كثيراً ما شجعت التطور لا سيما بصدد العلاقات بين الملاك الكبير والعاملين في اراضيه . فكانت النتيجة محاولة المقتدرين التوسط بينها وبين الطبقات الدنيا .

اما الطابع الاخير فهو تنظيم مجتمع خاص ، أعنى به الكنيسة ، داخل الجسم الاجتماعي . كان للكنيسة ممتلكاتها وتنظيمها وتعاليمها الاخلاقية . فشكلت بفضل هذا الاستقلال قوة يزيد في عظمتها ان الدولة لم تقدم جدياً ، لأسباب مختلفة ، كجهد الحظر او تقوى المسؤولين مثلاً ، على الحد من انتشارها .

فماذا كانت النتيجة ؟ صحيح ان تسلط السلطة السياسية على الحياة الاقتصادية وعلى التنظيم الاجتماعي لم يواجه بعد مقاومة جديده . ولكن بعض القوى اخذت تتكون وتسمي مستمدة لأن تخلف الدولة حين تضعف سلطتها .

١ - تكييف الاقتصاد

لم تتوفر للنشاط الاقتصادي السهولة التي توفرت له في العهد الامبراطوري الاول ، ولكنه في القرن الرابع لا يقتصر على الاشكال البدائية . قد يلقي الصعوبات بعد ان فقد حريته السابقة ، ولكنه يلبس لكل حال لبوسها ويبلغ توازناً معيناً ، بل درجة معينة من الازدهار .

تترامى لنا هذه التسوية اذا ما القينا نظرة على الوضع النقدي الذي هو ميزان الوضع الاقتصادي والذي تركت تقلباته اكثر الآثار المموسة ، على ما يكتنفها من غموض . افضى اختلال الأموال العامة ، في القرن الثالث ، الى هبوط النقد . فكان توطيد سلامة النقد شرطاً من شروط الاقتصاد المنتظم . ولكن الاباطرة ، على الرغم مما بذلوه من جهود ، لم يتوصلوا الى تحقيق هذه الغاية تحقيقاً كاملاً .

عاد ديوكلسيانوس الى ضرب النقود الجيدة . فلم يطرأ اي تغيير على عيار الذهب ، اما وزن القطعة الأصلية فقد بقي على ما حدده قسطنطين : ٤٥٥ غرامات ، وهو الوزن الذي ابقته عليه الامبراطورية البيزنطية ، بينما سينتهي الغرب الى ١٥١ غرام . وضربت النقود الفضية الجيدة ايضاً ولكن باوزان مختلفة . وتبدلت نسبة القيمة بين المعدنين لصالح الذهب : فانتقلت من $\frac{1}{12}$ تقريباً في البداية ، كما في زمن اوغسطس ، الى $\frac{1}{13}$ في زمن قسطنطين ، و $\frac{1}{14}$ في السنة ٣٧٩ ، و $\frac{1}{18}$ في السنة ٤٢٢ ؛ وسيعود بها جوليانوس ، بعد مرور قرن الى ١٤٥٤ . ولكنها تغييرات غير مزعجة في الحقيقة : ولم تؤد الا الى حمل العالم الروماني على اعتماد الذهب قاعدة ، وهذا ما لم يفعله حتى ذاك الحين ، كما لم يفعله العالم اليوناني من قبله .

قضت الضرورة باصدار كميات وافرة من هذه القطع تأميناً لحاجات التداول . ولكنهم لم يستطيعوا ذلك . فراجت قطع نحاسية ادخلت عليها نسبة ضئيلة من الفضة ، وقطع برونزية ايضاً :

برأسطة هذا النقد غطت الحزاة عجزها دونما حاجة الى التقيد بالوزن القانوني. لذلك فقد هبطت قيمة النقد مرة اخرى . وباستطاعتنا تتبع هذا الهبوط في مصر بفضل مصادرنا من البرديات؛ غير ان هذه البلاد خضعت لنظام نقدي خاص بحيث ان ملاحظاتنا فيها قد لا تكون ذات قيمة بالنسبة لمجموع الامبراطورية . ومهما يكن من الأمر ، فاننا نرى قيمة الذهب ، خلال القرن الرابع ، تزداد فيها ١٨٠٠٠ مرة على الأقل^(١) بالنسبة للنقد العادي .

كانت نتيجة هذا الانخفاض في سعر النقد المحصاراً شديداً في العلاقات الاقتصادية، على ما نرجح . ومع ذلك فهي دون ترجيحنا . فالنقد الذهبي قد بقي ثابتاً . كما ان النقود الجيدة المتداولة كانت قليلة ، وكان باستطاعة اي كان من الناس ان يكتزها . ولكنها ، قليلة او كثيرة ، كانت نقداً متداولاً، وقد ازداد في ايام ثيودوسيوس ضرب القطع الذهبية والفضية الصغيرة والصغرى؛ ولم يكن القصد من ذلك ، في الأرجح ، سوى تسهيل تداولها .

لم تكن المعادن الثمينة ، في الحقيقة ، وافرة كما في الماضي ، ولكنها لم تنضب . وما اشد دهشتنا أمام الكميات الضخمة من الذهب المضروب التي استطاع جمعها اثرياء افراد : فقد انفق سيمناكوس مثلاً ما زنته ٦٥٥ كيلوغراماً ذهباً على الألعاب التي اقامها لمناسبة تعيين ابنه قاضياً . وقد حصلت الدولة على المعادن : فقد استثمرت المناجم المتبقية في الامبراطورية بعد فقدان داسيا ، ورافق اقبال المعابد أو تخصيصها لغاية جديدة صادرة كنوزها ؛ وجمعت بعض الضرائب اخيراً ذهباً وفضة . غير انها لم تحصل على الكفاف منها .

كان من ثم لزاماً عليها ، بفعل حاجتها الى النقد الثابت ، ان تلجأ الى التحصيل والدفع عيناً : كما جرى ذلك في استيفاء الضريبة الشخصية ودفع معظم الأجور العسكرية ومرتبات الموظفين . واعتمد الناس اقتصاداً مختلطاً ايضاً بني على المقايضة تارة وعلى الدفع النقدي اخرى . فحين حاصر أاريك روما للمرة الأولى في السنة ٤٠٨ ، أرسل اليه وفد من المحاصرين يقدم له ٥٠٠٠ لبرة ذهباً و ٣٠٠٠٠ لبرة فضة و ٤٠٠٠ قيص حريرية و ٣٠٠٠ جلد مصبوغ بالأرجوان و ٣٠٠٠ لبرة من التوابل : وقد اقتضى جمع هذه الفدية ، من جهة ثانية ، بالإضافة الى ما طلب من الاغنياء ، تذويب تماثيل ذهبية وفضية اخذت من المعابد . وان في هذا المثل دلالة كافية على ما كان يفرض عليهم من تساويات .

واضطروا كذلك الى تعود ارتفاع الاسعار ، وهو النتيجة الحتمية
الاسعار : « الحد الاعلى »
لانخفاض قيمة النقود الرائجة .

لسنا نعلم حقيقة أسباب الارتفاع الذي حاول ديوكليسيانوس الحد منه في السنة ٣٠١ مع

(١) وهناك من يتكلم عن ٤٥٠٠٠ وحتى ٦٦٠٠٠ مرة . نحن نجعل التحديد الصحيح لما عرف به « الدرهم » في مصر ولما عرف قديماً بـ « الدينار » الذي يختلف عن الدينار الفضي في العهد الامبراطوري الاول . وجلي ان الدولة كانت اعجز من ان تضرب نقوداً برتزية كافية بهذا السعر ، فما هو الحل الذي اعتمده يا ترى ؟

انه قد وضع في التداول قبل هذا التاريخ نفوداً ذهبية وفضية جيدة . غير ان هذه المحاولة لا ترد الى رغبته في التنظيم فقط ، اذ ان في المقدمة الطويلة لما يعرف بحق بـ « مرسوم الحد الأعلى » وصفاً لوضع تخيف . فهي تذكر بالمصلحة العامة ومصصلحة الجنود المحرومين من مكاسبهم الشرعية ، وتعتف التجار المحتكرين والمضاربين « المصتمين على الاثراء » ، ليس خلال سنوات او أشهر ، ولا خلال يوم واحد ، بل خلال ساعات وفي برهة واحدة ، الذين ينزلون الى الاسواق ، حين تثقل وطأة القحط ، مواد غذائية بمجموعة في السنوات السابقة . وهذا ما يبرر التدابير المتخذة : عقوبة الموت لمن يخفي البضائع المخزونة ولمن يفرض او يدفع سعراً أعلى من الحد الأعلى القانوني . ويبي هذه المقدمة جدول يعين هذا الحد الأعلى لأكثر من ألف صنف : المواد الغذائية ، والحامات ، والمصنوعات ، وأجور النقل ، ومرتبات المهن الحرة ، والاجور ، وقد رافقت هذا التعمين تمييزات دقيقة جداً تناولت الكمية والنوع .

ان هذا النص ، الذي أتاحت مكشفتات كتابية كثيرة جمع القسم الأكبر من متنه ، ينطوي على أهمية عظيمة بسبب هذه التمييزات وبسبب المقارنة بين الاسعار : وهكذا فان الأجر اليومي الأعلى لعامل ريفي ينفق على ما أكمله من جيبه يوازي على وجه التقريب السعر الأعلى لكيلو غرام واحد من لحم العجول او لنصف كيلو غرام من لحم الخنازير او الضأن او لحمسة ليرات من الحنطة . ويكون هذا النص أول تجربة تحاول في ارض على مثل هذا الاتساع وبنطق على مثل هذا الشمول بغية تحديد الاسعار التفصيلية . غير اننا ، مهما كان من أمر عظمة المجهود ، لا نشعر بحاجة الى التشديد على عظمة خرقة أيضاً : اذ انه لم يأخذ بعين الاعتبار تقلبات الاسعار الاقليمية ، التي لا نشك في ما يمكن ان يكون من أمرها في داخل هذه الامبراطورية الشاسعة ، بل اقتصر على لفت انتباه الشاربن الى ضرورة حساب أكلاف النقل وغيرها مما يسهم في رفع سعر كلفة المحاصيل التي يرغبون في بيعها . ولم يتكلم عن تدبير ديوكليسيانوس هذا سوى مصدر أدبي واحد : ويغلب انه أفضى الى اراقة دماء كثيرة ولم يؤد إلا الى اختفاء المحاصيل وارتفاع أسعارها وفي النتيجة الى إلغاء المرسوم . وليس هذا المؤلف سوى لاكتانس ، وهو مسيحي اشتهر بعدائه للامبراطور المضطهد . فيجوز لنا بسبب تحيزه ان نشك في أمر الأحكام بالموت . بيد انه لا يجوز لنا الشك في الفشل الكامل . فمنذ السنة ٣٠٤ ، حين ألزمت الحكومة الأثرياء المصريين بأثر يتخلوا لها عن الذهب ، عرضت عليهم ثمناً له ، كما يبدو ، عشرة أضعاف سعره المحدد في المرسوم . لم تحدث ، على ما نعلم ، سوى محاولة ثانية مماثلة . في السنة ٣٦٢ أدت الاستعدادات للحرب ضد الفرس الى ارتفاع عظيم في الاسعار غذى نقمة الانطاكين على جوليانوس الوثني . فأصدر هذا الأخير مرسوماً يحدد السعر الأعلى أيضاً . لا نعلم شيئاً واضحاً عن نصه ، ولكننا نرجح انه لم يكن سوى تسعير محلي فقط . اما الشيء الثابت فهو انه لم يعط أية نتيجة .

ليس افضل من مصر ، بالاستناد الى بردياتها ، لتتبع ارتفاع الاسعار هنا ايضاً . لننتقل من سعر الحنطة في السنة ٢٩٤ ، اذ انه قد تحدد أعلاه بالنسبة للأسعار السابقة . فمنذ السنة ٣١٤ ، ارتفع ٣٠ ضعفاً ؛ وفي السنة ٣٣٤ ، ٢٦٠ ضعفاً ؛ وبُعِيد السنة ٣٤٤ ، ٦٦٨٠ ضعفاً ؛ الخ .

وطاب لبعضهم اجراء حساب المال اللازم ، مبدئياً، لشراء الحنطة في آخر القرن، فتوصلوا الى ان ثمن ٢٥ كيلو غراماً قد بلغ آنذاك ١٦ طنناً من النقد البرونزي. ولكننا نجهد كيف حلت، عملياً، الصعوبات التي أوجدها مثل هذا الوضع. كما نجهد نسبة أثر هذا الوضع في خلق وضع مماثل في الأقاليم الأخرى من الامبراطورية .

ولكن هنالك قاعدة ثابتة هي الذهب الذي يوزن وزناً او يعدّ قطعاً نقدية. فقد سمح ثباته باجراء المقايضات ، وتولت سلطة الدولة كل أمر آخر .

مطالب الدولة الاقتصادية كانت الدولة مستعدة لاتخاذ أي تدبير يقتضيه بقاء وتسليم الانتاج الضروري للحياة العامة. وليس من ريب في أنها اتخذت فوق ما نعرفه من تدابيرها ، ولكن ما نعرفه كافٍ لإزالة كل ريبية حول اتجاه سياستها . فالأولوية المطلقة ، حتى ولو لم تنفذ أعمالها بالأمانة المباشرة، مضمونة في كل مكان بقتطعاتها ومصادراتها ومشترياتها وطلباتها على أساس الضريبة او بأسعار تحددها هي ، ولا تخضع رأسمالية الدولة إلا الى اقتصاد توصلت الى تصميمه واقراره ، عن طريق ما فرضته من ميسر وخدمات ، وراقبت العديد من نقاطه .

كان عليها تأمين الغذاء للعناصر المحطية من السكان . فامنته الضريبة المستوفاة عيناً ، التي اتاحت تسديد أجور الجيش والموظفين . وخصصت احدى ابرشيتي ايطاليا لتموين ميلانو ، كما فرض على مصر تموين القسطنطينية ، على ان تصل ضريبة الحنطة العينية الى الاسكندرية قبل العاشر من ايلول . اما روما فقد احتفظت بافريقيا بسبب عجز ابرشية ايطاليا الثانية عن سد حاجتها . وهكذا تتضح التدابير الشديدة المتخذة تأميناً لاستيفاء الضريبة واستثمار الاملاك العامة ووجود اليد العاملة الريفية في الاملاك الخاصة .

ليس كذلك من نقص ممكن في انتاج الحامات والمصنوعات . فالمناجم والمهاجر بكليتها تقريباً ملك للدولة التي تمتلك من جهة ثانية مصانع يدوية مختلفة . لا بل انها احتكرت بعض الصناعات أيضاً . فقد اخضعت الالقشة الثمينة على الدوام لتنظيم قاس تناول بصورة خاصة اللون الامبراطوري ، اعني به الأرجوان : كان على صيادي « الموركس » ان يسلموا كل حصيلة صيدهم التي لا يجوز ان تنقص عن حد ادنى معين ، وحظرت صباغة الحرير ارجواناً كما حظر انتاجه في غير المصانع الامبراطورية ، الخ . اما المصنوعات التي لم يتناولها الاحتكار ، فقد نزع الدولة ، بسددها ، الى تعميم نظام « الهيثات » الذي ظهر في أيام الامبراطورية الأولى . فكانت التعاونيات الاولى المنظمة تلك التي تتولى تموين روما بالمواد الغذائية : الحجازون ، والقصابون ، الخ . وكان ثمن الاحتكار والامتيازات الممنوحة لها التقيد بموجبات عمل قانوني مستمر . ثم شمل النظام تدريجياً المهن الأخرى في كل مدينة : فكان على كل هيئة – والهيات كثيرة جداً بسبب تجزئة العمل – ان تنتج حداً ادنى من المصنوعات .

يصح القول نفسه في النقل البري ولا سيما البحري. فتنظيم اصحاب المراكب الذين يموتون روما عن طريق اوستيا قديم قدم تنظيم الحجازين . ثم عم هذا التنظيم تدريجياً . فصدر مجهزو

المراكب في كل مكان وجمعوا شركات ذات مسؤولية جماعية وتوجب عليهم ان يؤمنوا في الدرجة الأولى ، وبسعر محدد ، عمليات النقل التي تفرزها الدولة .

تتألف مستندائنا ، بنوع خاص ، من قرارات رسمية تهدف الى دعم اقتصاد الدولة هذا بتوسيع نطاق تطبيقه ، وتلافي الصدوع ومعاقبة الغش وانذار الموظفين الفاسدين أو المهملين . وتشتمل كذلك على شكاوى الرعايا الكثيرة من وطأة الاعباء عليهم ومن تجاوزات المنفذين . ولكننا لا نعرف دولة في التاريخ لم تدخل تحسينات مستمرة على نظمها ولم يستغل الرعايا أو المواطنون مطالبها . أجل ان هذه السيئات حتمية : ولا تنجو منها الدول المعاصرة نفسها عندما تنهج النهج نفسه ، على الرغم مما يتوفر لديها من وسائل عملية اقوى . ولا يميز النقد الزبني ان تستوقفنا هذه السيئات وقتاً طويلاً . فنتائج النظام الاجتماعي كانت في الحقيقة اعظم خطورة من نتائجها الاقتصادية .

فهل لم يؤدّ الى الخراب ، اذا ما نظرنا الى الناحية الاقتصادية فقط . ولعل مرد نظرة عامة ذلك الى ان تنظيم الدولة قد تمتع بصفات لم يمن أي مصدر معاصر يلفت انتباهنا اليها . وقد قام من جهة ثانية ، في جميع حقول النشاط ، ما يعرف اليوم بـ « النطاق الحر » الذي يموت التهريب والفائض الذي لا تضع الدولة يدها عليه : وليس من شك في واقع هذا النطاق على الرغم من عجزنا عن تقدير أهميته . ومهما يكن من الامر ، فان القرن الرابع يخلق فينا شعوراً — لأن الاحصاءات تعوزنا — مختلفاً جداً عنه في القرن الثالث .

لا يزال السكان ، واليد العاملة اذن ، اقل عدداً ، كما ان توطين البرابرة ، الذي لم يحدث في كافة امحاء الامبراطورية ، لم يسدّ هذا العجز إلا جزئياً . اجل هنالك ميل الى اهمال الاراضي المهدبة . ولكن الاراضي الاخرى تزرع خير زراعة . وقد يجذب الاهالي احياناً ولكن جديهم أقل خطورة منه في العهد الامبراطوري الاول ، باستثناء روما حين يوقف الغتصبون عنها المستوردات الافريقية . وانتشرت بعض التحسينات التقنية . فالعربة الحاصدة ، وهي اختراع غالي أشار اليه « بلين القديم » ، يصفها مرة أخرى مهندس زراعي في القرن الرابع ويؤكد آنذاك ان استخدامها أكثر رواجاً في السهول الغالية . وكثرت المطاحن المائية . وفي السنة ٢٨٠ ، ألغى الامبراطور بروبوس كافة موانع زراعة الكرمة ، أقله في الاقاليم الغربية . لابل يغلب انه اصدر اوامره الى الجنود بزراعة الكرمة في منطقتي الساف والدانوب . وفي الواقع انتشرت هذه الزراعة وتحسنت انواع العنب في ألبانيا وغاليا : فقد امتدح « اوزون » عنب منطقتي بوردو والموزيل . وغدا انتاج المناجم والتعدين وافرأ . اما مصانع الزجاج الرينانية ، التي كان مركزها كولونيا ، والتي حققت نجاحات تقنية هامة ، فقد صدرت مصنوعات الى الاسواق البعيدة لأن التجارة بين الاقاليم قد استعادت نشاطها . وقد لفت الانتظار ، في اواخر القرن الرابع واولئ القرن الخامس بنوع خاص ، وجود التجار « السوريين » في كل مكان . فلم يرض احد الجغرافيين الاغفال ، في ما كتبه حوالي السنة ٣٥٠ عن غنى المصنوعات وتعددها ونوعها ،

باعجابه ومدحه ، إلا على مصر وشبه الجزيرة البلقانية . وقد جاء علم الآثار يؤيد تحفظه حيسال مصر حيث أدى النقص في سكان الإرياف ، الاهمال في تعهد الألفية الى اختفاء بعض القرى القديمة في الفيوم تحت الرمال المتركمة . ولكنه يؤيد أقواله في اماكن اخرى ايضاً بصدد الألفية الجديدة او الموسعة وبنوع الأشياء المنقولة .

برزت نهضة الازدهار في اكثر من ولاية ، ولكن الشرق استفاد منها اكثر من الغرب . فهي قد بلغت الذروة ، اقله بعد الفتح الروماني ، في بعض مناطق آسيا الصغرى ، ولا سيما في سوريا . استعادت التجارة مع الشرق البعيد نشاطها وحركتها . ويبدو ان العالم الروماني ما انفك يصدر اليه المعادن الثمينة بنوع خاص ، وما زال يستورد منه المصنوعات البديخة والعمود التقليدية والتوابل والجواهر والحجارة الكريمة والحزير الذين ازداد طلبه في الاسواق . واذا احتفظ بالحزير للقصير الامبراطوري حين تتخلله الخيوط الذهبية أو حين يصبغ باللون الأرجواني ، فانه ما زال ضالة الاغنياء المنشودة حين يكون مطرزاً بالرسوم أو مصبوغاً بالألوان النباتية . وقد اهملت بصدد هذه التجارة الملائق المباشرة عن طريق المحيط الهندي . ولكن البضائع ، والتجار احياناً ، يرون في المملكة الساسانية التي عقد معها صلح دائم في اواخر القرن الرابع . وحين تبلغ البضائع نهر الفرات حيث تتولى الدولة اعمال رقابة جركية شديدة في سبيل استيفاء الرسوم ، تتجه الى الموانئ المتوسطة ، كما تتجه اليها صموغ الجزيرة العربية الجنوبية وخطورها التي تتولى نقلها عبر الصحراء السورية قوافل يقف لها الأسمةليون السجسون بالمرصاد . لذلك فان انطاكية ، والمدن الفينيقية ، والاسكندرية التي ما زالت تتمون عن طريق البحر الأحمر ، قد جافظت على صناعاتها الفنية الخاصة .

غير اننا نخطئ ان نحن غالبنا في تجميل هذه اللوحة . ليس من ريب ، اذا ما نظرنا الى الامبراطورية في مجموعها ، في ان الانتاج الزراعي والصناعي كان كافياً لسد حاجات السكان . اما المقايضات فلم تتجاوز قط مستواها السابق ، لا بل لم تبلغه الا في مناطق معينة . فهناك ظاهرة كافية لابرار الفرق بين هذا العهد والعهد الامبراطوري الأول : ان اكثرية المدن الصغرى والمتوسطة قد تقهقرت وتأخرت . ويرد ذلك الى منافسة « المقاصف » حيث نمت المصانع التي باعت مصنوعات من الريفين المجاورين . كما يرد الى منافسة المدن الكبرى ايضاً التي تميل الادارة بدافع طبيعي الى تشجيعها بسبب سهولة الرقابة فيها . أجل كان انهيار روما الاقتصادي ، بين هذه المدن الكبرى ، عميقاً جداً : فهي لم تعد ، بعد انتقال البلاط منها ، مركز الجذب العام ، كما كانت في القرون الأولى . ولكن العواصم الاقليمية ، قرطاج والاسكندرية وانطاكية ، قد احتفظت باهميتها ، حين لم تستطع انماها . اما بين المقرات الامبراطورية الجديدة ، فان « تريف » قد نمت نمواً كبيراً . ومع ذلك فليس من تقدم يمكن مقارنته بتقدم القسطنطينية ، العاصمة الجديدة للامبراطورية . فمنها تنطلق كل التجارة البحرية في الشرق المتوسطي . والطريق البرية التي ربطت بين البوسفور ونيكوميديا ، مروراً بآسيا الصغرى ، قد شهدت حركة سير ناشطة جداً . ويمكن القول نفسه عن طريق الغرب ايضاً . فليست « الطريق الاغناطية » القديمة ما يقود ، كما

في السابق ، الى الأديراتيك ، مروراً بمقدونيا والابير ، بل تلك التي تجتاز سيرميوم وتتجه مباشرة الى غاليا أو إيطاليا الشمالية دون ان تمر بروما .

ليس من السهل وضع ميزان هذه العناصر المختلفة ، والمتناقضة في أغلب الأحيان . غير ان الامر الثابت هو ان الامبراطورية لا تشكو من فقر الدم في اواخر القرن الرابع ، وان شطراً كبيراً من الشرق يعرف ازدهاراً حقيقياً . فمن ذا الذي يستطيع التكهن بمصير كل ذلك لو لم يحدث ما حدث في القرن الخامس ؟ مها يكن من الأمر ، فان احداث القرن الخامس ستكرس أولوية القسطنطينية التي حلت منذ الآن محل روما كمقدمة المواصلات بين اقاليم الامبراطورية .

٢ - المجتمع العاماني

ما كانت الدولة لتستطيع توطيد سلطتها على الاقتصاد لو لم توطدها في الوقت نفسه على المجتمع ، او لو لم توطدها بقوة على بعض الطبقات على الأقل .

لم تقف الامبراطورية الاولى نفسها موقفاً حيادياً على هذا الصعيد .
مرسوم كركلا
على الرغم مما انطوى عليه سلوكها من اعتبارات اخرى ، فان باستطاعتنا القول ان انعامها بالمواطنة الرومانية على عدد مطرد الزيادة من الاقليميين ، أي من المغلوبين السابقين ، هو نوع من التدخل . وقد حصل على هذه المواطنة كل الذين رضوا بالاحتكاك بالحضارة . فهم قد انضموا بذلك الى روما التي استطاعت من ثم توجيه واستخدام ارتقايمهم الاجتماعي وارتقاء أنسالمهم من بعدهم . أفضى هذا السخاء المفيد للنظام ، في السنة ٢١٢ ، الى مرسوم كركلا الذي انعم بالمواطنة على كل الرجال الاحرار المولودين في ارض رومانية، باستثناء البرابرة الذين اقاموا آنذاك في الامبراطورية واخضعوا لنظام ادنى خاص . ولعل مرد هذا التدبير الى اسباب جبائية كان الهدف منها فرض بعض الضرائب على الجميع دون استثناء . ولكن المرسوم كان نهاية تطور بدأ منذ زمن بعيد واستجاب بعد ذلك لمقاصد اخرى .
جاءت الامبراطورية الثانية تعمل به ايضاً . فشملت مفاعيله آنذاك البرابرة الذين يدخلون في خدمتها من غير « الحلفاء » . ولم تحاول الامبراطورية الثانية قط فرض نتيجته المنطقية ، اعني بها تطبيق القانون الروماني الخاص على كافة المواطنين الجدد ، بل سمحت بان تبقى بعض القوانين البلدية سارية المفعول في الشرق . اما نتيجة المرسوم الرئيسية فكانت تبسيطاً لعمل الدولة بإيجاد المساواة في الخضوع لها : فلم يعد من اهمية عملية للتمييز بين المواطن والاجنبي الا عندما يتوطن البرابرة جماعات منظمة .

جدة السياسة الاجتماعية
قامت السياسة الاجتماعية الحقيقية في العهد الامبراطوري الأول على تنظيم الارترقاء من درجة الى درجة في السلم الاجتماعي ، دونما قسر ، ووفقاً لما ترى فيه خيرها . ارادته تدريجياً يمتد على عدة أجيال رغبة منها في تجنب الفوضى . كما ارادته

مدرجاً بحسب عدد من العوامل كانت الثروة والتأثر بالحضارة اليونانية أو الرومانية بينها عاملين رئيسيين ، و ارادته مفيداً للدولة اخيراً يبعث طوعاً تكوّن وتجدد النخب التي تنتقي كبار موظفيها من بينها .

هذه هي السياسة التي اضطرت الامبراطورية الثانية الى التخلي عنها تحت تأثير الظروف . فاحتفظت لنفسها ، من جهة ، بحق اختيار خدامها حيث تريد ، وبترفيعهم كما يطيّب لها ؛ ورأينا فيما سبق ما كان من هذا الأمر في الجيش ؛ وقد الغي ، في السنة ٣٦٤ ، بتأثير الذهنية نفسها ، تحريم دخول مجلس الشيوخ على ابناء المعتقين . ولما كانت بحاجة الى ان تنفذ جميع المهام الاجتماعية ، فقد عمدت من جهة ثانية الى محاربة فرار الموظفين واقرت انتقال المهن بالوراثة ؛ وبحثت عن مسؤولين غير الأفراد المتفرقين والزائلين ، فارغمتهم على التجمع وحملت ارزاقهم مسؤوليتهم حتى بعد انتقال هذه الارزاق الى ايد غير ايديهم . فشجعت الطريقة الاولى الارتقاء الاجتماعي السريع ، اما الطريقة الثانية ، التي طبقت على نطاق أوسع ، والتي ما انفك التشريع يحسنها ويكملها ، فقد لاشت الطريقة الاولى بتنظيم الطبقات وبفرض حقوق الارتفاق على ممتلكات اعضائها . وان في التناقض الصريح بينها لدليل على فقدان كل برنامج مدرّوس : تمتعت الدولة بسلطة مطلقة على رعاياها فاستخدمت هذه السلطة استخداماً انتهازياً .

اضرت هذه السياسة في الدرجة الأولى بالطبقة الوسطى ، تلك البورجوازية الطبقة الوسطى والحياة المدنية البلدية التي ادت مزيداً من الخدمات الجلي في العهد الامبراطوري الاول ، والفت درجة وسيطة بين الكادحين المدنيين وطبقة الفرسان ، وامنت حياة المدن التي شعت منها الحضارة .

درجت العادة تقليدياً على ان تقدم نخبة هذه الطبقات الموظفين الذين يشغلون « الأجماد البلدية » : اذ ان اعضاءها يمثلون العائلات الصغرى . وقد سبق لنا وتكلمنا عن وطأة مطالب الدولة المالية عليهم وعن مصيرهم الى الافلاس في تنفيذ هذه المطالب . ولذلك فان القانون يفرض عليهم هذه الوظيفة ويعتد في منع تهرّبهم او فرارهم . فان الانتساب الى « الجماعة » التي يؤلفونها في كل مدينة الزامي لكل شخص لا ينتمي الى الطبقة المجلسية والادارة او الجيش ويمتلك ، مع ذلك ، في ارض المدينة ، ارزاقاً لا تقل مساحتها عن ٦,٢٥ هكتارات على الاقل . وقد يحدث في حال ملء بعض المراكز الشاغرة - مراكز المثلين المحليين - ان يقفوا عند حد أعلى ، او ان يعينوا حداً أدنى من هذه المساحة . ومهما يكن من الأمر ، فلا يجوز بيع ممتلكات الممثل دون مبرر . وترث « الجماعة » ممتلكات الممثل الذي يموت دون ان يخلف ابناً او وصية . وعلى الوريث ان يتحمل اعباء هذه الممتلكات . وبديهي ان الابن يخلف أباه في وظيفته ؛ وكان في النهاية ان النساء أنفسهن قد استفدن من هذا الحق ايضاً . ولا يستطيع أي ممثل الانتقال الى الطبقة المجلسية اذالم يمرّ مسبقاً في كافة « الاجماد البلدية » واذ لم يخلف ابناً يتوجب عليه ان يكفله ايضاً ، كما لا يستطيع ان يصبح كاهناً اذالم يجد من يحلّ محله او لم يتخلّ عن ممتلكاته . وعلى الفار ، اذا حالفه الحظ في

قراره ، ان يعود الى صفوف الممثلين حال اقصائه عن الأداة أو الكنيسة. لذلك فقد رثى الجميع لهذا الوضع الذي يؤدي بأفراد هذه الطبقة الفاضلة الى الافلاس ويدفع بهم الى الهرب. ويزيد بذلك مساحة الاراضي المهملة التي يتوجب على الممثلين الباقين تأمين زراعتها او اقله تحمل أعبائها. اما وجه المسألة في ذلك فهو ان هذه النخبة ما كانت لتتجدد، كما في السابق ، بارتقاء رجال توصلوا الى اليسار عن طريق ممارسة الصناعة اليدوية او التجارة . فقد استازمت حاجات اقتصاد الدولة تنظيم المهن المختلفة في كل مدينة وفاقاً لتشريع دقيق مماثل يلجأ الى التدابير نفسها. ونحن لن نحاول هنا تعداد كل التعاونيات التي احدثتها السلطة العامة بغية تأمين ممارسة المهن وتقديم الخدمات الجماعية ، بل نكتفي بالقول ان المناجم نفسها قد اعتبرت «ضرورية» في آخر المطاف؛ ولم ينبج من اعتبار «الضرورة» هذا سوى المهن الحرة ، كالطب والتعليم والحمامة ، التي تتمتع ببعض الحصانات، ولكن الذين مارسوا هذه المهن ، ممن تفرض عليهم طبقهم ممارسة مهن اخرى، قد تعرضوا للبطاردة الشديدة . ولن نحاول ايضاً تعداد كافة الاقتسارات التي استهدفت الحيلولة دون تدني أهمية هذه الهيئات ، فهي متشابهة كلها وتوحي بها الذهنية نفسها ، وتدور جميعها حول ثلاثة مواضيع رئيسية : خطر الهرب من الوظيفة ، الوراثة ، المسؤولية عن الممتلكات التي تتفاوت الشدة فيها وفاقاً للحالات النوعية وطابع الاضطراب النسبي فيها . وليس أهم ، كما هو بديهي ، من شؤون النقل والتغذية . لذلك فلا أسهل علينا من ان نختار ، بين الأنظمة الكثيرة حول هذه المهن ، بعض امثلة تقارب الغرابية بتعقيدها وتحكمها . فالهبات التي يتقبلها الحنّاز ، ومهر زوجته والهبات التي تتقبلها ، تضاف الى مجموع ممتلكاته وتخضع الى حقوق الارتفاق نفسها التي تخضع لها ممتلكات الحنّاز . وماذا يحدث من ثم اذا كانت هذه الممتلكات الجديدة نفسها مرتبطة قبل ذلك بهيئة اخرى يا ترى ؟ فالبحار الذي يرث حنّازاً مثلاً يرتبط بهيئة البحارة لجهة بعض ممتلكاته وهيئة الحنّازين لجهة البعض الآخر. لذلك نكتفي بهذا القدر من الدلائل التي تبين بوضوح كاف ما يمكن ان تتوصل اليه الدولة تدريجياً .

ان هذا العدد الكبير من القوانين الدقيقة والصارمة يتمّ عما ينطوي عليه النظام من شوائب . ولا يؤخذ على الامبراطورية الثانية وحدها ان تتقلب مساعي المخالفين المبتكرة على احتياطات المشترع حين يكون موضوع المخالفة مغريباً . فقد توفّق كثير من الصناعيين اليدويين وممثلي العائلات الى الهرب مثلاً واستقبلت الحكومة نفسها بعضهم وعينتهم في وظائفها على الرغم من الجهود التي بذلتها لاعادة الفارين الى مراكزهم الاولى . وقد وضعت جداول بالطلاب الذين ورد ذكرهم في مراسلات ليبانيوس الذي درس الحقوق طيلة اربعين سنة تقريباً في النصف الثاني من القرن الرابع : فمن أصل ٦٢ بينهم ممن عرف منشأهم الاجتماعي واتجاههم الاول اللاحق ، أصبح ٢٢ من أبناء ممثلي العائلات ممثلي عائلات كأباؤهم ، وسلك ١٨ طريقاً اخرى تمكن ٥ او ٦ منهم السير فيها دون صعوبة .

اما عاقبة هذه المضايقات فيمكن معرفتها بسهولة . فمن حيث ان الطبقة الوسطى قد توزعت فرقاً اسند لكل منها خدمة عامة او سدّ حاجة اقتصادية ، ومن حيث ان كلاً من

أعضائها قد ألحق بشخصه وممتلكاته باحدى هذه الفرق ، ومن حيث انها ترغم قسراً على القيام بواجبها الأول حين تحاول المخالفة ، ومن حيث انها حرمت المبادأة الحرة وامكانات الارتقاء التي هي سبب وجودها ، فقد اعرضت عن القيام بالدور الذي عينته لها السياسة الاقتصادية ، وحتى العامة ، في العهد الامبراطوري الاول . لذلك فان ضرراً كبيراً قد لحق بالحياة البلدية التي هي جزء أساسي لا يمكن فصله عن حضارة لا يتنكر احد آنذاك لمثلها الاعلى . فقد توقفت التبرعات الخاصة بغية سدّ عجز الميزانيات المحلية . وتضاءلت الحركة العمرانية بسبب الحاجة الى المال وعدم توفر المكان داخل الاسوار التي يكفي تمهدها لاستنزاف الموارد . وتدنى عدد الأعياد لأن المسؤولين اقتصروا بصدهما على « التسخير » المفروض . بدعي ان تفاوت النشاط الاقتصادي يفتر بعض الاستثناءات . فما زال البنخ مسيطراً في المدن الكبرى ، وما زال حكامها أسخياء نحو عامة الشعب . وقد وصلت البنا تفاصيل مدهشة حول عظمة انطاكية بنوع خاص والملاهي المتوفرة لسكانها : فالشوارع تضاء ليلاً ؛ وقد فوجيء السكان ، وهم في المسرح ، بهجوم الفرس في السنة ٢٦٠ ، كما فوجئوا أثناء مشاهدتهم لسباق عربات ، في السنة ٢٧٢ ، بوصول اوريليانوس على رأس جيشه ، في طريقه الى تدمر ؛ وقد ازدادت هذه الملاهي طيلة القرن الرابع وحتى في اوائل القرن الخامس . ولكن هل نستطيع تعميم ازدهار انطاكية وسوريا على كافة أنحاء الامبراطورية ؟ فان الحضارة المدنية القديمة ، لا سيما في الغرب ، قد فقدت سناها وفقدت بالتالي جاذبها : وهي لم تبعد لتستجيب لأية بدهاة بعد ان غدا استمرارها مصطنعاً في اطار ضيق ومفقر .

وقد أبرز انعكاسها على حياة المدن وكثرة القوانين والشكاوى العائدة لحالة الاشراف الرسميين البورجوازية البلدية هذه المضادة بين مجتمع الامبراطورية الثانية ومجتمع القرنين الاولين . وحدثت تغييرات هامة ايضاً في الطبقات الاجتماعية الاخرى لم تبق الدولة غريبة عنها ، على الرغم من ان تدخلها فيها أصبح نادراً وأفسح مجالاً لعوامل أخرى تتفق تارة وتتنافس اخرى . اثبت تدخلها جدواه في تنظيم طبقة الاشراف . مال المجتمع الرفيع منذ زمن بعيد الى ان يصبح طبقة شرفاء رسميين . وقد حقق التطور في هذا الاتجاه تقدماً حاسماً بفضل الاقتطاعات والمصادر التي رافقت الأزمة الثورية في القرن الثالث ، وبفضل حاجات الجيش والادارة من جهة ثانية . فزال الفروق المبنية على النسب والثروة . ورفعت الضريبة عن طبقة الفرسان . ولم يعد للضريبة المجلسية من وجود قانوني . فاستطاع عبد قديم ان يصبح شيخاً وقنصلاً : ولم تقدم حكومة هونوريوس في الغرب ، احتجاجاً على قنصلية افثروبوس ، سوى خصاء مدير الفرقة هذا . وكان على الدولة ، لو انها كانت منسجمة مع نفسها ، الاعتراف الا بالنبل الذي تتعم به على خدامها من مدنيين وعسكريين والذي تخضعه لتسلسل يوازي التسلسل في وظائفها .

غير انها اكتفت ، في ما يعنيننا ، باقتفاء اثر نظام الانطونيين الذي تقررت في ظله سلسلة

ألقاب رسمية . فانتهدت ، منذ أحداث المرتبتين العليين في ٣٧٢ ، الى الدرجات الاربع التالية ، من اعلى الى اسفل : المحيدون ، المحترمون ، اللامعون ، الكاملون . وقد وزعت عليها الموظفين المنظورين والمروقين وفقاً للوظيفة المشغولة . وتمثل الدرجتان الاخيرتان إرثاً من القرن الثاني . اما الارليان اللتان اقرهما الانطونيون فقدنشأتا عن الاستعمال : وعادةً اساساً الى طبقة الفرسان التي زالت دون ان تترك أثراً سوى لقب « الكامل » .

بديهي ان مثل هذه الألقاب مصيرها الابتذال لان كل وظيفة تحاول الارتقاء في سلمها . ولو اننا تتبعنا مراحل التوزيع ، لوقفنا على امثلة كثيرة تثبت ذلك . فلنكتف هنا بالاشارة الى ان الحكام الوحيدين الذين بقوا في فئة الكاملين هم حكام أقل الولايات شأنًا . ولما كان هذا الانزلاق محتوماً فقد جر بالضرورة الى أحداث القاب عليا جديدة والى قبول صفار الموظفين في الدرجات الدنيا : وقد عمدت الامبراطورية الى استخدام هاتين الطريقتين استخداماً متكرراً .

يقضي منطق النظام اساساً بهذه الموازة الدقيقة بين التسلسلين ، تسلسل الألقاب وتسلسل الوظائف : وهذا هو المثل الاعلى للتشن (*Tchin*) الروسي . ولكنه قد اصيب في الواقع ببعض الالتواءات .

من هذه الالتواءات أولاً وجود لقبين آخرين لا يدخلان في تسلسل الألقاب ويمنحان مستقلين عن وظائف معينة . أولهما لقب الكونت الذي سبق الكلام عنه ؛ والثاني لقب *Patricius* . استخدمت هذه الكلمة في السابق للدلالة على رتبة الاشراف (بطريق) بمفهومها الديني . ولكن هؤلاء الاشراف قد زالوا ، ولم يعد للدولة ، التي لا تهتم للتقاليد الوثنية ، من حاجة لتعيين سوام كما سبق لها وفعلت في العهد الامبراطوري الأول . فاعاد قسطنطين هذا اللقب الجاهز الذي درج المؤرخون منذئذ على ترجمته بـ « بطريق » وانعم به على شخصيتين كبيرتين . وضم خلفاؤه في القرن الرابع بمنح هذا اللقب ، فحافظ من ثم على سحره ونفوذه : وقد تكلم المعاصرون بصدده البطاريق ، عن « آباء الامبراطور » .

ومنها ايضاً ابهام لقب « اللامع » . احدث هذا اللقب في العهد الامبراطوري الاول واطلق على جميع اعضاء الطبقة المجلسية ، وما زال وقفاً عليهم وحقاً وراثياً للغاية منه اكرام هذه الطبقة الشريفة القديمة ، على انه فقد من اهميته بعد أحداث لقب « المحيدين » و « المحترمين » . لذلك يستطيع بعضهم حله دون القيام باية وظيفة ، بينما يحمله آخرون بسبب الوظائف التي يمارسونها . غير ان هؤلاء اكثر عدداً الى حد بعيد من اولئك الذين ينحدرون كلهم تقريباً من موظفين سابقين ايضاً . فليس من ثم للطبقة المجلسية ، شأنها في ذلك شأن مجلس الشيوخ ، من كيان مستقل عن الدولة .

ومنها اخيراً التعيين في وظائف اسمية غير نادرة اطلق على المستفيدين منها لقب « المشرفين » أو « الشرفيين » كما ندعوم اليوم . وغالباً ما يكون ذلك في الترفيع ، حين الاحالة الى التقاعد ، الى مرتبة اعلى من تلك التي تستحقها آخر وظيفة مارسها المتقاعد . وقد يحدث احياناً ان

يستفيد منها فرد من الافراد ، ولا سيما ممثل العائلة ، مما حمل الامبراطور ، احتياطاً من سخائه بالذات ، على وضع نظام عام يحدد الشروط المفروضة على « الممثل » قبل الخروج من اطار « جماعته » .

يتضح من ثم ان النظام ، اذا ما نزعَت الدولة وتوصلت في الغالب الى الجمع بين الوظيفة والنبيل ، يحافظ مع ذلك على بعض المرونة . والهدف الاول من هذه المرونة توفير مزيد من السهولة للامبراطور في توزيع احساناته : وبماثل الحكم المطلق ، في ذلك ، بين الامبراطور والدولة . بيد ان هذه المخالفات لا تنطوي في الواقع على أهمية تذكر : فقد نظم الاشراف في الامبراطورية الثانية وفقاً لتسلسل الالقب ، فهم بالتالي اشراف دولة او اشراف راسميون .

لقد نجم عن صفتهم هذه أعباء وامتيازات . وكانت الغاية من هذه التعويض أعباء وامتيازاتهم عن تلك ولكنها فاقتها الى حد بعيد لأنها استهدفت في الوقت نفسه مكافأة الخدمات المؤداة والحث على طلب الوظيفة والتفاني في ممارستها .

يدخل في عداد الأعباء ، مثلاً ، الضريبة الخاصة المفروضة على الطبقة المجلسية ، وربما أعفي منها الاعضاء الموظفون . ويدخل في عدادها ايضاً ، اذا اراد هؤلاء الأعضاء كطف ثمار الأجداد المجلسية ، واجب الانفاق على الألعاب عند تعيينهم في منصب القضاء ، ما لم يعين الامبراطور دراكماً ، في مجلس الشيوخ ، قضاة او قناصل سابقين .

ويدخل في عداد الامتيازات امتياز هام هو اعفاء كل من يحمل لقباً ما من «التسخير القدر» ، أي من المصادرات الشخصية . وبديهي ان الأشراف معفون من واجبات « الممثلين » ايضاً . اجل لا يزالون يقدمون الحماة للندن ، ولكنهم لا يهتمون لصعوباتهم المالية ، وقلما يهتمون لمعيشتهم . فهم يفلحون في تسجيل أراضيهم على حدة لأجل تحديد الضريبة الشخصية بغية تجنب المسؤولية الجماعية المترتبة على الاراضي البلدية . وقد عين « محامون عن المجلس » ، بمعدل واحد او اثنين في كل ولاية ، أسند اليهم أمر السهر على مراعاة امتيازاتهم الجبائية .

أبطلت المساواة ايضاً لمصلحتهم في الحقل القضائي . وكان الانطونيون سباقين هنا ايضاً في فرض عقوبات مختلفة على « الاشراف » و « الادنين » . أحصي « قواد العشرة » في الفئة الاولى آنذاك ، فأقصى المثلون عنها الآن . ولكن الفرق في العقوبات ما زال قائماً : فقد استبدلت عقوبات المهظيين الجسدية والعمل في المناجم بالغرامة النقدية او النفي ؛ كما منع عنهم التعذيب والموت المشين إلا في حال الخيانة العظمى . ولم يكن للحكام اخيراً حق النظر في دعاوى الاشراف . وما القول عن الوراثة ؟ فهل كانت عبئاً عليهم . ام امتيازاً من امتيازاتهم يا ترى ؟ اقرها قسطنطين للموظفين قاطبة : فالذولة بحاجة الى ابناءهم كما هي بحاجة الى ابناء الجنود و « الممثلين » والتجار والصناعيين . ولكن ليس من مهنة انقع من مهنة الموظف : فالحميون انفسهم . يتوقون اليها كما يتضح من مراسلات ليبيانوس . لذلك فنحن لا نرى وجوباً ، فيما يتعلق بهذه الطبقة الاجتماعية ، لان نرى في مبدأ الوراثة اي جزاء

الثروة العقارية
ومعيشة الاغنياء في املاكهم

بيد ان كثيراً من الاشراف اثرياء ، اذ ان مرتبات عالية ، تتميزها الانعامات الامبراطورية ، تخصص للوظائف الرفيعة . ولا تتكلم مصادرنا البتة عن مخالفات لواجبات الوظيفة ، ولكنها غالباً ما تتكلم عن زواجات موفقة . فكان باستطاعة هؤلاء الاشراف ان يعيشوا عاطلين عن العمل لو أرادوا . ولكن الذين يرضون بهذه الحياة قليلون : اذ ان الميل الى الاججاد والرغبة في العمل اللذين كان لهما ابدأ مكانها في المثل الاعلى الروماني ، يجذبانهم نحو خدمة الدولة . ومهما يكن من الأمر ، فان الاغنياء جميعهم اشراف ، ان لم يكن بسبب عملهم الشخصي ، فأقله لان احد جدودهم قد رفع العائلة الى الطبقة المجلسية .

بلغت بعض الثروات نسبة عالية جداً وفاقت اعظم الثروات التي جمعت في عهد سلالة جوليوس - كلوديوس . ويؤكد احد مؤلفي اوائل القرن الخامس ان املاك عدة عائلات في روما تؤمن لها ٤٠٠٠٠ ليرة ذهبية (١٣١٠ كيلوغرامات) دخلاً سنوياً ، يضاف اليه دخل عيني يوازي ثلث هذا المبلغ . فكيف يجوز لنا ، على جهلنا الايراد الوسطي للاملاك العقارية ، الشك في ضخامة مثل هذه الثروات ، لا سيما وان تقديرها يجب ان يأخذ بعين الاعتبار ما تهمله هذه الأرقام : مساكن الاسياد وممتلكاتهم المنقولة . وما نحن نورد مثلاً من شأنه اعطاء فكرة عما يمكن ان تمثله هذه المساكن : حين تولت القديسة ميلانيا وزوجها فاليريوس بنيانوس ، في السنة ٤٠٤ ، رغبة منها في تكريس كل ما يملكه لاعمال البر ، بيع « بيت » عائلة فاليريوس في حي شيلديوس ، لم يجدا ، على الرغم من مساعدة الامبراطورة ، مشترياً مستعداً لدفع قيمته الحقيقية ، الا في السنة ٤١١ ، اي بعد ان نهب جنود الأريك من القوط .

لسنا نستطيع الكلام عن مراحل تكون اية ثروة من هذه الثروات . ولكننا على نقض ذلك نعرف وجهة استخدامهما . فمن البديهي انها لم توظف في مشاريع صناعية أو تجارية خوفاً من اقتصاد الدولة ، بل في ابنية تدر دخلاً محترماً في المدن الكبرى ، كما نرجح ، مع ان هذه الابنية لم يشر اليها قط في مصادرنا . وعلى نقض ذلك ، فهناك ، بكل تأكيد ، الى جانب الحلي والمصنوعات البذخية ، كثير من الذهب المسكوك او غير المسكوك : ولكن الذين يتعاطون المراهة قليلون جداً . فلا يبقى من ثم سوى الأرض . وكان جميع الاغنياء في الواقع اصحاب ثروات عقارية طائلة . فكان لعدد كبير منهم ، بفضل الهبات الامبراطورية والارث والزواج والمشتريات التي تجري حين ينقل الموظف من مركز الى مركز آخر ، أملاك موزعة على عدة مناطق في الامبراطورية . وان في هذا التوزيع في المكاتب لتعبيراً ملموساً عن وحدة هذه الامبراطورية : فقد كان على القديسة ميلانيا وزوجها مثلاً ، عندما يابعا قصرهما في روما ، ان يبيعا في الوقت نفسه املاكهما في ايطاليا وصقلية وافريقيا واسبانيا ، الخ .

امتلك ثري القرن الرابع اذن ، بالاضافة الى قصره الخاص في المدينة ومنتزهاته في مناطق الاصطياف - وقد اختارها الروماني ابدأ في مرتفعات اللاتيوم وشواطئ كمبانيا - المقصف الذي يتوسط املاكه الكبرى والذي علمه ثري القرن الثاني كيف يؤمن فيه كل اسباب الراحة

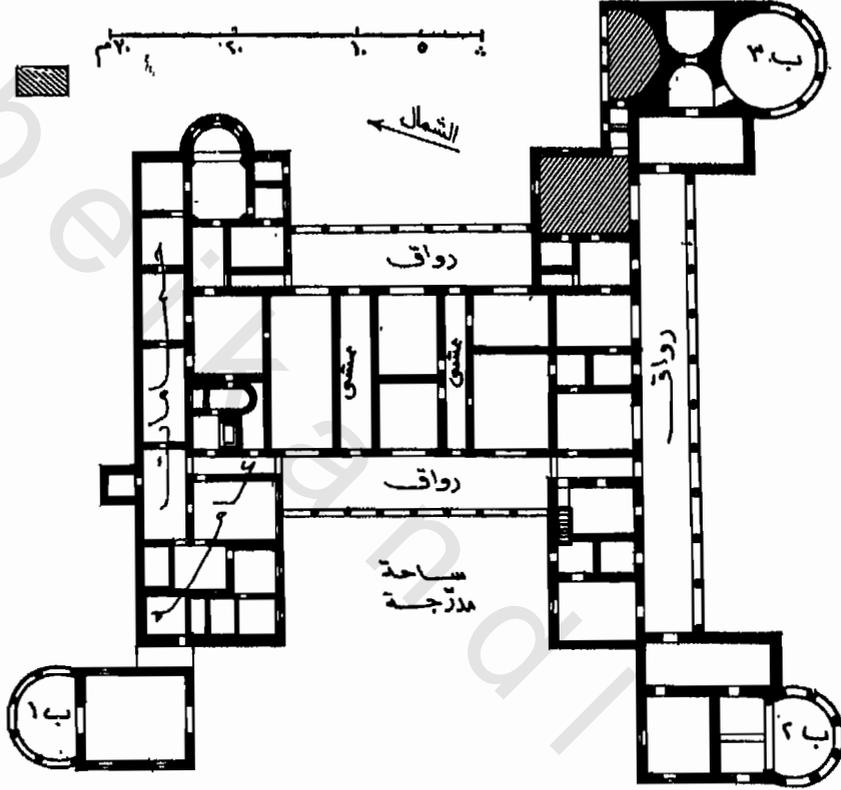
المادية والألاهي الضرورية للمجتمع الرفيع . فتوجب عليه إعادة بنائه لأنه قد تهدم في هذه الاثناء . واستفاد من هذا الظرف لتوسيعه وتجميله ، كما استفاد منه أحياناً لتقوية جدرانها الخارجية ولتحسينه ببعض الابراج لجملة بئامن من هجمة قد يفاجئه بها قطاع الطرق او فرسان برابرة . في هذا المقصف يطيب له تضيئة اوقات طويلة ، والى هذا المقصف يجيء ، بعد صرفه من الخدمة ، ليقضي شيخوخته في هناء وسعة عيش . ولنقرأ هنا وصف حلم السعادة الذي استسلم له « بولين دي بيللا » حفيد اوزون : « لم اتق يوماً إلا الى حياة متوسطة تقارب سعة العيش وتبعد عن الطمع . اشتيت بيتاً مريحاً واسع الغرف صالحاً لقضاء فصول السنة المختلفة ، وطاولة لامعة وملأى بالاصناف ، وخداماً كثيرين في سن الشباب ، وأثاثاً متنوعاً يستخدم لأغراض مختلفة ، وفضية ثمينة بصنعها لا بوزنها ، وقنانين في شتى الحقول قادرين على تنفيذ الطلبات بسرعة ، واصطبلات ملأى بالخياد ، وعربات متينة وأنيقة للنزهة . حين نظم بولين هذه الأشعار في السنة ٤٥٩ ، كان في سن الثالثة والثمانين ، ولعله كان معتمداً على حسنات المحسنين لتأمين معيشته في جوار مرسلينا ، بعد ان قضى البرابرة على ثروته . ولا شك في ان هذا الحلم الذي يصفه بالتواضع كان متواضعاً حقاً اذا ما قورن بواقع البذخ الذي عاشه ، خمسين سنة من قبل ، وسط الكروم المحصبة في منطقة بوردو ، مسقط رأسه . ويجب ان نضيف الى هذا الحلم ، اجتماعات الاصدقاء ، والاحاديث العلمية او المازحة ، والملابس الحريرية المطرزة ، وميدان السباق والمسرح في الحديقة ، وقصص الطيور في الاملاك المحيطة بالمقصف وألف تسلية وتسلية أخرى ، كلعبة الكرة التي كان بولين يستحضر لوازمها من روما .

وهكذا فان مثل الارستوقراطية القديم ما زال قائماً . ففي الوقت الذي فرضت الدولة التضييعات على الجميع ، لا يزال هناك محظيون لا تؤثر موجباتها في طمأنينتهم وهناءة عيشهم .

استازم هذا المثل وهذا الواقع عنصراً جديداً ، أعني به سلطة كبيرة وواسعة على
العبيد
أناس آخرين لا نعرف لها مثيلاً في السابق .

اجل كان هنالك عبيد في السابق . وما زال هناك عبيد في ذلك العصر . ولا يسع المؤرخ البت في ما اذا كان عددهم قد تدنى ، اذ انه يفتقر الى الاحصائيات فيما يعود لهذا العصر ولما سبقه . فالرق لا يزال قائماً ولا يزال يتمون من المصادر نفسها ، أي من الحرب خصوصاً ، كما في السابق . يلقي الرومان القبض على البرابرة : وقد أكد سينيزيوس الذي عاش في كيرينا ، في منطقة بعيدة عن العمليات الحربية ، ان في كل بيت عبداً من القوط . ويلقي البرابرة بدورهم القبض على رعايا الامبراطورية ويحبدون بسهولة من يشترى مغانهم . وما زال العبيد - يقدرهم القديس يوحنا فم الذهب بين ألف وألفين - يدخلون في خدمة كبار الأثرياء . واذا كانت الكنيسة قد سهلت الاعناق باجراء مبسط اعترفت الدولة بشرعيته منذ قسطنطين ، او اذا هي شجعته اخيراً ، فانها لا تازم نفسها ولا أتباعها به ، بل تصدر حكماً قاسياً على العصاة والمهيجين منهم . « اذا اقدم شخص ما ، بداعي الشفقة ، على حث العبد على احتقار سيده والتحرر من

المبودية والاعراض عن الخدمة بحسن نية واحترام ، فليكن مُبَسِّلاً : ان هذا القرار الصادر عن مجمع «غانغر» *Gangres* (١١) سيلاتي تأييداً دائماً. وبالاختصار ، كان المنطق يقضي بأن يتدنى عدد العبيد الى حد بعيد . ولعل هذا التدني يفسر نمو استخدام الطاحون المائية ؛ كما ان الصعوبات الكثيرة التي واجهتها الطبقة الوسطى في المدن لم تبق ، في الأرجح ، دون نتيجة ايضاً . ومع



الشكل ٢٣ - « مقصف » اودرانغ شمالي تريف
ب ١ - المدخل؛ ب ٢ و ب ٣ - كشكان؛ كانت بعض أقسام المقصف، على الأقل، تستأجر طبقة عليوية.

ذلك فنحن مضطرون ، ربما بسبب النواقص في مصادرنا ، للاعتراف بأن الوقائع لا توفر لبرهاننا الاثبات الحاسم الذي نود لو نكتشفه فيها .

كان من حقنا ايضاً ان نتوقع تشريعاً أقل صرامة بصدد العبيد . ولكن الديانة المسيحية لم تعمل ، كما يبدو ، على تقوية النزعة التي أوجدها الفلسفة الانسانية في عهد الانطونيين والتي لم تجرز تقدماً يذكر . فان قسطنطين قسب منع ملاحقة السيد الذي يموت عبده المذنب متأثراً

(١) مدينة بافلاغونيا *Paphlagonie* . التأم هذا المجمع في القرن الرابع في تاريخ يتمدر تحديده .

بالعبودية المفروضة عليه ، ولن تلغى قبل القرن السادس الشروط التي قيّد بها أوغسطس حق الاعتاق .

ثم ان للأخلاق أهمية دونها أهمية الانظمة والقوانين . لم يتبدل مصير العبيد المنزليين تبديلاً كبيراً ، بل بقي مُطابقاً شأنه في السابق؛ بيد ان التطور في الاخلاق الجنسية قد كبح جماح أهواء السيد في الارجح . ولم يطرأ كذلك تبدل يذكر على مصير العبيد المدنيين: تدنى عدد مصارعات المسافين ، وغدا بعض العبيد يمارسون صناعة يدوية في حوانيت خشبية . ألفت المصانع في المعابد الشرقية ، ولكنها ختمت الى مجموع المصانع الامبراطورية ، وليس ما ينبئنا بمصير العمال الذين تستخدمهم هذه المصانع . وعلى نقيض ذلك، فنحن نرى الدولة جاهدة في توفير اليد العاملة لمشاريعها الكبرى ، ولا سيما لمناجها ، بواسطة الأسرى والمحكومين من البرابرة ، الذين ينهضون بأعمالهم الشاقة دونما أمل بتحسّن حالهم . اما التبدل الرئيسي ، كما نرجح ، فهو زوال «عائلات» العبيد العاملين فرقاً في الاملاك العقارية الكبرى . وليس ذلك سوى نهاية تطور طويل بدأ منذ زمن بعيد، اذا صح ان طريقة الاستئثار الريفي هذه قد اعتمدت في غير بعض المناطق الايطالية . ومع ذلك فان حياة العبد الريفي العملية ، اذا ما وضعنا نظامه القانوني جانباً ، تشبه حياة الفلاح الحر قديماً .

وان لهذه الظاهرة تفسيرها ، من جهة ثانية ، في التبدل الذي طرأ على مصير الفلاح الحر .

لا نتوقف عند الكادحين المدنيين . فنحن لا نشاهد لهم إلا في الكادحون الريفيون ؛ القطافون
العواصم لمناسبة التوزيعات المجانية والألعاب ؛ فهم ، من هذا القبيل ، ما زالوا كما نعرفهم : عاطلين عن العمل ، متطلبين ، سجنين ، سريمي الاحتداد والتشيع ونزع الثقة . فان ما يهنا هو تطور الكادحين الريفيين .

كان بين هؤلاء ، منذ القدم ، أجزاء كثيرون - وافريقيا هي المنطقة الوحيدة ، في هذا العهد بالضبط ، التي يلقي فيها بعض الضوء عليهم . اطلق عليهم آنذاك اسم « Circoncillions » الذي يعني بالتدقيق « القطافين المتنقلين » ، أي العمال الذين يتوجهون نحو الشمال في اواخر الربيع وينتقلون من بستان الى بستان عارضين خدماتهم المأجورة للقيام بالقطاف . اما مصيرهم فيزداد سوءاً ، او يتميزون بمزيد من الجرأة عندما يشدّ أزهم العبيد الهاربون وصغار الملاكين المقتقرين والبلديون الثائرون على كل ما هو روماني . وعندما حدثت الاضطرابات الدينية بفعل مقاومة الدوناتيين للكنيسة الرسمية التي تساندها الدولة بصورة عامة ، سحنت لهؤلاء المستائين المتكتلين فرصة الانتفاض على النظام القائم فأطلق عليهم مستقيموا الرأي اسماً واحداً هو « القطافون المتنقلون » الذي وازى ، في نظرم ، اسم « قطاع الطرق » . فجعلوا منهم « لصوص نخامر » يعمدون الى اشعال النار واعمال العنف في كل مكان ويوقفون العربات ؛ ويحلبون فيها العبيد محل السيد الذي يرغمونه على الهرب سيراً على الاقدام ، وينشدون في كل أعمالهم الأناشيد الدوناتية ، ويصيحون صيحة التجمع الخاصة بالهراطة . ويساعد هذا الغليان على تفسير محاولات

الاعتصاب المتكررة في افريقيا . اما اعمال القمع ، التي لم تعرف للشفقة معنى ، فلم تتغلب على هذا الغليان إلا في النصف الاول من القرن الخامس .

كانت هذه الاضطرابات محصورة في افريقيا . فاللصوصية المسلحة المتفرقة ، الفلاحون الشركاء في المناطق الاخرى ، لم ترتد هذا الطابع من الخطورة ، لابل ان وطأتها قد خفت في مصر نفسها - سنرى بعد ذلك ما سيحل محلها - أقله في أشكالها التقليدية . ولعل السبب في ذلك ان العمل الريفي المأجور شيء نادر في المناطق الاخرى : ففي كل مكان تقريباً تألفت طبقة الفلاحين ، بصورة عامة ، في اواخر القرن الثاني ، من صغار الملاكين الاحرار ومن فلاحين شركاء ، أي من مزارعين يتقاضون أجورهم حصة من الاثمار .

غير ان تطور الامبراطورية الثانية ، الذي شجعت الدولة حيناً وحاربت حيناً آخر ، قد ربط الفلاح بالارض وحدت في الوقت نفسه من حرية الملاك الصغير لمصلحة جارة القوي ، ومال بالتالي الى تعميم نظام المشاركة الزراعية الذي يختلف كل الاختلاف - باستثناء الاسم - عن العقد الحر نظرياً والملقى ، في عهد الامبراطورية الاولى ، بين الفلاح الشريك وصاحب الملك . ولنحاول هنا اعطاء فكرة عن هذا النظام دون اخفاء صفة التحكم في عرضنا الموجز السريع . ولكن هل يجوز لنا التفكير ، على ما في ذلك من فائدة نظرية وعملية ، بالتطرق الى مسائل معقدة وشائكة يثيرها هذا التطور الشرعي الذي يفوق بقوته القوانين والذي يتحول وفقاً للوضع الزراعي وكثافة السكان في المناطق التي تتألف منها الامبراطورية ؟

في الاصل كانت الصعوبة ، في كل مكان ، بمثابة لتلك التي تؤدي الى وضع نظام سكان المدن . ففي سبيل تأمين الغذاء للجماعة وجمع المطلوب للدولة ، يجب ان يعهد باستثمار الارض الى يد عاملة مستقرة ، جهد المستطاع . وبما انهم قد اقتصروا على استثمار الاراضي الجيدة المخصبة ، بسبب الافتقار الى اليد العاملة ، فقد ازدادت المساحات البائرة ازيداً مطرداً . لذلك سارت الدولة على تشريع هديانوس الذي يميز لأي كان الاقامة فيها . ثم أدخلت بعض البرابرة الى الامبراطورية وفرضت عليهم واجبات متفاوتة شدة وليناً بحسب نسبة القوى المتعاقبة . ولكن هذه التدابير كانت غير كافية ، فاضطرت الى معاملة رعاياها أنفسهم معاملة قسرية .

من الطبيعي ان تهدف هذه المعاملة الى خير الاملاك العامة في الدرجة الاولى . فأفضت الى عقد اتفاقات تأجيرية طويلة المدى ، او دائمة احياناً ، وانتهى الامر ، عملياً ، الى الاعتراف ، قبل سن قانون بذلك ، بأن اقامة تدوم ثلاثين سنة تكفي لاعطاء حق دائم . ثم اعتمدت هذه التدابير لمصلحة كبار الملاكين ، بانزلاق تفسره توزيعات الاملاك الامبراطورية ، ولا سيما واجب الملاكين في تنفيذ المطالب الاميرية . فصدرت حينذاك سلسلة من الأنظمة متفاوتة تاريخياً بحسب المناطق ، وأهمية قانونية بحسب بدء الاقامة في الاملاك ، وتربط الفلاح الشريك بالارض وحتى بالملاك . وقابل هذه الانظمة نظام آخر يحول دون فصله عن الارض التي يزرعها . ولكنه لا يستطيع مغادرتها ، كما لا يستطيع ابناؤه الابتعاد عنها إلا لأجل الخدمة في الجيش او بموافقته

السيد . واذا جاز له اقتناء ملك خاص خارج هذه الارض ، فانه يحظر عليه بيعه بدون اذن السيد الذي قد يكون له بعض الحقوق عليه . وهكذا يمكننا القول ان وضعه يتوسط وضع الرجل الحر ووضع العبد . اجل ما زالت هنالك بعض الانظمة الاخرى في اوائل القرن الخامس . ولكنها تميل كلها الى الانصهار في نظام المشاركة الزراعية . كان المشارك الزراعي في السابق خاضعاً لسيطرة الملاك الاقتصادية فقط ، فخضع الآن لسيطرته القانونية ايضاً .

شجعت الدولة هذا التطور بقدر تعلقه بالاملاك التقليدية ، ولكن موقفها منه قد اختلف حين كان يتناول الفلاحين الاحرار . ولا يرد ذلك الى ان هؤلاء قد ضايقوها ، بل الى انها قد لاحظت ان التطور قد حصل آنذاك يرافقه تصميم على مقاومة مطالبها الاميرية بالذات . يسعى الفلاح ، في أغلب الاحيان ، وراء « حماية » الملاك الكبير ، هرباً من دفع الضرائب مباشرة ومن مطالبات الجباة ، فيتخلى له عن ارضه ، ولكن ملاكاً كبيراً واحداً لم يفكر بانتزاعها منه فعلياً . فيبقى فيها ويستمر في استثمارها . ولكن هذا الامتياز يستلزم واجبات مختلفة تميل في الواقع الى تمثيله بالمشارك الزراعي والى أكثر من ذلك احياناً . فيحصل من معمله ، بالمقابلة ، على حماية امام القضاء وامام السلطات .

لم يكن انتقال الرجال الأحرار هذا الى مزارعين يحميهم ملاك كبير ليروق لأي مسؤول ، لا للممثلين ولا للدولة الذين أصبح عليهم التعامل مع فريق اعظم قوة . لذلك حاول بعض الاباطرة مقاومة هذا التطور . وعلى هذا الاساس ، كما يبدو ، يجدر بنا تفسير ما اقدم عليه فالنتينيانوس حين احدث في كل مدينة وظيفة « المدافع عن عامة الشعب » الذي وكل اليه امر انصاف المساكين ، لا سيما في حقل الجباية ، بغية صرفهم عن اللجوء الى الحماية القوية ، ولكن هذه الوظيفة ما لبثت ان انحرفت عن غايتها الاولى ، فلم تتميز في النهاية عن وظيفة « محامي المدينة » الذي ما كان ليهم لأمر عامة الشعب . وصدرت كذلك عدة قوانين بمنح الحماية ، تفرض العقوبات على الفلاحين والملاكين على السواء ، يعود اولها الى السنة ٣٦٠ . ولكن الحركة أقوى من القوانين التي نجد الدليل على عدم جدواها في عددها وتكرارها . ستلجأ الامبراطورية الشرقية اليها زمناً طويلاً بعد ذلك ، اما الامبراطورية الغربية ، الضعيفة ، فقد عزفت عنها منذ اوائل القرن الخامس .

أفضى التطور أحياناً الى المغالطة ، أي أنه جاء ضد الملاك نفسه . فإن الدولة ، منذ عهد مبكر ، بغية تحديد المسؤولية الاميرية الجماعية في القرية ، قد شجعت وأوجبت أحياناً انشاء الجماعات الريفية ، على غرار الجماعات المدنية ، ولكنها منحت الجماعة امتيازاً على ممتلكات أعضائها . فأخذ الفلاحون الأحرار وغيرهم في بعض المناطق ، لا سيما في الشرق ، يتجمعون على أساس القرية ، حتى ولو عادت كافة أملاك القرية الى ملاك واحد . ولكن هذه الجماعات ، التي بحثت عن سيد جماعي يحميها من الدولة ، قد بحثت أحياناً عن يحميها من الملاك نفسه ، هادفة الى أن تفرض عليه تخفيف اعبائها . وهكذا فان ليبانيوس قد رأى نفسه

وجهاً لوجه أمام قائد يحمي فلاحيه بالذات . أما نحن فنميل الى الاعتقاد بأن مثل هذه الحوادث كانت نادرة حين يكون الحماية أقوى حقاً . ولكن الدولة شعرت بالخطر هدها فسمعت الى منع هذا النوع من الحماية الجماعية في الوقت نفسه الذي سعت فيه الى منع الحماية الأخرى ، ولكنها فشلت في المحاولتين .

الاسياد والاتباع كل ذلك يتيح لنا ادراك التزايد العظيم في القوة والثروة العقارية ، والمنقولة احياناً ، اللتين استفاد منها الملاكون في القرن الرابع . وقد سبق لنا وأشرنا الى الحقوق التي يحصلون عليها او يدعون بها في الحقل الاداري : فالاملاك تصبح غريبة عن المدينة التي تمتد هي في أراضيها ، وسيدها يتصرف فيها على هواه تقريباً .

لا يهتم إلا لان يؤمن ، بأشرافه أو اشراف قهرمانه ، أفضل استثمار لاملاكه . وقد توفرت لديه منذئذ تسهيلات متزايدة لبلوغ هذه الغاية . فهو لا يتخلى عن استغلال « الاحتياطي » استغلالاً مباشراً يعود اليه محصوله الكامل . لا بل يبدو بصورة عامة ان مساحة هذا الاحتياطي تتسع باطراد . ولكنه يعتمد في زراعته طريقة اقل كلفة من تعهده ، على مقربة من مقصفه ، عبيداً كسالى لا يقومون بعمل مشمر ، لانه يستحيل مراقبة عملهم مراقبة مستمرة . فيعامل عبيده معاملة الشركاء الزراعيين ويسكنهم في اراض يكمل اليهم أمر زراعتها . وبالمقابلة ، يفرض على كافة محبيه أو مزارعيه ، وشركائه أو عبيده ، اعمال تسخير مختلفة تتيح له استثمار احتياطيه . وهكذا ، بعد تطور طويل الامد حلت المسألة الاقتصادية التي أوجدها قيام الاملاك الواسعة في ايطاليا ، اعني بها مسألة افضل طرق الاستثمار ايراداً : فمن جهة ، قطع ارض مستقلة يستثمرها الاتباع بأشراف سيدهم لقاء حصص من الاثمار ، ومن جهة ثانية ، احتياطي يستثمره السيد مباشرة بفضل خدمات اتباعه الشخصية . وسيعتمد هذا الحل ، ببعض المرونة ، طوال قرون عديدة .

ان استخدام كلمة « اتباع » ، في هذا المجال ، امر واجب لانها قد تنطوي على انظمة مختلفة يجمع بينها انها تولي احد الرجال سلطة على شخص رجال آخرين . ان مصير العبد الريفي ، في الواقع ، سائر نحو التحسن : فالعبد منذ ذلك التاريخ يعيش وحده مع عائلة لا يمنعه احد من تأسيسها لانه يتعهد وحده باعالتها . ولكن القانون ، مع ذلك ، ابعده من ان يعتقه . وعلى نقيض ذلك ، اذا لم يتبدل وضع الآخرين تبديلاً عملياً يذكر ، فانهم قد فقدوا النظام الذي جعلهم يتمتعون بحريتهم الكاملة : اذ انهم قد تخلوا عن بعض حريتهم القانونية للملاك الذي اصبح سيدهم . فيتضح من ثم ان تطوراً هاماً جداً قد تحقق ، وسيسير هذا التطور طريقه بفعل احداث وتأثيرات اخرى . ولكن النظام السيدي ، منذ اواخر القرن الرابع ، قد تأصل وتوطد في الأراضي الامبراطورية .

وهكذا فقد رسخت المضادة الاجتماعية في الأرياف ، وصفنا اعلاه حياة الاغنياء في مقاصفهم . اما منازل الفلاحين الوضيعة فلم تترك لنا سوى آثار حقيرة ، وقد ترفع كافة المؤلفين عن ان

يتكلموا عن حياتهم . ولكنه ليس من الصعب تصورها جانحة ابدأ الى الأرض في عمل يومي متكرر . فهل هم سعداء مادياً يا ترى ؟ كلا ثم كلا : فالنظام قد أوجد لغايات اخرى . ولكن الالمهم ، في الأرجح ، أخف من ان تحملهم على الثورة ، اذ انهم لم يحذوا حذو القطافين الافريقيين . أجل لقد ذكر ثيمستوس ، في السنة ٣٦٨ ، ان بعضهم قد تمنوا مجيء البرابرة . ولكن حين جاء هؤلاء في السنة ٣٧٧ ، لم ينتهز الفرصة سوى عمال المناجم في تراقيا ، وكان كثيرون منهم من البرابرة ، كي يثوروا على اسيادهم . ولعل هؤلاء الكادحين الريفيين ، عندما دقت الساعة ، شعروا بانهم رومان على الرغم من يؤسهم . ولعلمهم شعروا بنوع خاص ان مجيء البرابرة لن يعود عليهم بفائدة ، لا سيما وان هؤلاء الغزاة لم يهتموا للقيام باقل اصلاح اجتماعي . ولكن ما تجدر الاشارة اليه ايضاً هو ان الدولة لم تأخذ على نفسها أمر البحث بين رعاياها والفلاحين وغيرهم عن جنود يتيحون لها الدفاع عن نفسها دفاعاً افضل : ولعلها ، في ذلك ، ما زالت تتذكر أزمة القرن الثالث وتخشى الاخطار التي قد تعرضها لها الاستعانة بالطبقات الفقيرة .

٣ - المجتمع الكنسي

قامت بين المجتمع الكنسي والمجتمعات العلماني روابط كثيرة على الرغم من تميز الاول . فهو آنذاك في طور التنظيم ولا يجوز اهماله .

ازدياد الاهتمام
ليس من ريب في ان العقيدة الجديدة ، منذ تنصّر قسطنطين ، قد وجدت في السلطة السياسية خير معوان لتوسيع عدد أتباعها . فقد أدى العطف الحكومي ، في الامبراطورية ، أقله الى تقريب ساعة انتصارها . واذا لم تنتظر النصرانية هذا الانتصار وهذا العطف حتى تتخطى الحدود ، فقد حالها الحظ احياناً ، حتى في الخارج ، واستألت بعض الملوك ، الشيء الذي سهّل لها نجاحاتها .

منذ اواخر القرن الثاني ، اعتنقت النصرانية ملك « اوسروينا » وراء منعطف الفرات ، وبعد مرور قرن اعتنقها ملك ارمينيا بدوره . فسار الرعايا هنا وهناك على خطى ملوكهم . اما في المناطق النائية شرقاً ، فلم تحدث على يد المبشرين سوى اهتمامات قليلة : فقد تم بعضها في القفقاس وحتى في آسيا الوسطى ؛ وقام الساسانيون دون جدوى ، لا سيما في بلاد ما بين النهرين ، باضطهادات عنيفة في اواسط القرن الرابع ، خلال الحروب التي قامت بينهم وبين روما . اما الاسماعيليون ، على نقيض ذلك ، فقد تولت شؤونهم فترة من الزمن ملكة مسيحية اختطفوها من بين رعايا الامبراطورية . وفي عهد قسطنطين بلغ الهند بعض المسافرين المسيحيين واستألو بعض الاتباع على الرغم من قتل رئيسهم . وقد عاد احد هؤلاء المبشرين من الشرق الاقصى وقصد مصر ثم سافر عن طريق البحر الأحمر الى مملكة « أكسوم » عند أعالي النيل ؛ ونصّر الملك ، ثم أسس كنيسة الحبشة بعد ان سامه اثناسيوس الاسكندري أسقفاً . ودخلت النصرانية الى اليمن نفسها . اما في اوروبا فقد سبق وتكلمنا عن دور اوليفيلا عند القوط وعن نقل هؤلاء

الهرطقة الآرية الى الجرمانيين : غير ان أكثرية الفرنجة قد حافظت على وثيتها حتى كلوفيس .
واخيراً ، في القرن الخامس ، تنصّر البريطانيون على يد القديس جرمانوس الاوكسيري وتنصرت
ايرلندا بعد سكوتلاندا على يد القديس بطريقيوس وبالادديوس - إلا اذا كان هذان الاسمان قد
أطلقا على شخص واحد هو « اسقف السكوتلانديين » نفسه .

حظي كثير من هذه الرسائل الخارجية بأيد الحكومة الامبراطورية التي شجعت تشجيعاً
خاصاً شبه مستمر ، بقوانينها و عملها الاداري اليومي ، نشاط الرسائل في داخل الامبراطورية .
ومع ذلك ، فان الارياف ، لا سيما الغربية منها ، قد بقيت بعيدة عن هذا النشاط حتى اول
القرن الخامس . وما لبثت كلمة *Paganus* أي الفلاح ان اتخذت ، على الصعيد الشعبي ، ثم على
الصعيد الرسمي ، معنى « الوثني » الذي ما زالت منطوية عليه في كلمة *Païen* . ولا يزال مصدر
هذا التحول موضوع مجادلات كثيرة ؛ ولكن أبسط تفسير لذلك ، كما نرجح ، هو مقاومة الفلاح
للتخلي عن عباداته التقليدية . ومهما يكن من الأمر ، فان الارياف الغربية كانت ، في الزمان ،
آخر ما انتشرت فيه الديانة المسيحية . اما تطور هذا الانتشار فلسنا نعرفه إلا في غالباً حيث
قام القديس مارتينوس بعمل مجد حاسم . أسس هذا الضابط السابق ، بمساعدة أسقف بواتيه ،
دير ليغوجيه ، ثم سيم أسقفاً على مدينة تور فأسس ، في السنة ٣٧٣ ، دير مارموتيه ايضاً . فكان
هذان الديران منبئين حقيقيين للرسالات تربي فيها وخرج منها وتعاظ ساروا على خطى المؤسس .
ولم يمت هذا الاخير إلا في السنة ٣٩٧ . فاشتهر طيلة قرون عديدة بـ « رسول غاليا » بفضل
تقشفه وجولاته المستمرة والمعجزات التي اجترحها وتعلق تلاميذه به والترجمة التي وضعها له
سوليبس ساويروس . ولكن عملاً مائلاً ، يتفاوت شهرة او سرعة ، قد تم في كل مكان آخر . ولم
تحتفظ الوثنية في اوائل القرن الخامس ، إلا ببعض النقاط المتشتتة داخل الامبراطورية .

لقد رافق كسب النفوس هذا ، بصورة طوعية اجمالاً ، كسب
قوة الكنيسة الاقتصادية
المتملكات الزمنية . فقد اخذ الأنفاق يتزايد تزايداً عظيماً : تشييد
الأبنية ، والعناية بها ، والعناية بالمدفن ، ونفقات العبادة ، وحياة الاكليروس المادية ، ومساعدات
المعوزين . ولكن الاعطيات اخذت تنهمر من كل جهة ايضاً ، من الدولة والافراد . وفي السنة
٣٢١ اعترف قسطنطين للكنيسة بحقها القانوني في تقبل الهبات بواسطة الوصيات (الاوقاف) .
ولم ينتظر المؤمنون ، في غالب الاحيان ، ساعة الموت ليبرهنوا عن سخاء مداهش أملاه التقشف
والتصميم على الزهد بخيرات هذا العالم : فقد سبق القديسة ميلانيا وزوجها أكثر من سلف ،
الشيخ بوماخيوس مثلاً او بولين النولي الذي أصبح اسقف نولا ، مسقط رأسه في كيبانيا . غير ان
فالنتينيانوس الاول ، ذلك الحاكم العبوس ، ما لبث ان اغتاط من بعض ضروب الضغط المرية
والنفعية : فحظر على الكهنة مساعدتهم لدى الاوانس والارامل ، وألقى الهبات الوقفية التي قد
يقدمنها لهم . ولكنه أغضى ، على ما يبدو ، عن اعطياتهن وعن هبات الرجال الوقفية ، وليس
هؤلاء دون النساء حرصاً على خلاص نفوسهم .

وهكذا باتت الكنيسة على جانب عظيم من الثروة. ولم تصدر حكماً على الثروة عند الفقراء، لا بل لم تقل، كما كانت تقول بصدد الزولج والتبتل، ان الفقر خير منها. ولم يشذ عن موقفها هذا سوى اصوات معدودة لا شأن لها امتدحت اشتراكية الممتلكات: فأفضى اتفاقها مع المجتمع العلماني، على غرار ما جرى بصدد الخدمة العسكرية والتبتل، الى تخفيف حدة بعض الحميات. ولكنها قد أوصت بتجنب الجور في جمع الثروة وتجنب التمتع بها بأناية وبخل. وقد أعطت المثل في هذا الصدد بتوزيع الاحسانات وتشيد المآوي للعجزة والملاجئ للأرامل وتربية الايتام. فألقت الدولة على عاتقها عمل برّ لم تعره يوماً أهمية جديدة: اذ ان مشروع «التغذية» نفسه الذي تحقق في عهد ترياينوس كان يستهدف غاية أخرى. وقدمت النصرانية للعالم القديم مفهوماً جديداً هو مفهوم التقوى الفاعلة، فجعلت منه الكنيسة حقيقة واقعة في مجتمع شكاً من جروح كثيرة: وقد قدّر القديس يوحنا فم الذهب مسيحيي القسطنطينية، دون المهرطقة، بـ ١٠٠.٠٠٠ كان نصفهم من الفقراء، أي ممن تؤدي لهم الكنيسة المساعدات.

كانت هذه الثروة متنوعة الاشكال. فقد ضمت العبيد. أجل لم تبتمهم الكنيسة ابتياعاً، ولكنها كانت ممسكة في اعتاق من تحصل عليهم من اسيادهم أو من يولدون في كنفها. فهي قد اصدرت حكماً، كما رأينا، لا على الرق كنظام، بل على اولئك الذين اغضبهم وجودها؛ وقد حاول القديس اوغسطينوس تقديم الدليل على ان الشريعة الموسوية، التي أوجبت تحرير العبد اليهودي في اول السنة السابعة من عبوديته كإبداً حد، لا يمكن تطبيقها على المسيحيين. وامتلكت الكنيسة كثيراً من الأراضي ايضاً: وما لبثت ان اصبحت اهم ملاك عقاري في الامبراطورية، بعد الامبراطور والدولة. غير ان وجود هذه الممتلكات قد خلق معضلة الواجبات نحو الدولة. فلما كان من غير المعقول ان تضعف الدولة، اخضعت الاملاك الكنسية للموجبات العامة التي تناولت الاملاك الامبراطورية نفسها. وقد برز في كثير من المدن «المدافع عن الكنيسة» وهو مماثل «للمدافع عن المجلس» و«المدافع عن المدينة»، الذي يتولى المشورة والدفاع في علائق الكنيسة بالادارة. وقدمت الكنيسة المهندسين للجيش. ورفضت الدولة الاعفاء من الضريبة الشخصية وحتى من الحجز لمصلحة الجماعات حين تكون الممتلكات موضوع مثل هذا الحجز: فقد تخلى القديس اوغسطينوس باسم كنيسته عن هبة محمول احد الزوارق خوفاً من الكوارث التي قد يترتب عليه الاشتراك في تحمل مسؤوليتها. واكتفت الدولة بالاعفاء من التسخير الذي سبق للاشراف والاكليروس ان افادوا منه.

لا يظهر دور الكنيسة الاقتصادي في مصادرها الا بوجود موازنة البر والقوانين الجبائية. ويؤسفنا في الحقيقة الا نعلم عنه اكثر من ذلك، اذ ان هذه القوة لم تبق دون اثر في المجتمع العلماني كما نرجح. بيد انه يجوز لنا التساؤل عما اذا لم يسهم سوء ادارة هذه الاملاك، كما نقدر، في تدني انتاج عام لم يكن يوماً فائضاً. ويفلب ان نتأججه قد انضمت الى ما هو طبيعي وعادي دون ان يستطيع احد تحديده عددياً: اعني به الاقتطاع الذي حصل، بفعل تزايد عدد افراد الاكليروس، - في الوقت نفسه الذي رفعت فيه ادارة الدولة عدد موظفيها - من مجموع الطاقات

البشرية المنتجة الموجودة في الامبراطورية ، وهو مجموع لم يكن قط فائضاً ايضاً .

ان هذه الملاحظة ، التي قد تظهرنا بظهور من يعود الى رأي طلعت به الفولتيرية ،
التنسك والترهب
وأفاد منه بعض المسؤولين المستبدين ايماءة ، تؤدي بصورة طبيعية جداً
الى بحث بعض مظاهر الحياة الدينية التي ابعدت بعض المؤمنين ابعاداً تاماً عن النشاط العام :
التنسك والترهب .

ظهر كلامها في مصر في اواخر القرن الثالث واوائل القرن الرابع ، وعرفا في البداية نجاحاً
عظيماً في الشرق . ليس من السهل تحليل اصولها واسباب انتشارها . بيد انه يستحيل الا نرى
فيهما نتيجة لحرارة صوفية راسخة في هذه المناطق : وقد سبق للنصرانية ان اكتشفت فيها ،
لدى سكان الأرياف ، بيئة انتشار مؤاتية قل نظيرها ، حين خرجت من المدن في القرن الثالث
واعتمدت في وعظها اساليب الكلام البلدية الغربية عن النخب المثقفة . غير ان الصوفية والتكشف
لا يستوجبان مغادرة المنزل : فقد عاش الكليبيون اليونانيون في المدن . فنحن نرجح ان بعض
الاعمال التي حققها « مصارعو الايمان » بتسابقهم في هذا الحقل كان من شأنها ، لو اتسمت بمزيد
من الصعوبة ، ان تتسم بمزيد من الروعة . اما الحقيقة فهي ان هذه الحركة ، التي انطلقت من ادنى
الطبقات الاجتماعية ، كانت بمثابة احتجاج على التسويات الرسمية والزمنية التي فرضها على
الكنيسة انتصارها . فيجب من ثم ان نحتزم من اسم « الفارين » الذي اطلق بسرعة على
المنفردين : فهو يمثلهم بولئك الهاربين الذين حاولوا في مصر ، منذ القرن الثالث قبل المسيح ،
التخلص من الاقتسارات الادارية بالابتعاد عن المجتمع العادي . بيد ان فكرة الثورة الفردية
والسلبية نفسها ، وهي تتجلى في التضحية بكل ما يعلق عليه الرجل المتوسط تلك القيمة
العظمى ، قد أوحى بهذه الاحتجاجات التي لم تختلف عن الاحتجاجات الاخرى الا بايمانها الذي
اعطت عنه برهاناً باهراً . وما هي ، بهذا الصدد ، بين اليأس والأيمان ، العاطفة التي تنبثق من
الاخرى أو العاطفة التي تساند الاخرى ؟ وباية نسبة يحل الأيمان محل اليأس ، اما في التطور
الداخلي لكل شخص ، واما في اساس قراره بالذات ، بفضل قوة المثل ؟ فيتضح بالتالي ان كل
حالة تشكل مسألة خاصة ، كما يتضح ايضاً ان هؤلاء الرجال لم يهتموا لايضاح سيكولوجيتهم
الفردية للاجيال الطالعة : اذ ان كثيرين منهم ، ابتداء من القديس انطونيوس ، كانوا اميين .
أعطى المثل القديس انطونيوس الذي قصد ، حوالي السنة ٢٧٠ ، الصحراء الى الجنوب
الشرقي من الدلتا حيث عاش حياة حرمان وصلاة مقاوماً تجارب الشيطان . ثم أرغمه اقبال
المقتدين به من المعجبين على الابتعاد نحو البحر الاحمر بحثاً عن خلوة هادئة . وعندما ادركته
المنية ، بعد ان تجاوز سن المائة ، في اواسط القرن الرابع ، كانت معجزاته وتقواه قد أعطته
قداسة احترامها واعترف له بها قسطنطين واولاده انفسهم ؛ وقد كتب ترجمته القديس اثناسيوس
الذي كان هو قد ايده في صراعه الحاد ضد الآرية ، فانتشرت في جميع أنحاء الامبراطورية
وقرأها الكل بشغف . ولكن الصحراء ، منذ قبل وفاته ، قد أهلت بالنسك ، اما في جوار

انطونيوس ، واما غربي النيل في وادي نيتريا . فكان فيها ، حتى قبل وفاة قسطنطين ، عدّة آلاف من النساك لا يجتمعون إلا يوم الاحد للخدمة الإلهية ، ويميشون في قلال صغيرة ، متبارين في الاعمال التقشفية الرائعة : فان مكاربوس مثلاً ، الذي كان يقضي الليالي منتصباً على قدميه ، لم يقفل عينيه طيلة اربعين يوماً ، وبقي سبع سنوات دون ان يأكل غذاء مطبوخاً .

كان هؤلاء رهباناً بكل ما في الكلمة من معنى ، أي اشخاص « منفردين » لا يخضعون إلا للالهام الشخصي في مسلك حياتهم . وقد أسس مصري آخر هو القديس باخوميوس ، قبيل هزيمة ليسينيوس ، ما أطلق عليه خطأ اسم « الدير » بينما هو « الحياة المشتركة » بالضبط ، وذلك الى الغرب من طيبة في مصر العليا . وما لبثت هذه المؤسسة ان ضمت أكثر من ٢٠٠٠ رجل . ثم تأسست لها فروع في أنحاء مختلفة : فعند وفاة باخوميوس في السنة ٣٤٦ ، كان هناك تسع جمعيات للرجال واثنان للنساء . اما النظام المكتوب الذي وضعه المؤسس لهذه الجمعيات ، اذا ما استثنينا منه بندي الافراد والفصل بين الجنسين ، فلم يكن صارماً جداً : الزام باستظهار العهد الجديد والقيام ببعض الاعمال ، وحرية في المأكل والمشرب . ولكن أنظمة أخرى ، في مصر نفسها ، كانت اشد صرامة .

اقتدى بهذه الممارسات التقوية في كل مكان ، وفي آسيا في الدرجة الاولى . فكان هنا ايضا زهاد أثاروا الدهشة بتجدهم وابتكاراتهم التقوية . ولكن واحداً منهم لم يتفوق على القديس سمعان الذي ترك ، في اوائل القرن الخامس ، احد الاديرة حيث طلب اليه الاعتدال في اماتة نفسه ، وارتأى ان يقيم على عامود مبني ، على مقربة من انطاكية ، لم ينزل عنه إلا ليعتلي عواميد اخرى تزداد كل مرة ارتفاعاً ، آملاً بذلك تجنب مضايقات الجماهير الآتية بأعداد غفيرة بقية التطلع اليه والتأمل به : وهكذا ارتفع ، خلال ٣٧ سنة ، من ثلاثة امتار الى ١٨ متراً عن الارض . واقتدى به « عاموديون » آخرون ، كما قام « الشجريون » الذين اعتلوا الاشجار ، و « البشريون » الذين اقاموا في قعر الآبار ، الخ . اما في الاديرة فان القانون الذي وضعه القديس باسيليوس حوالي السنة ٣٦٧ هو الذي عرف أكبر نجاح : وقد أخضع فيه الجمعية لسلطة الرئيس المطلقة وقسم اوقات الرهبان بين العبادة والقراءة والعمل ، لا سيما العمل الزراعي . ثم انتقل هذا القانون الى البلقان حيث لا يزال معمولاً به في اديرة العالم اليوناني والسلافي .

وأسس بعض اقباء الغرب ، من امثال القديس ايرونيوس في بيت لحم ، والقديسة ميلانيا القديمة ، عدداً من الاديرة في فلسطين . وفي النصف الثاني من القرن الرابع ، ظهرت فيها الحياة النسكية ايضاً ، وكانت الغاية منها تنظيم الحياة المشتركة للاكليروس أولاً ، وابتعاد رجال الدين عن اهواء الجليل ثانياً . ولكن سيطرة هذين النظامين لم تحل دون تنوع الحياة النسكية كما يتضح من الجمعيات التي أسسها القديس مارتينوس .

يبدو ان الاهالي قد نظروا ، في كل مكان ، بعين راضية معجبة الى هذه الحركة وما رافقها من تضحيات طوعية دائمة . وفي مصر وسوريا بنوع خاص ، اسهم الرهبان ، الذين انتموا بمعظمهم الى اوساط ريفية وضيعة لم تلتسرب اليها اللغة اليونانية ، في نهضة اللغات القومية

المنحطة . فبرزت في اللغة القبطية ، وريثة اللغة المصرية الشعبية القديمة ، معالم ادب جديد كان باعته الاول شنودي ، رئيس « الدير الابيض » الذي كان قد اسسه في منطقة طيبة واخضعه لنظام اشد صرامة من نظام باخوميوس . وكانت الحياة النسكية عوناً للغة السريانية ايضاً ، وهي وريثة اللغة الأرامية ، التي كانت صائرة الى الزوال في مناطق الفرات . لذلك فان الحياة النسكية هذه ، اقله في هذا العهد ، لم تخدم قضية الحضارة التي كان على الامبراطورية الدفاع عنها . وفي اغلب الاحيان ايضاً ، عبر الرهبان عن الفطرة الشعبية وخدموها بمساندتهم النصرانية على الوثنية وعقيدة مجمع نيقية على الآرية . ولما كانوا سريعي التأثير والانفعال ، فقد كانوا يتركون عزلتهم أو يخرجون من بعض الأديرة ، بالاتفاق مع رئيسهم أو بأمر منه احياناً ، ويجتمعون زمراً في المدن . فقد اشتركوا ، لاسيما في الاسكندرية حيث جعل منهم الاتفاق بين انطونيوس واثناسيوس ادوات طيبة في يد الاسقف ، في اكثر من عمل شعب عنيف . وكانوا في مثل هذه الظروف يتسلحون بالعصي وينشدون الاناشيد .

لذلك لم يكن باستطاعة الدولة ان تشعر نحوهم باي عطف . ولكنها ، على الرغم من ذلك ، قلما تجاسرت على محاولة اخضاعهم لقانونها . وقد وجب ان يستلم الحكم امبراطور آري ، هو فالنس ، كي يأمر بالبحث بينهم عن « الممثلين » الهارين لاعادتهم الى مدنهم الاصلية وبفرض الخدمة العسكرية على نساك نيتريا بعد اصطدامهم بالجنود : ولكن هذا التدبير لم ينفذ . ولم يبسط ثيودوسيوس نفسه ، بعد اصلاح ذات البين بينه وبين القديس امبروسيوس ، في الغاء قانون مجرم على الرهبان الاقامة في المدن ، كان قد اصدره منذ اشهر قليلة .

كان امبروسيوس ، في محاربة الآرية ، حليف اسقف الاسكندرية الذي كان يعرف كيف يستخدم سجنهم نفسه . لذلك فقد نظر اليهم بعين راضية . ولكن اساقفة آخرين كثيرين قد وقفوا منهم غير هذا الموقف لانهم لم يرضوا عن سجنهم وعن احتقارهم للسلطات الكنسية الرسمية . وفي اعقاب حوادث متكررة - لم تخل منها غالباً نفسها بعد وفاة القديس مارتينوس - في الشرق اولاً ثم في الغرب ، التأمّت بعض الجامعات في اواسط القرن الخامس واخضعت الاديرة لرقابة الاسقف الشديدة: فحلت بذلك معضلة كانت مدعوة لأن تثار مراراً فيما بعد . لا ريب في ان الحياة النسكية قد زخرت باعمال تقوى تثير الاعجاب ، ولكن المسؤولين عن السلطة قد شعروا بحاجة الى ضبط هذه الحرارة التي كانت تخفي رواسب كثيرة من الفوضى التي ميزت عامة الشعب في السابق .

هؤلاء المسؤولون هم الاساقفة . فالكنيسة ما زالت منظمة كنائس مختلفة الاسقف وكنيسته توافق كل منها مدينة من المدن . وقد أدت الى هذا النظام قرون من الحضارة والادارة افرغت في هذا الاطار حياة رعايا الامبراطورية . اما عند البرابرة الذين حافظوا على تنظيمهم القبلي ، فالاسقف يعينه رئيس القبيلة ، لا المدينة . وقد تقوم في ارض هذه الاخيرة معابد كثيرة ، وقد حدث ذلك بسرعة بسبب ارتفاع عدد المؤمنين . ولكن كل هذه

المعابد تخضع له وحده . اجل لقد حصلت بعض الخلافات بين الاساقفة وبعض كبار الملاكين الذين يخصصون في املاكهم بناء للعبادة ومحاولون ، شأنهم في شؤون ادارية كثيرة ، تجاهل المدينة ، ولكن الغلبة كانت للاساقفة في النهاية .

فهم يعينون ويدبرون اكليروساً مطرد الزيادة يضاف اليه عالم اكلييريكي أكثر عدداً ايضاً غير واضح المعالم احياناً : فان قراء العزائم مثلاً ، الذين يلعبون دوراً في الاعداد للعمودية ، قد اعتبروا اكلييريكيين في الغرب دون الشرق . ولهم ديوانهم وكتابهم الشرعيون ورجال أعمالهم وقهارتهم . يستشيرون سوامم ولكنهم ينفردون في اتخاذ مقرراتهم ، والكاهن الذي لا يخضع لهم انما يرتكب خطأ معترأ . يحظون بأيد الحكومة ، أي الادارة ، إلا في بعض الحوادث الفردية . ونحن لن نعود هنا الى تدخل السلطة المدنية ضد الهراطقة والمحدثين ، ولا الى تنازل قسطنطين عن قسم من السلطة القضائية للأساقفة . ولكن هذه التدابير قد رفعت من شأن سلطتهم الادبية التي كانت عظيمة جداً على المؤمنين والتي أيدتها سلطة اقتصادية متزايدة . فلا عجب والحالة هذه اذا أصبح الاسقف رئيس المدينة حين اضطلت الامبراطورية في الغرب . لم يلف هذه السلطة المطلقة إلا الرأي العام . فهذا الأخير يبرز حين تعيين اسقف جديد ، وهذا الحدث ، بفعل سلطة الاسقف بالذات ، اهم من ان يقص عنه المؤمنون . يقترح على « الشعب » احد الاسماء بعد التشاور بين اساقفة الجوار والاكليروس المحلي ، فتقوم المناذاة به مقام الانتخاب ويسام المنتخب اسقفاً على يد احد الاساقفة الحاضرين . ولكن فقدان الانظمة القانونية يثير احياناً منازعات تؤدي الى الانشقاق والاصطدامات الصاخبة : فقد سقط قتلى كثيرون حين داما ز اسقفاً على روما .

لم يفرض أي شرط لشغل هذه الوظائف . اجل لقد تكلم البابا ، في عهد متأخر ، عن ٣٠ سنة لمنصب الشماس الانجيلي ، و ٣٥ للكهنوت ، و ٤٠ للأسقفية ووجب التبتل في هذه الدرجات الثلاث . ولكن الخلافات كثيرة حتى في الغرب ، وهي أكثر منها في الشرق حيث اقتصر على تحريم الزواج بعد الحصول على درجة الكهنوت دون ابطال الزواج المعقود سابقاً . ولا يجوز القول بأن هنالك تالبا في المناصب الكنسية . فاذا كان الاسقف قابلاً للعزل بقرار من احد الجماع ، فهو لا يستطيع مبدئياً مغادرة مدينته الى مدينة اخرى : فقد حرّم ذلك مجمع نيقية ، وقد اضطر غريغوريوس النازينزي ، امام الانتقادات التي أثارها نقله من أسقفية أسبوية صغيرة الى أسقفية القسطنطينية ، الى تقديم استقالته والاتجاء الى خلوته قضى فيها ايامه الاخيرة . إلا انه يجوز اختيار الاسقف ، مها كانت مرتبة اسقفية ، حتى من بين العلمانيين ، وحتى من بين العلمانيين غير المعمدين ، على الرغم من مقررات مجمع نيقية ومن اندثار العادة القديمة التي كانت تؤخر المعمودية حتى وقت الاشراف على الموت . فهذا الاسقف كان شماساً انجيلياً . واوغسطينوس ويوحنا فم الذهب كانا كاهنين ، ولكن الاول سيم اسقفاً في هيبونا حيث كان كاهناً ، بينما انتقل الثاني من انطاكية الى القسطنطينية . وكان امبروسوس حاكماً على ولاية ميلانو حين انتخب اسقفاً لهذه المدينة . اما اليفي الكيريني سينيزيوس ، فان كثيراً من العلماء يشكون في انه

كان مسيحياً حين نزل عند الرغبة العامة ورضي بأسقفية بتولياييس . غير ان الشعب ، في اكثر الاحيان ، اعظم تأثراً ، لا سيما في الغرب ، بتقشف المنتخب وتقواه ومحبته للقریب منه باستقامة إيمانه . ثم فعلت التأثيرات الاجتماعية أو السياسية فعلها بصورة تدريجية . فعدا حظ أبناء العائلات الكبرى في الفوز بمنصب الأسقفية عظيماً جداً . ولم تكثف السلطة السياسية بالتدخل تدخلاً فقط في بعض الانتخابات ، بل فرضت فيها رأياً أحياناً ، كما فرضته دائماً تقريباً بصدد تعيين أسقف القسطنطينية بنوع خاص . فيوحنا فم الذهب مثلاً مدين لأفثروبوس ، مدير غرفة الامبراطور ، بوصوله الى هذه الاسقفية في السنة ٣٩٨ ، كما انه أقصي عنها بعد مرور خمس سنوات ، بتأثير من الامبراطورة .

بيد ان الكنائس ، صغيرة كانت أم كبيرة ، لم تكن منعزلة في حياتها الكنيسة : الجامع الخاصة التي يشرف عليها اساقفة يتمتعون بسلطة مطلقة . فهي ، من حيث مرور كافة علائقها الخارجية بالاساقفة ، تمي انتماؤها الى جسد واحد هو الكنيسة . أجل لقد جمع بينها ، منذ القديم ، الاتحاد في الايمان . ولكن العهد الامبراطوري الثاني قد أتى بشيء جديد هو احداث تنظيم تدريجي . لم تجمع القوانين بصورة نهائية بعد ، ولا يزال سير الآلة الطرية المود عرضة لصعوبات كثيرة . غير ان التطور التنظيمي قد ابتدأ ، مهما كان من غموضه ومن تقلب اتجاهه .

سلكت الكنيسة طريقاً تعودت سلوكها منذ القدم هي طريق الجامع : اذ ان الهبة الأسقفية فوق كل اسقف . فالتأمت مجامع كثيرة متنوعة جداً من حيث السلطة التي تدعو اليها ، ودائرة الاختصاص التي توجه الدعوات في اطارها ، وعدد الاساقفة الذين يشتركون في هذه المجامع . وكان انتهاء الامبراطور فرصة لمقد المجامع المعروفة بـ « المسكونية » ، وهي قليلة على كل حال : جمع نيقية في السنة ٣٢٥ ، وجمع القسطنطينية في السنة ٣٨١ ، وجمع افسس في السنة ٤٣١ ، وجمع خلقيدونيا في السنة ٤٥١ . فهو الامبراطور الذي يدعوم اليها لأنه بحاجة اليهم للفصل في مسائل عقائدية ، او للحكم على اسقف ذي نفوذ كبير . ويشترك في هذه المجامع أساقفة من خارج الامبراطورية : كالوفيل الذي توفي في القسطنطينية ، وبعض أساقفة الارمن والفرس ، الخ . ولكن هيئات ان يجتمع كافة الاساقفة : فلم يضم جمع القسطنطينية منهم سوى ١٥٠ فقط ، لم يكن بينهم أي اسقف غربي ، حتى ممثل البابا نفسه . وقد التأم أيضاً مجامع اقليمية كثيرة تتفاوت أهمية . ولكن صفار الاساقفة لم يرضوا عادة عن مثل هذه المجامع ، لأنها تتدخل أحياناً في شؤونهم . إلا ان التثامها ما لبث ان اصبح تقليدياً راسخاً . فاذا اخذنا بعين الاعتبار بعض التغييرات اللازمة ، اتضح لنا ، على الرغم من شتى ضروب الضغط ، ان شكل الحكم الجماعي هذا ، كان آنذاك ، في الكنيسة ، بفعل انتخاب الاساقفة ، أشبه بالحكم البرلماني : والفارق الهام بينها هو ان هذه المجامع لم تكن دورية .

وقد رافق شكل الحكم هذا شكل آخر غير جديد تماماً عرف آنذاك رؤساء الاساقفة والبطاركة انتشاراً عظيماً : سلطة فعلية وقانونية يمارسها بعض الاساقفة على أساقفة آخرين يصبحون رؤوسهم . اما صلاحيات هذه السلطة فهي تصديق الانتخابات ، والتوبيخ ، والقضاء الاستثنائي ، والدعوة الى المجمع ، الخ . واما اصولها فمختلفة جداً ، وهي عرضة لتبدلات كثيرة بفعل حزم او ضعف الافراد ، وبفعل التطور في أهمية المدن ، ولا سيما أهميتها الادارية ، اذ ان للحكومة مصلحتها في إحكام تسلسل السلطة التي تسهل عمل رقابتها وضغطها اذا اعتمدت تقسيماتها الادارية الجغرافية نفسها . فلا سبيل من ثم لأن ندرس هنا هذا التطور المرتج ؛ لذلك فنحن سنقصر الكلام على نتائجه الرئيسية .

اخضع المجمع النيقاوي اساقفة كل ولاية لأسقف مركز هذه الولاية ، « رئيس الاساقفة » . غير ان هذه الدرجة لم ترتد طابع الاهمية آنذاك ، بسبب تجزئة الولايات ، إلا في آسيا الصغرى . وكان هنالك تقسيم اداري آخر هو الابريشية : وقد استطاع اسقف مركزه هنا وهنالك ان يخطى ببعض النفوذ ، وقد أطلق عليه احياناً ، في الشرق ، اسم « اكسارخوس » ؛ بيد ان كل ذلك لم يخرج في الواقع عن نطاق المصادقات والملاءمات .

اما المراكز الاسقفية التي انفصلت حقاً ، أي تلك التي اطلق على أساقفتها اسم « البطاركة » ، فمدينة بنفوذها وأولويتها الى أسباب اخرى . فكان الباعث الى ذلك في أغلب الاحيان ، أهمية المدينة المادية ، واشاعها على منطقة كاملة ، وقدم كنيستها ، وتأسيسها على يد أحد الرسل ؛ ولكن الرجال كان لهم أثرهم أيضاً . فان أسقف قرطاجة الذي لم يفز قط بلقب « البطريرك » قد مارس مع ذلك سلطة لا جدال فيها على افريقيا . واعترف المجمع النيقاوي بمرتبة خاصة لاسقفي الاسكندرية وانطاكية : فكان الاول سيداً مطلقاً حقيقياً في مصر ، وبدا في بعض الظروف وكأنه يسيطر على الشرق بأجمعه . وفازت اورشليم ، في القرن الخامس ، بالبطريركية . اما النجاح الذي لفت الانتباه ، فهو نجاح القسطنطينية ، التي حالت بعض الأسباب دون ايراد ذكرها في نيقية في السنة ٣٢٥ . حرص الامبراطور على رفع مقام عاصمته . فاعتُرف لاسقفها ، منذ السنة ٣٨١ ، بالمرتبة الثانية ، مباشرة بعد اسقف روما ، ولكنه لم يفز بها ، في مجمع خلقيدونيا ، إلا بعد جهود شاقة وسلسلة من الأحداث الصاخبة .

لا يبقى أماننا سوى اسقف روما .

البابوية

لم يكن ممكناً ان تنافس هذه المدينة ، بسبب أهميتها الواقعية ، أية مدينة اخرى . فان عظمتها التاريخية ، المرتبطة بفكرة الامبراطورية نفسها التي لم يزعزعها غياب الامبراطور ، كانت آخذة بالازدياد : أضف الى ذلك ، على الصعيد الديني ، ان وجود مدفي القديسين بطرس وبولس ، والوعد الذي قطعه المسيح لبطرس مؤسس الكنيسة الرومانية ، قد أوليا هذه الكنيسة حقوقاً اخرى . فتمنى طالب أساقفتها بهذه الحقوق يا ترى ؟ ان المسألة موضوع

جدال . غير ان النصف الاول من القرن الثالث ، هو التاريخ الفاصل في هذا الموضوع ، ولا يعني ذلك ان مطالباتهم كانت شديدة دائماً . ولم ينكر أحد في الحقيقة اولوية البابا الشرفية - درجت العادة على اطلاق هذا الاسم عليه ، بعد ان اطلق على كافة الأساقفة في البداية - فقد اعترف له بها اعترافاً صريحاً المجمع النيقاوي وكافة المجمع المتعاقبة . ولكن شتان بين هذا الاعتراف وبين الخضوع له في العقيدة والنظام ، كالسماح له بأن يمارس فعلاً سلطة قضائية استثنائية : فكان هنالك ميل طبيعي الى الاستعانة بسلطته ، حين يرتقب المستعين وقوفه الى جانبه ، والى انكار قدرته على الفصل ، في الحالة المعاكسة . لذلك ستهز ، في وجه سلطته منازعات لا يحصى لها عدد .

برهن الشطر الاكبر من الغرب عن لين قياده بصورة عامة . ففي شبه الجزيرة الايطالية بنوع خاص شابهت سلطة البابا بقوتها سلطة اسقف الاسكندرية في مصر . أما في المناطق الاخرى ، كغاليا واسبانيا والىريا ، فقد تميزت العلائق ، من كلا الطرفين ، بمزيد من الدقة . ولا تتوحد اول براءة بابوية اصلية ، في المجموعات التي وضعت في القرون الوسطى والتي تتضمن نصوصاً مزورة كثيرة ، الى ما قبل السنة ٣٨٥ . وقد انطوت هذه البراءات ، وهي في الغالب اجابة على سؤال يتقدم به أحد الأساقفة ، على أنظمة عامة مبدئية . ولكنها قد بقيت نادرة - ١٧ حتى آخر القرن الخامس - ولم يهتم بعض الأساقفة الغربيين للتقيد بها .

اما المسيحيون الافريقيون ، بقيادة رئيسهم اسقف قرطاجنة ، فلم يتراجعوا امام مشادات على بعض العنف في القرن الثالث اولاً ، ثم في القرن الرابع مرة اخرى . وقد أتاحت احدى هذه المشادات للقديس اوغسطينوس كتابة كلمته المشهورة : « تكلمت روما ، اذن انتهت الدعوى » . ولكنه ما كان ليكتبها لو ان البابا زوسيموس لم يحكم له في ما كان يدافع عنه ، ناقضاً حكمه الاول ونازلاً عند القرار الامبراطوري .

اذا كانت هذه حال الغرب ، فباستطاعتنا ان نتصور حال الشرق بسبب وجود البطريركيات العظمى والعماد الذي رافق المشادات العقائدية . فقد جرت حوادث مؤسفة جداً . وقد اعترضت البابوية عوائق كثيرة ، فكانت نجاحاتها بطيئة جداً ايضاً ، لا بل ليس من الجسارة انكار واقع هذه النجاحات . ومهما يكن من الأمر ، فان شيئاً نهائياً لم يتقرر في العهد الامبراطوري الثاني . وأكثر من ذلك ، فان نفوذ أسقفية القسطنطينية المتزايد قد اقام اخيراً ، في وجه اسقفية روما ، منافساً كانت القطيعة معه ، في غد قريب او بعد ، امراً محتوماً .

يرد ذلك الى العامل السياسي . فان امبراطور الشرق ، الذي اقام في القسطنطينية ، ومارس حيال الكنيسة ما درجت تسميته بـ « بابوية القيصر » ، لم يترك لأسقف عاصمته مزيداً من الحرية ، ولكنه ، بالمقابلة ، سيساند مقاومته لروما . وعلى نقيض ذلك ، فان ضعف امبراطور الغرب وبعده عن عاصمته ، حتى قبل زواله ، قد أعطيا البابا استقلالاً عملياً عظيماً : فان حزم القديس

ليون مثلاً (٤٤٠ - ٤٦١) قد صادف بالتالي ظروفًا مؤاتية . فهو انما فاض اتيلا في السنة ٤٥٢ ، وجنسريك في السنة ٤٥٥ ، بناء على طلب الحكومة ومجلس الشيوخ : وكان من سلطته الادبية انها فرضت نفسها حتى على البرابرة الوثنيين او الآريين وانه قام مقام الامبراطور الخائر . فغدا البابا رئيس روما في الوقت الذي غدا فيه الاساقفة رؤساء مدنهم .

لا ريب من جهة ثانية في ان تطوراً مقابلاً قد قلل من سلطته على الكنيسة في الشرق حيث لم تكن قوية في يوم من الايام ، وفي الغرب حيث ذهب اقتسام الامبراطورية بين عدة ممالك بربرية بالسهول التي وفرها له وجود ادارة مركزية .

ولذلك فان مستقبل البابوية لم يكن بعد واضح المعالم عند نهاية العصور القديمة .

الفكر والفن

ان المقومات الثقافية في حضارة الامبراطورية الثانية ، اذا ما نظرنا اليها ككل ، لا تتسم في الحقيقة ، من حيث قيمتها المطلقة او النسبية ، بأهمية شبيهة بتلك التي تتسم بها حضارات أخرى في العالم المتوسطي القديم . ولكن هذا التفاوت محصور في الحقلين الفني والفكري . فالفكرة الدينية تم عن قوة حياة مدهشة ، ولا حاجة بنا للتشديد على الأهمية التي ترتبط ، في التطور العام ، بعهد يتسم بانتصار ديانة لا تزال حية في مئات ملايين النفوس حتى أيامنا هذه . وقد بلغ خلال هذين القرنين ، من المركز الذي احتله الواقع الديني ، ومن الدور الذي لعبه في الحياة الفردية وحتى الاجتماعية ، انه اتحد بيوهر مظاهرها السياسية والاقتصادية والاجتماعية . فلا سبيل لادراك أي من هذه المظاهر بدونه . ولذلك فقد توجب علينا فيما سبق ، عند الكلام عنها ، ان نتطرق اليه وندرس بعض شؤونه وبعض نتائجه . وقد آن الوقت لأن ندرسه في حد ذاته .

١ - الفكر الديني

سنحت الفرصة أكثر من مرة ، في الفصول السابقة ، للإشارة الى التأثيرات التي كان الشرق مصدرها آتئذ . ولكننا اشرنا اليها في عداد تأثيرات اخرى دون ان نلحظها في المرتبة الاولى . اما الحقيقة فهي انها تحتل هذه المرتبة دون منازع على الصعيد الديني . فقد كانت شرقية العبادات التي اضطرت النصرانية لناهضتها حتى تتحقق لها الغلبة . وكانت شرقية الديانة المسيحية نفسها . ونشأت في الشرق المجادلات الدينية وما رافقها من مشاققات أرغمتها على التعمق في عقيدتها بالذات . وهل من سبيل ، والحالة هذه ، لأن نستغرب هذه الاولوية ؟ فلم يبق الشرق ارضاً دينية ، شأنه في السابق ، فحسب ، بل تغلب من جهة ثانية على الغرب بالحداثة الفكرية والسحر الجمالي ، والنشاط الاقتصادي ، أي بكل ما يجعل البشر 'جسراً' ومغامرين ومستميلين ومقنعين .

١ - الوثنية

لقد ظهر اثر الشرق ، فيما يعود للوثنية ، بصورة قوية جداً ، منذ العبادات الشرقية
الامبراطورية الاولى ، ونحن لن نرجع هنا الى الدلائل التي قدمناها على
ومذهب توحيد الآراء اسباب وميزات التيارات الكبرى التي احدثها فيها . ولكننا نقول انها
برزت في القرن الثالث بمزيد من القوة .

فالقرن الثالث هو الفترة التي عرفت فيها عبادات الآلهة الشرقيين منتهى نجاحها . ونذكر
على سبيل المثال ان عبادات ايزيس وسيبيل ولا سيما ميترا ، وهي العبادات الرئيسية ، قد بلغت
آذناك اوج انتشارها الذي سهله لا تساهل الاباطرة فحسب بل مشايعتهم الشخصية ايضاً . ففي
السنة ١٩٧ أحيا سبتيموس ساوروس ، في مدينة ليون ، بتضحية ثور عظمى ، ذكرى انتصاره
على كلودوس ألبينوس . وشيد ابنه كركلا ، في روما ، هيكلًا لسيرايبس ، وجهرَ معبدًا لميترا
في دياميس حماماتها العامة . وغدا لقب ميترا (المنيح) لقباً من الالقاب الامبراطورية ، ويتضح
من كتابة رسمية تعود الى عهد ديو كليسيانوس انهم جعلوا من هذا الإله شفيع الامبراطورية .

وقد برز في القرن الثالث بمزيد من القوة ، ميل الى مذهب توحيد الآراء حظي بمساندة
السلطة . فجسده ايلابال تجسيداً يستدعي السخرية باحتفاله بأبهة بزواج بعل حمص ، الذي
كان هو كاهنه الاكبر وحمل اسمه ، من سيلستيس أي تانيت التي استحضرها من قرطاجه .
وكذلك فقد نقل الى المعبد الذي شيده لإلهه نارفيستا ، وتروس مارس المقدسة ، وكمبة الأم
العظمى ، أي سيبيل ، التي أتى بها مجلس الشيوخ من بستينونته الى روما ، في اواخر الحرب
البونيقية الثانية ، الخ . ولكن الواقع ، اذا ما وضعنا المستهجنات جانباً ، هو انهم قد رغبوا
في التقريب بين الآلهة فوق رغبتهم في الابعاد بينهم . ولعلهم شعروا ايضاً بميل فطري الى ان
يقيموا ، في وجه إله المسيحيين ، إلهاً واحداً يجمع في ذاته كافة الطاقات الكونية . وبحسب
الفكرة التي كونوها عنه ، كانت الغلبة لهذا الإله الخاص او ذلك : كالشمس مثلاً ، اما باسم
ابولون ، واما مباشرة باسمها اليوناني هليوس ، او اسمها اللاتيني سول ، او كجوبتير وسيرايبس
وميترا . وقد يحدث ان تطلق عليه جميع هذه الأسماء في آن واحد . ومهما يكن من الأمر ،
فقد انتقلت الصفات الإلهية من لمعان وسيطرة على العالم كله ، ومناعة ، دون أي تمييز ، من هذا
الإله الى ذلك ، ونسبت في آن واحد الى الامبراطور نفسه الذي غدا تجسيداً لهذا الإله الكلي
القدرة على الارض .

لقد سبق ورأينا ان الحركة الفلسفية قد جارت هذه الحركة الدينية منذ زمن افلاطونية اللوطين
بعيد ايضاً . فقامت في القرن الثالث بآخر خلق عظيم طلعت به العبقرية
اليونانية في حقل برهنت فيه عن اخصائها : اعني به الافلاطونية الحديثة التي
رسم خطوطها في الاسكندرية امونيوس ساكس ، في اوائل القرن الثالث . وقد اتقنها ودرّسها

في روما ، ما بين السنة ٢٤٤ و السنة ٢٧٠ تقريباً ، اغريقي من مصر هو افلاطون . فبرزت فيها نزعات العصر بالذات ، اي الحرارة المتهوسة والدعوة الى الرق واشتراك عناصر نظريات اخرى بالجوهر الافلاطوني ، اي البيثاغورية والارسطوطاليسية والرواقية .

استحث افلاطون الفكر على ان يتصور ، بفعل جهد تجريدي جريء ، وحدة مطلقة تنبثق عنها كل الموجودات ، العقل والنفس والجسد ، وكأنها سلسلة انعكاسات يزداد ضعفها تدريجياً . ولم يكن للواقع الظاهر من اهمية ، في نظره ، الا بالترتيب الذي يدخله عليه كائن اول تنصهر وتتسق فيه كل الاشياء . فيمكن القول ، من ثم ، ان دافعاً داخلياً قد حدا به الى الوحدة الالهية . ولكن نظريته في وحدانية الكون قد انطوت على الوهية الكون ايضاً ، لا بل انها لم تتناف ونظرية تعدد الالهة . افليس الالهة جميعهم منبثقين عن الكائن ؟ اصف الى ذلك ان بين العالم الإلهي الذي تنتسب اليه الكواكب وبين العالم الأرضي جماً غفيراً من الالبسة ليس باستطاعة الانسان اهماهم .

انتهى تعليمه عملياً الى الحث على قهر النفس والتكشف أمام المحسوسات . فاذا ما اخفق الانسان في ذلك ، فان هذه النفس الخالدة تتجسد في الحيوانات ، لا بل في النباتات احياناً . واذا ما نجح ، فانها تشارك الكواكب نورها وتتلشى في النهاية بدونائها في الاله . ولكن النجاح منوط بالاختطاف الصوفي الذي يعطي وحده الالهام السماوي ويوفر رؤية السعادة الاخيرة الاكيدة ، ويتيح بالتالي الفوز بهذه السعادة . وهكذا فان الافلاطونية الحديثة قد صرفت العقل عن البرهنة ولم تلجأ اليها الا لدحض فعاليتها

لم يرض افلاطون الاعتراف بديانة لا تكون داخلية . غير ان الافلاطونية الحديثة ، السحر بما انطوت عليه من تعليم حول الالبسة ومن تحللٍ عن العقل ، قد افضت الى نتائج بعيدة الاثر . فقد انضمت الى نزعات اخرى قديمة وكثيرة تمهدا واستغلتها بمخرقون عديدون . ولم يؤمن الانسان يوماً ، اقله في العالم اليوناني الروماني ، بمثل ما آمن به في هذا العهد من تأثير القوى الخارقة عليه تأثيراً مباشراً يومياً ، اي العرافة والتنجيم والسحر والرقية .

بين المؤلفات الادبية التي عرفت مزيداً من النجاح حتى اواسط القرن الرابع ، حياة ابولونيوس التياني التي وضعها معلم البيان فيلوستراتوس بناء على طلب جوليا دمنه امرأة سبتيموس ساويروس . فقد أظهر هذا البيثاغوري ، الذين عاش في عهد نيرون وسلالة فلافيانوس ، ليس فقط كزاهد يطبق المبادئ التي وضعها مؤسس المدرسة وعززها احياناً بالانقطاع عن أكل اللحم ، وارتداء الكتان الذي لا يداخله أي خيط من أضل حيواني ، والسير محتفياً ، وارسال لحيته وشعر رأسه ، والامتناع عن الكلام طيلة خمس سنوات ، والتجول في آسيا الصغرى ويران والهند ومصر قبل ان يقيم في روما حيث دعا إلى عبادة الشمس وتعاليم حكيمته ، بل كمجانبي ايضاً يجترح المعجزات المدهشة وينفذ الى أفكار البشر الحفمية ويفهم لغة البهائم وينبئ بالمستقبل ويشفي المرجان والعميان والمخلّعين ويوقف الوبئة والزلازل .

لمحو هذا الاتجاه المحرف الافلاطونية الحديثة بتأثير من خلفي افلوطين في ادارة المدرسة ، بورفوريوس الصوري ، ولا سيما جبليكوس السوري (من خلقيس) في عهد قسطنطين . فقد صادق جبليكوس ممتني علم « هتافات الغيب الكلدانية » . ودرجت عادة الكلام عن « السحر » بدلاً من « اللاهوت » الذي لم يف بالمرام ، لأنهم لم يكتفوا بمعرفة الآلهة بل طمعو بالعمل معهم وبواسطتهم وعلى غرارهم . فبرز كهنة أنشأوا « مختبرات » اخرجوا فيها مشاهد خادعة أذهلت المبتدئين بما تخللها من أشباح نورانية وموسيقى وأصوات غير مألوفة وروائح عطرية وأبخرة ، وظلال وتماثيل متحركة ، وأضواء متقلبة . ونحن نعرف أسماء بعضهم من كانوا ، في آن واحد ، فلاسفة وسحرة يتمتعون بكل سلطة وجاذب . ففي افسس ، علم مكسيموس ، في اواسط القرن الرابع ، أوليات اسرار هيكات التي تأثر بها الامبراطور جوليانوس ساعة إلحاده ، كما تأثر بالتفسيرات التي قدمت له عن هذه الطقوس وهذه الرموز . وقد عرف جوليانوس في اثينا ، بعد مرور عدة سنوات ، بريسكوس الذي كان شبيهاً بمكسيموس . وربطته بكليتها ، عندما أصبح امبراطوراً ، علائق صداقة كانت له جلية الفائدة : فعندما علم بدنو اجله اخذ يتحدث اليها ، من على فراش موته ، عن سمو عظمة النفس .

مارس جوليانوس عبادة ميترا ايضاً ؛ فرش بالدم لمناسبة تضحية ثور ، وأشرك في اسرار ايزيس . يتضح من ثم ان الوثنية التي تخلت من أجلها عن المسيحية لم يجمع بينها أي جامع تقريباً – تقريباً فقط ، لأن اسرار الفيسس التي أشرك فيها ايضاً لم تخل من الانصار القدماء – وبين وثنية القرون الكلاسيكية العظمى التي ادعى هو الاعتزاء اليها . فقد كان قوام وثنيته دققاً عاطفياً امام سر الطبيعة العظيم ، وقلقاً حيال خلاص نفسه واندفاعاً نحو سعادة الخلود الساوي . فشتان بينه وبين بريكليس واوغسطس وحتى مارك اوريل الذين اعتقدوا بالخرافات ، ولا ريب في ذلك ، ولكنهم وجدوا التهدئة بالخضوع لنظام الكون ا غير ان وثنية جوليانوس هي وثنية عصره . فقد غدا اولو الفضائل العقلية ، من أمثال الابيقوريين ، نادزين جداً ، واخذ الناس ينظرون اليهم نظرم الى الملحدين .

بيد ان جوليانوس والوثنيين المثقفين قد طمحو الى الدفاع عن الحضارة
الحضارة اليونانية والوثنية
اليونانية ، حتى بالخضوع الى هذه النزعات وباللجوء الى علوم السحر والتنجيم . ففي لغة الانجيل نفسها تظهر المضادة بين « هليني » و « يودي » : ولم يكن المقصود آنذاك تعدد الآلهة والتوحيد بقدر ما كان جهل شريعة موسى او التقيدها . فلم تقم المعادلة بين هليني ووثني إلا في العهد الامبراطوري الثاني ، وكان من استمرارها ان صفة « هليني » قد بقيت ازدرائية ، في البلاد اليونانية وفي لغة العهد البيزنطي وما بعده ايضاً ، حتى تحقق الاستقلال اليوناني في القرن التاسع عشر . وتأثر جوليانوس بنوع خاص على اعطائها هذا المعنى الذي اعتبره تقريبياً اذ انه درج على تسمية المسيحيين بـ « الجليليين » قاصداً بذلك « البرابرة » بكل ما في الكلمة من معنى محقر .

غير ان قانونه حول المدارس ، الذي سنعود اليه ، قد أعطى فكرة واضحة عن هذا الاستعمال لكلمة « هليئي » . فليس هناك من مدلول عنصري او لغوي ، بل مدلول ثقافي فقط . وان ما ابتنى اثباته الوثنيون هو اخلاصهم لمجموع تراث اضطر المسيحيون لأن يميزوا فيه بين المبني الذي قد يثير اعجابهم والمعنى الذي يرغمون على اهماله . ومرد ذلك الى ان الميثولوجيا المبنية على مذهب تعدد الآلهة قد اشبعت الروائع الادبية والفنية ، مفخرة الحضارة اليونانية التي نشأت في اليونان وتبنتها روما . وكان باستطاعة الوثنية ، مها طراً عليها من تبدل ، ان تقبل بهذه الميثولوجيا التي هي جزء لا يتجزأ من تراث فريد لم ترفض منه شيئاً واعتبرت من ثم انه وقف عليها .

وهذه لعمرى هي الفكرة الوثنية بعد موت جوليانوس وبعد اخفاق آخر محاولة سياسية التفت الوثنيون فيها حول المقتصب أوجانيوس . غير ان الحكومة الامبراطورية اخذت على نفسها ، منعاً واضطهاداً ، - فقد صدرت في عهد فالنيس بعض احكام الاعدام - القضاء على هذه الفكرة . فبينما لا يزال الوثنيون المثقفون الاخرون مكبين على علم اللغات في الغرب ، نزام ، في الشرق ، متغنين بماضي اليونان العلمي والفلسفي الجيد ، ولا سيما بافلاطون ، وبارسطو عرضاً . بيد ان الافلاطونية الحديثة قد واصلت تمايلها ، بصورة علنية ، في مدرستين مشهورتين هما مدرسة الاسكندرية ومدرسة اثينا . ويبدو ان الاولى ، وهي وريثة متحف البطالسة ، قد حادت عن انحرافات جبليكوس واهتمت بالعلوم ، اقله الرياضية منها . وخير من يمثل هذه المدرسة هيباتيا الحسنة والفاضلة ، ابنة الرياضي ثيون ومؤلفة بعض الابحاث الرياضية . فقد تتلمذ عليها سينيزيوس ، الذي ما انفك ، على الرغم من سيامته اسقفاً ، يعتبر نفسه « فيلسوفاً » . ولكن شهرتها اغضبت زعيم المسيحية في مصر ، الاسقف كيرلسوس المتجبر . فحدث في السنة ٤١٥ ، في اعقاب اشتباكات لم يلعب الوثنيون فيها اي دور ، ان قبض عليها بعض المتجنين وقتلوا ضرباً بالقرميد ومزقوا جنتها واحرقوها . فقرر هذا الاعتداء مصير مدرسة الاسكندرية . اما مدرسة اثينا فقد عاشت حياة اطول ، ولكنها لم تنفرد بشيء يميزها ، بل اكتفت بشرح اراء عظام المعلمين : امر جوستينيانوس باقفالها في السنة ٥٢٩ فلجأ اساتذتها الاخرون الى بلاد الساسانيين .

٢ - المسيحية

كان جوليانوس في عالم الأموات حين استجوبه غريغوريوس النازينزي قائلاً : « فما هو المبرر الذي يعطيك الحق ، دون غيرك ، في اعتبار نفسك هلينياً ؟ » والواقع هو ان المسيحية نفسها قد أفادت من الفلسفة اليونانية نفسها .

كان على المسيحية ، كلما اتسع شعاع انتشارها ، واذا هي حرصت على ارضاء اوريجينوس تطلبات المثقفين ، ان توضح وتنظم لاهوتها ، الشيء الذي يعني عملياً ادخاله في الاطارات الفكرية المحددة منذ زمن بعيد .

كانت المحاولة الجدية الاولى في هذا الاتجاه محاولة مدرسة الاسكندرية التي انتصبت منافسة للمتحف في اوائل القرن الثالث . دانت بنفوذها وأهميتها ، بعد القديس اكليمنضوس ، الى اوريجينوس الذي درس على امونيوس ساكس ووقف على دقائق الفكر اليوناني . كان ايمانه عظيماً ، فحاول ، انطلاقاً من تفسير الكتب المقدسة ، ان يدخل على العقيدة المسيحية عبارات توافق عادات الفلاسفة العقلية . وقد انطوت المحاولة على مزيد من المخاطر بسبب اطلاقها على مذهب المعرفة وبسبب ايهام العقيدة في اول عمرها ايضاً . فاضطر اوريجينوس للدفاع مراراً عن وجهة نظره . وأرغمته الصعوبات السلوكية التي باعدت بينه وبين أسقفه لأن يقضي السنوات العشرين الاخيرة من حياته خارج الاراضي المصرية ، لا سيما في قيصرية فلسطين . اجل لم يصدر الحكم على بعض تعاليمه إلا بعد وفاته بزمن طويل ؛ ولكنه قد صدر اخيراً .

ما لبثت هذه الجهود التي بذلت لتحديد اللاهوت المسيحي وتنظيمه ان اسفرت
مسألة المسيح
عن مسألة عقائدية خفيفة هي مسألة العلائق بين الآب والابن اللذين هما اقنومان
الهيان متحدان ومتميزان في آن واحد .

اروقتنا بعض البرديات المنشورة حديثاً على الخطوط الكبرى لجدال حاد اشترك فيه اوريجينوس ، حوالي منتصف القرن الثالث ، في الولاية العربية في الارجح . وقد بلغ منه في حتمى الجدال ان قال : « نحن نعتز بأن هنالك إلهين » . وكان قصده في ذلك الوقوف في وجه آراء مختلفة صادفت نجاحاً كبيراً في آسيا كانت تستهدف ، قبل أي شيء آخر ، الحيلولة دون تهشم الوحدة الإلهية . اما سابيلوس فقد اعتقد بأن الإله واحد وبأنه كلٌّ ، وبأن الروح القدس والمسيح ليسا سوى خاصياته ، وبأن هذا الاخير بنوع خاص ليس سوى الاسم الذي أطلق على مجيئه وعلى ما صنعه على الارض لأجل خلاص البشر . وعلى الرغم من الحكم على تعليمه بالهرطقة ، فقد ترك هذا التلميح أكثر من أثر في بعض الاذهان في اواخر القرن الثالث واوائل القرن الرابع . أضف الى ذلك ان حلولاً أخرى كثيرة وجدت من يناصرها : ويكفي ان نذكر بينها ، على سبيل المثل فقط ، مذهب التبني الذي رأى في المسيح انساناً تبناه الله وأسكن فيه كلمته . كانت هذه فاتحة الجدال حول مسألة المسيح : وسيقتضي لاقفاله قرون عدة .

وهكذا فقد قدّم آريوس ، قبيل فتح قسطنطين للشرق ، وخلال الجدال الذي قام بينه وبين اسقفه الذي اتهمه هو بنصرة مذهب سابيلوس ، الخطوط الرئيسية لمذهب وضّحه في وقت لاحق حين التجأ الى آسيا ، حيث تابع مجادلة التي لا تزال معروفة باسمه : ان المسيح الذي دنّسه الجسد ، وخضع للموت ، أبعد من أن يكون إلهاً أزلياً ؛ فقد خلقه الله وسيطاً بينه وبين الأرض من مادة تختلف اختلافاً كلياً عن مادته . تلقى هذا الكاهن الاسكندري علومه في انطاكية . وتميز بعارف لاهوتية وفلسفية غير عادية : وباستطاعتنا أن نظهر أوجه التشابه بين حلّه والحل الذي قدمته الافلاطونية لمسألة العلائق بين الكلمة والإله الخالق . ومهما يكن

من الامر ، فانه قد برهن ، في الدفاع عن آرائه وفي بثها ، عن حذاقة جدلية ، وقريحة رشيقة ، جعلتا منه ابناً للحضارة اليونانية ايضاً .

القضية الآرية حين أعيد له اعتباره ، بعد الحكم عليه في مصر ، بقرار من مجمع محلي التأم في

آسيا الصغرى ، كان ذلك تكريساً لقيام المشادة الآرية الكبرى . فطوال القرن

الرابع كله تقريباً ، مزقت هذه المشادة الكنيسة ، بل مزقت الامبراطورية نفسها أحياناً ، كما

سبق وقلنا ، اذ ان تهور قسطنطين قد جعل السلطة العلمانية تشترك في النزاع . ويبدو راجحاً

على الاقل ، من جهة ثانية ، ان تدخل الدولة ، الذي أضر كثيراً براحتها ومصالحها ، قد خلص

في النهاية وحدة الكنيسة التي كانت آنذاك أعمق انقساماً من ان تتغلب على انقساماتها بوسائلها

الخاصة . وقد رافقت هذه المشادة الطويلة حوادث ذات طابع سياسي أو اداري لا يحصى لها

عد . أما تلك التي أثارها تحديد العقيدة تحديداً ملازماً ، فلا ريب في انها أقل عدداً ، ولكنها

على كل حال ، اكثر عدداً واشد تعقيداً وأعمق بحثاً لاهوتياً من ان نتعرض لها هنا ببعض التفصيل .

بدا التحديد الذي أقره المجمع النيقاوي في السنة ٣٢٥ وكانه تسوية نهائية : الإبن مولود غير

مخلوق مساوٍ للآب في الجوهر (جوهر واحد *Homoousios*) : ولكن مقاومة الآريين ،

جددت النقاش وأطالته ، لا سيما بعد ان حظوا بعضد الامبراطور قسطنطين الثاني . وانتهى

الأمر بهم الى الانقسام شيعاً عديدة . فقبل البعض منهم ، وهم المعتدلون ، بتحديد المسيح « مساوياً

للإله في الجوهر » ، لا سيما وان الصفة اليونانية *Homoios* نفسها تحمل تفسيرين : اما « بمائل »

وإما « شبيه » . أما البعض الآخر ، وهم المتطرفون - وقد عطف عليهم قسطنطين في النهاية -

فقد رفضوا التشابه ، وقالوا بدونية المسيح المطلقة . فالتأمت بعض المجمع في سيرميوم في

السنتين ٣٥٧ و ٣٥٨ ، وأقرت على التوالي ، تحت ضغط الامبراطور ، ثلاث صيغ تتفاوت

تطرفاً ، ثم ابتدعت صيغة رابعة في السنة ٣٥٩ . ولعل الارثوذكسية (الرأي القويم) لم تحقق

الغلبة في النهاية إلا بفضل اغتصاب جوليانوس الذي أتاح لها أن تتنفس الصعداء على الأقل .

المهرطقات الاخرى عاد المجمع المسكوني الثاني (القسطنطينية ، في السنة ٣٨١) ، في جوهر

مقرراته ، الى قانون المجمع النيقاوي . وهكذا غدا هذ القانون قانون ايمان

الكنيسة الكاثوليكية . ومع ذلك فلم يكن الفصل في مسألة المسيح الا فصلاً جزئياً ، فقد برزت

فيها نواح اخرى وما لبثت ان تعقدت بمسألة مريم « والدة الإله » وكان المجمع نفسه قد حكم

على مذهب انكر كمال ناسوت المسيح الذي لا يمكن ان يتفق وكال الوهيته . فأثيرت مناقشات

ستفضي في القرن الخامس الى نشأة مهرطقات كثيرة نكتفي بذكر اهمها : النسطورية المدعوة لحياة

طويلة ، ان لم يكن في الامبراطورية ، فاقله في سوريا وبلاد ما بين النهرين ، وحتى التبت

ومنغوليا ، ومذهب الطبيعة الواحدة . فيتضح بالتالي ان توضيح العقيدة كان آخذاً بالتقدم

البطيء في وسط المنازعات الحادة .

اجل حادة ، ولكن في الشرق خصوصاً ، حيث امتدت الى الشعب نفسه مثيرة في بعض

الاحيان ، بفضل تأثير الرهبان ، اضطراباً على جانب كبير من السجس . اما الغرب فقد كان

أكثر هدوءاً . فعلى الرغم من الدور الذي لعبه في النزاع الآري بعض البابوات واسقف بواتيه ، القديس هيلاريون ، واسقف ميلانو القديس امبروسوس ، فمن الجلي ان المعنى الحقيقي لهذا النزاع قد فاق اكثرية المؤمنين ومعظم الاساقفة تقريباً الذين اعوزتهم قرون من الحداقة الفلسفية التي اعطت ثمارها آنذاك في ذهن الشرقيين .

لم تبرز حينذاك هرطقات كثيرة في الغرب . برزت اثنتان منها حول قضايا مسلكية واخلاقية : الدوناتية التي نجمت عن آراء متباعدة في السلوك الواجب اعتماده حيال اولئك الذين تراخت عزيمتهم أمام الاضطهاد ، وتحولت بسرعة الى نزاع اجتماعي الطابع ، والبريسليانية التي نادى بصوفية متقشفة . ولم تداخلها الا في عهد لاحق ، اي في اوائل القرن الخامس ، المسألة العقائدية : مسألة الخطيئة الاصلية والنعمة ، وقد وقف القديس اوغسطينوس فيها موقفاً شديداً ضد البلاجيانية التي حكم عليها في النهاية . فجلي ان هذه الهرطقات ليست شيئاً يذكر اذا ما قورنت بالمناقشات حول المسيح التي اتصفت بمزيد من الحرارة والعنف في الشرق . اضيف الى ذلك ان الشرق ، على تحمسه لقضايا العقيدة ، قد عرف في الوقت نفسه ، اكثر من الغرب ، شيئاً تتصرف في حياتها اليومية تصرفات تتفاوت تشدداً في الأمور الأخلاقية : فظهرت قوة نسفه الديني في النصرانية ، كما ظهرت من قبل في الوثنية .

من النافل تعداد هذه الشيع : اذ ان واحدة منها لم تنتشر انتشاراً واسعاً . اما المانوية فقد عرفت انتشاراً اوسع . ولكنها لم تكن مسيحية المنشأ ، واذا احصاها اباطرة القرن الرابع بين الهرطقات التي حكموا عليها في قوانينهم ، فرد ذلك الى انها قد جمعت اتباعها من بين المسيحيين ايضاً .

تأسست حوالي السنة ٢٤٠ في بلاد بابل على يد ماني - اما مانيشه فتعريف للتسمية السريانية « ماني الحي » - احد رعايا الملك الساساني الذي عاقبه بالموت في السنة ٢٧٧ وربما علق جثته المشوة مَوْصاً عند مدخل احدى المدن . اقتبست هذه العقيدة عن المادية الايرانية ففكرة ثنوية اساسية هي التضاد بين الخير والشر . ولكنها جمعت الى هذه الفكرة عناصر اخرى بوذية ومسيحية ومعرفية . قالت بنهاية العالم وأوصت ، انسجاماً مع هذا القول ، بالامتناع عن خدمة الدولة وبالعفة عن طريق رفض الزواج . وقد قام على ادارة شؤون اتباعها كهنوت منظم المراتب يضم « المختارين » الذين « يصنعون الخير » ، و « الكهنة » و « الاساقفة » ، و « الرسل » ، ورئيساً اعلى .

منذ عهد باكر جداً ، وحتى قبل معاقبة ماني بالموت ، انتشرت الدعاوة المانوية خارج المملكة الفارسية . فمن جهة بلغت الهند وآسيا الوسطى حيث اصبحت المانوية في تركستان دين الدولة في القرن الثامن ، وانتقلت من جهة ثانية ، بواسطة العرب ، الى مصر حيث كانت نجاحاتها أمراً واقعاً حين قام ديوكليسيانوس بمجملته . وامتدت بعد ذلك الى آسيا الصغرى وافريقيا واسبانيا وايطاليا ، على انها لم تتمتع في هذه المناطق اطارات ضيقة من المطلعين على اسرارها . فأصدر

الاباطرة المسيحيون ، بعد قانون ديوكليسيانوس ، اوامر عدة باضطهادها . ولكن الاضطهاد لم يسفر عن نتيجة في البداية : والدليل على ذلك ان القديس اوغسطينوس ، قبل اهتدائه ، كان مانويا في افريقيا وفي ايطاليا بكل طمأنينة . الا انه اصبح اعظم فعالية منذ اواسط القرن الخامس ؛ وعلى الرغم من ذلك ، فلعل حياة المانوية كانت اطول من حياة الامبراطورية من حيث انها وجدت وريثاً لها في هرطقة الانقياء الأليبيين (*Cathares albigenis*) .

على الرغم من الاضطرابات التي هزّت المسيحية ، فقد انضم اليها باطراد مسيحيون جدد كثيرون . غير ان تهافت هؤلاء لم يبق دون نتيجة . لا سبيل الى انكار الرواسب الوثنية في العبادة المسيحية . اجل لا يجوز ان نجسمها او نعتقد خصوصاً بالابقاء عليها عن سابق قصد وتصميم . وبما لا ريب فيه ان الاساقفة ، منفردين او مجتمعين ، قد قاوموها جهد المستطاع ، واصمى اخفاءها والعود اليها بالعار . ولم يكن القديس مارتينوس ، المتصلب جداً ، بمن يتساهلون مع الاصنام والخرافات . ومع ذلك فان خير دليل على قوة العادات التي لم يستطع المسيحيون الجدد التخلص منها هو التسليمات والتخلّيات التي وجب القبول بها .

فرض هؤلاء المسيحيون اعياداً . فأحدث المرفع بتأثير من اعياد ساتورن واحتفل به بتاريخ اعياد اللوبرك . ولما كانت بعض العبادات الوثنية تحمي ذكرى ولادة إلهها ، فقد توجب احياء ذكرى ميلاد المسيح . وقد حصل بعض التردد في تحديد تاريخه . فاختروا في البداية اليوم السادس من شهر كان الثاني (يناير) الذي يوافق في مصر عيد ولادة اله ابن عذراء ايضاً . ثم ما لبث هذا التاريخ في القرن الرابع ان اصبح تاريخاً لعيد الظهور (العباد) لأن الرومان فرضوا على كافة المسيحيين اليوم الخامس والعشرين من كانون الاول (ديسمبر) تاريخاً لعيد الميلاد: فان هذا اليوم يوافق في نظرهم ، منذ القرن الاول قبل المسيح ، انقلاب الشمس الشتوي ، وقد ارادوا ان يكرسوا للمسيح العيد الذي يحتفل به في هذا اليوم احياء لذكرى مولد الشمس . وفرض الايمان الشعبي الابقاء على الاماكن المقدسة بما فيها الينابيع والبقع الجرداء في الغابة ، الخ . كما فرض الملائكة والصور والتائم وتوسيع عبادة الشهداء وذخائرهم .

ومن حيث ، ان عبادة الديانة الظافرة توجهت منذئذ الى الجماهير ، بات من غير المقبول احيائها على غرار عبادة الفئات الصغيرة المزغمة على التخفي خشية من الاضطهاد . فأفضى ذلك الى الفصل بين المؤمنين والاكليروس . وأحيطت العبادة خصوصاً بأبهة وفرتها لها ثروة الكنيسة . فشيدت الكنائس الملكية ووسعتها وجلتها . واعتمدت طقوساً أكثر تدقيقاً . وأضافت الى الصلاة والقراءات الروحية والتناول بعض العادات الخارجية ، كالآيماوات والترانيم والموسيقى ، القمينة بتغذية وتجريك حرارة الايمان في النخبة والسذج على السواء .

وهكذا استطاعت المسيحية ، بسنى مساكنها الالهية ونبل طقوسها وعظمة اعيادها ، ان تقدم لمؤمنيها فوق ما قدمته لهم الوثنية . واذا ما أتى بعض الآلهة بوعود خلاص مماثلة لوعودها ،

فان تعاليمها قد انطوت على شيء جديد على الاقل، هو المحبة؛ فما من قيمة للايمان، في نظرها، بدون الاعمال، وقد سبق لنا ورأينا ان هذه الاعمال، بفعل دعوتها، قد تكاثرت بغية محاولة تخفيف الشقاء البشري. « فليبرهن كهنتنا عن محبتهم للقريب بأن يضعوا، بطيب خاطر، القليل الذي لديهم تحت تصرف المعوزين ». بهذا الأمر الذي اصدره الى الكهنوت الوثني، أتى جوليانوس ببدعة جديدة اقتبسها عن المسيحية واعترف اعترافاً ضمنياً بتفوق الكنيسة التي ابتعد عنها. وانطوت بالاضافة الى ذلك على شيء جديد آخر دفع الى تمجيد البتولية، ان لم يكن الى الحكم على الزواج، هو جحد الدعارة والفجور. وأدت كذلك، بعد فشل محاولة الاسكندر في ذلك الى نقصان مبارزات المسافين تدريجياً. ولا يمنع الابقاء على الرق من الخلوص الى استنتاج واجب، الا وهو ان الثورة الدينية قد رافقتها ثورة اخلاقية.

٢ - الحياة الفكرية

لا يسمنا القول، على نقيض ذلك، ان ثورة فكرية قد رافقتها ايضاً.

١ - الظروف العامة

استمرار سحر الثقافة التقليدية
ان التصميم على الاستمرار، في شؤون الفكر، يبرز بقوة في تصرفات النخبة الاجتماعية.

غالباً ما ينحدر الاباطرة من طبقة أكثر اتضاعاً منها في السابق. ولكن هذا القول يصح خصوصاً في الكلام عن جنود سعداء وخشنيين هم الاباطرة الايريون في النصف الثاني من القرن الثالث. فكلهم، بعد غاليريوس ومكسيمينوس دايا، ابناء اباطرة أو اقله أبناء ضباط من المراتب الرفيعة نسبياً. واسوة بما جرى في العهد الامبراطوري الاول، كان مهذبو الامراء الحديثي السن من الاساتذة الذائعي الصيت. فقد طلب قسطنطين الى لاكتانس تهذيب كريسبوس، وأتى فالنتينيانوس الاول بأوزون من « بوردو » الى « تريف » لتهذيب ابنه غراسيانوس، ووكّل ثيودوسيوس الى ثيمستوس أمر تهذيب ابنه اركاديوس. وأسوة بما جرى في العهد الامبراطوري الاول ايضاً، توصل بعض الادياء الى المراتب الرفيعة وحتى الى مناصب الادارة. وخير مثل، من هذا القبيل، هو اوزون: عينته والد تلميذه كونتاً ووزير مالية البلاط، ثم عينه تلميذه، الذي أمسى امبراطوراً، قنصلاً وقائد حرس في غاليا التي ضمت الى ايطاليا بهذه المناسبة، بينما عين كافة أعضاء عائلته في وظائف مرموقة. واذا ما تركنا لحالة جوليانوس طابعها الاستثنائي، وهو من يستهويها القول بأنه كاتب قبل كل شيء آخر، لو لم يكن فوق ذلك فيلسوفاً صوفياً، فاننا نلمس عند جميع اباطرة القرن الرابع عطفاً حقيقياً على النشاطات الفكرية. ولم يعبروا عن هذا العطف بأعمال يفيد منها بعض المحظيين دون غيرهم: فهم، بدون استثناء، قد أعفوا الاساتذة من فريضة التسخير، غير أنهم لم يدخلوا في عدادهم المعلمين الابتدائيين.

ليس الخطأ خطأ النظام اذا ما بدت لنا هذه النشاطات متوسطة الصفات . اجل كان للنظام مطالبه ، ولم يترك مزيداً من الحرية . ولكن نظام الامبراطورية الاولى نفسه قد دعا الى امتداح الملك في خطب رسمية ، وبرع في اذلال المقاومة على صعيد الفكر اذا لمس ان لها أدنى انعكاس سياسي . فحدث الشيء نفسه آنذاك ، ولكنه اتصف بمزيد من القسوة في استجواب المشتبه بهم وفي اعدام المحكوم عليهم . ولعل نفوذ علماء البيان أتاح لهم اسداء النصائح العلنية بمزيد من الحرية ، وغالباً ما يخفي ذلك نقداً ضمنياً . فلن نرى شيئاً ، « في تأبين ترابانوس » ، مما يستشف من الخطب التي وجهها ثيمستوس الى فالانس . وقد يشعر ليبانيوس ببعض المخاوف الشخصية في بعض محاولات الاعتصاب ، ولكن ليس ما يشغل منه الفكر حين يدافع عن المعابد الوثنية او ينتقد حق الحماية . اما في التاريخ ، حتى القريب منه ، فيبدو ان اميانوس مرسلينوس يتمتع بحرية تامة في النقد والمديح .

لا يزال المثل الثقافي الاعلى ، في الحقيقة ، مماثلاً له في السابق . فعلى غرار ما حدث في النطاق السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، تابع التطور سيره في الاتجاه الذي يمتد منذ زمن بعيد . أضف الى ذلك انه لم يطرأ عليه ، تحت تأثير صدمة الكوارث الزمنية ، ذلك الاستعجال العنيف الذي أفضى الى تصلب السلطة المطلقة وشجع الدولة على توجيه الاقتصاد واختار المجتمع . فالتبلاء المجلسيون ، في المقاصف ، ما زالوا يملأون أوقات فراغهم بالنوادير الفكرية والادبية ، على غرار ما كان يجري في عهد الانطونيين ، وكأنهم استمرار للعائلات الكبرى التي قضت عليها أعاصير القرن الثالث الثورية ، ومرد ذلك الى ان حداثة عهدهم في الغنى قد جعلتهم يتجاهون بالاستئثار بأفضل التقاليد . واننا لنجد بين « اللامعين » ، كفتة الشيوخ الرومان التي شكلت في النصف الثاني من القرن الرابع ، حصن الوثنية المنيع في ايطاليا ، عقولاً رزينة وأدباء ظرفاء ومفسرين لروائع الادب اللاتيني يتحلون بعلم واسع . ولكن السيئات نفسها متاثلة ايضاً . فاننا نجد المتكلمين الذين يعتمدون طريقة الأشعار القصيرة وطريقة التقليد ، بصنعية هي أشبه بصنعية عهد هدريانوس . أضف الى ذلك ان المجتمع الرفيع كله قد اولع بالبيان . اجل ان الميل اليه قديم العهد ولكنه قد ازداد قوة . ولم يحتل في يوم من الايام المركز المرموق الذي احتله آنذاك : فليس من احتفال امبراطوري بدون خطبة أهبة ، وقد درجت الولايات على هذا التقليد بغية الاحتفاء بكمبار الموظفين الذين يسارعون الى توزيع هذه المدائح . ولجأت الادارة احياناً ، لملء المراكز الفنية ، الى تعيين قدامى تلامذة معلمي البيان ، بعد عدة سنوات على الأكثر يقضونها في الحمامة ويتعودون خلالها معالجة الشؤون المختلفة : وهذا دليل على الاعتقاد السائد بأن البيان هو مادة التربية الاساسية التي تعد الانسان لتولي شتى المناصب . ويحلو لنا الاستشهاد بكلمة مشهورة لأحد خطباء اوتين : « ان علم اجادة الكلام هو علم اجادة العمل ايضاً » .

ان لهذا الاستمرار تفسيره في استمرار التعليم ، كما انه بدوره يفسر استمرار التعليم ايضاً .

تواصلت الجهود في سبيل فتح المدارس وتضاعفت واستلذمت تضحيات يتوجب علينا ان

نصفها بالبطولية اذا ما فكرنا بالصعوبات التي اعترضت آنذاك سبيل الطبقة المتوسطة. ويبدو في الواقع ان الدولة لم تبذل مزيداً من الجهد : فهي لم تنظم التعليم العالي في القسطنطينية قبل السنة ٤٢٥ . ولكن المدارس البلدية توفرت منذئذ لكافة المدن تقريباً ، على تفاوت في العدد وفي درجة التعليم . اما انتقاء المعلمين فنوط بالعائلات المحلية التي تنظم مباريات حقيقية - في الفساحة ، طبعاً - بين المرشحين ، والتي كثيراً ما تخضع لضغط الادارة : فكبار الموظفين ، وحتى الامبراطور نفسه ، قد أعاروا هذه التعيينات اهتماماً خاصاً في المراكز الكبرى. ودفعت المدن للاستاذة مرتباً رسمياً ما لبثت الحكومة ، بوحى من اوزون الذي ما زال يتذكر عمله التدريسي في بوردو ، ان حددت قيمته في النهاية . ولكن هذا المرتب ليس سوى كسب مضمون لا يكفي لتأمين المعيشة ، يضاف اليه مجموع الرسوم المدرسية المستوفاة من التلامذة . لذلك فقد لجأت المنافسة ، بين مدينة ومدينة ، وبين معلم ومعلم ، الى أساليب مضاربة تخلو من اللياقة احياناً . ويمكننا التأكيد بأن معلم بيان ذائع الشهرة ، كـ«ليبانيوس» في انطاكية مثلاً ، ابعده من ان يتوفر له يسار مالي دائم . ولذلك ايضاً فان تدني المنتسبين الى البورجوازية مرده الى سبب غير نقصان المدارس : فهي في المدن أكثر منها في أي وقت مضى ، ولكنها ما زالت نادرة في الارياف كما في السابق .

لم يتبدل النظام التربوي اذن منذ العهد الامبراطوري الاول . فما زال ينطلق المسيحية والمدرسة :
 من دراسة الشعراء ، والخطباء ، والمؤرخين الذين ينظر اليهم ابدأ من زاوية قانون جوليانوس
 البيان ، وبكلمة من دراسة الروائع الكلاسيكية العظمى موضوع الاعجاب العام : وما زال الولد ، حتى في ذاك العهد ، يتعلم القراءة في مؤلفات هوميروس وفرجيل .

لم يحاول المسيحيون أنفسهم تغيير هذه العادات على الرغم من الانتقادات التي وجهها اليهم أشدهم تصلباً في امور الاخلاق ، كـتوتوليانوس مثلاً. لقد سلخوا هم ايضاً بأن التربية الكلاسيكية ضرورية لتهديب العقل ، اذ انها تجمله بالذوق والادراك ومعنى الجمال وقواعد البرهنة . فهي بالتالي ابعده من ان تقف في وجه أي نمو لاحق ، لأنها بدت وكأنها تجيز وحدها كل نمو . فكان كافياً للديانة الجديدة ان تحذر من عبادة الاصنام وان تستخدم ما هو أمامها بأنت تضيف اليه تعليمها الخاص بواسطة العائلة او الكنيسة . ومنذ القرن الثالث كان الفوز حليف هذه التسوية ، كما نرجح . فمارس بعض المسيحيين ، دون تنازل منهم عن أي من معتقداتهم أو أي من التقاليد المدرسية ، مهنة التعليم في مدارس الاولاد ، حتى الوثنيين ، اولاً ؛ ثم في معاهد التعليم العالي من بيان وفلسفة ، بينما تابع تلامذة وطلاب مسيحيون دروسهم على أيدي معلمين وثنيين : وقد سلم الطرفان بكل ما استلزمه هذا الوضع الراهن من تساهل متبادل .

لم يبرز الخلاف ، وهو قصير الامد على كل حال ، إلا بمبادهة من جوليانوس . فلم يرض هذا الاخيز ان يميز ، في الثقافة اليونانية التي اراد الدفاع عنها جملة ، بين المبني والمعنى ، بين التعبير الجمالي والعقيدة . ولذلك فقد اصدر في السنة ٣٦٢ قانوناً مدرسياً قيد السلطات البلدية بشروط

اخلاقية في انتقاء المعلمين المطلوب منها تعيينهم وألحقه بكتاب دوري يوضح ان هذه الشروط لا تتوفر في المسيحيين لأنهم لا يستطيعون تفسير الروائع الكلاسيكية تفسيراً زهياً: «يا للعجب! أفلم يعترف هوميروس وهيزيود وديموستينس وتوسيديد وايزوقراط ولينياس بالآلهة هداة لكل تربية؟... فمن الخرق في نظري ان يلجأ مفسر روايتهم الى احتقار الآلهة الذين أكرمهم... وإذا ما نسب احد الناس الحكمة الى من يفسر روايتهم، فالواجب يقضي عليه قبل كل شيء باقتفاء تقوam نحو الآلهة. اما اذا تصوّر انهم أخطأوا بصدد أعظم الكائنات احتراماً، فليذهب الى كنائس الجليليين كي يفسر فيها متسى ولوقا». بديهي ان هذا الاقتراح تهكمي في نظر جوليانوس بسبب ركاكة الاناجيل الادبية. وهكذا ارتأى المسيحيون ايضاً، وقد ثار ثائرم بعد ان أقصوا بذلك عملياً عن التعليم، على ان بعضهم قد سارعوا الى نظم الكتاب المقدس شعراً والى تأليف المآسي والمهازل في مواضيع مستوحاة من العهد القديم والى افراغ الاحاديث بين يسوع ورسله في حوارات على الطريقة الافلاطونية.

غير ان قانون جوليانوس المدرسي قد مات بموت واضعه: فقد فتح باب التعليم مرة اخرى للمسيحيين الذين عادوا الى النصوص التقليدية وما تنطوي عليه من ميثولوجيا ولتى عهدا. وسيقتضي زمن طويل حتى تظهر المدارس وأصول التربية المسيحية بالذات. وليس اللاهوت نفسه آنذاك، على الرغم من بعض المحاولات، كمحاولة اوريجينوس في الاسكندرية مثلاً، موضوع دراسات نظامية: وليس امام الكهنة والمؤمنين، للوقوف على مبادئه، سوى المناقشات لتي يحضرونها والعظات التي يسمعونها والقراءات التي قد يقومون بها. اما المدرسة الابتدائية فقد انتظمت في بعض الاديرة فقط بغية تعليم الرهبان الاميين. لذلك فسيكون نموها بطيئاً في هذه الاديرة، على غرارها في المدرسة التي سيرغم الاساقفة في الغرب على احداثها، لأجل تعليم كهنتهم، اختناق الحياة في المدن..

اقتبس النظام المدرسي في العهد الامبراطوري عن النظام الذي وضعه الاغريق خلال العهد الهليني ودام ما دامت العصور القديمة. وهو لم يضمحل في تاريخ معين بل تلاشى تدريجياً. وبما ان المدرسة هي التي توجه او تسيّر الحياة الثقافية في مجتمع ما، فان ديمومة هذا النظام هي التي تدعو الى القول بامتداد العصور القديمة نفسها حتى النصف الثاني من القرن الخامس، دونما بحث عن ربط نهايتها بحدث سياسي معين.

على ان بدلاً قد حصل منذ العهد الامبراطوري الثاني: فالمدرسة لم تحسن الحفاظ،
الوضع التنويري كما في السابق، على الوحدة التي وفرتها اللغة بل اللغات للامبراطورية ما دام
الشرط الذي قامت عليه هذه الوحدة هو ازدواجية اللغة.

استمرت هذه الازدواجية أساساً ومثلاً أعلى للتربية التي يتلقاها الشباب. وقام الشروق، من هذا القبيل، بمجهود حقيقي لتعلم اللغة اللاتينية. فقد تعاطم شأن دور الادارة، وتعاطم بالتالي شأن اللغة اللاتينية التي بقيت اللغة الرسمية. الوحدة لقيادة الجيش والوثائق التشريعية وأحكام

القضاة . القسطنطينية مدينة يونانية ؛ ولكن الموظفين فيها يكتبون باللاتينية تاركين للسلطات المحلية أمر تأمين الترجمة . ولم يبدأ استخدام اللغة اليونانية في الاحكام ، إلا في اواخر القرن الرابع ، وفي التشريع ، في عهد جوستينيانوس . أضف الى ذلك - على نقيض ما حدث في السابق - ان بعض الشرقيين قد استخدموا اللغة اللاتينية في نشاطهم الادبي : كالأورخ اميانوس مرسلينوس الانطاكي في القرن الرابع ، والشاعر كلوديانوس الاسكندري في اوائل القرن الخامس ، وغيرهما ايضاً ممن هم دونها شهرة . وكان كل ذلك نتيجة لاولوية الغرب السياسية والعسكرية ولاعجاب بعض الشرقيين بروما وبماضيها المجيد . فلا يجب من ثم ان نرى في ذلك دليلاً على تفوق الحضارة اللاتينية فكريباً على الحضارة اليونانية . واذا حققت اللغة اللاتينية آنذاك ، كلفة رائجة ، بعض التوسع الاقليمي في البلقان (انظر الشكل ١٢-ص ٤٦٣) ، فمرد ذلك ، في الأرجح ، الى وضع احصائي مجهل معطياته والى وجود الجيش على الدانوب وتزوح العناصر اللاتينية عن داسيا المتخلى عنها .

اما في الغرب فقد مال استعمال اللغتين الى الزوال . فقد انطوى انتشار هذا الاستعمال ، في الحقيقة ، خلال العهد الامبراطوري الاول ، على عمل بطولي متناقض لانه سبق للغة اللاتينية ان أثبتت اهليتها كلفة ثقافة . وبعد ان اعتمدت الكنيسة الغربية اللغة اللاتينية كلفة طقسية ، لم تعد معرفة اللغة اليونانية ضرورية للاكليروس . ومنذ القرن الرابع اكتنف الغموض المجدالات اللاهوتية بسبب الجمل المتبادل لدقائق اللغتين : فمع ان تركيب الكلمة اللاتينية *Substantia* (جوهر) مماثل لتركيب الكلمة اليونانية *Hypostasis* ، فليس للكلمة اللاتينية المعنى نفسه قط ، الشيء الذي اثار اكثر من سوء تفاهم بين انصار القانون النيقاوي . وما زال بعض الاساتذة اليونانيي الاصل يعلمون اللغة اليونانية في المدن اللاتينية . وقد عرفنا منهم ، بواسطة أوزون ، خمسة في بوردو . ولكن المجهود قد صعب على التلامذة فنفروا من هذه الدروس : وقد اعترف اوزون « بانه ارتكب في حادثة سنة خطأ فادحاً صرفه عن الدروس اليونانية » ، واضطر القديس اوغسطينوس ، لمقتضيات لاهوته ، الى تعلم اللغة اليونانية في شيخوخته ، ولكن الأمر لم يكن سهلاً عليه ، فلم يتمكن قط من اتقانها جيداً . ولم يدم استعمال اللغتين الا في اوساط الارستوقراطية الرومانية الواسعة الثقافة التي ما زال باستطاعتها استخدام المربين الخصوصيين . على الرغم من استمرار الوحدة السياسية ، جاء التطور مماثلاً في الواقع لذلك الذي ظهر في الشرق بفعل نهضة اللغتين البلديتين ، القبطية والسريانية . بيد ان نجاح اللغة اللاتينية ابعده رسوخاً في الغرب على الرغم من يقظة اللغة الكلتيه آنذاك واتيان القديس اوغسطينوس على ذكر اللغة البونيقية ، اللذين قد يفسرهما نشاط جديد استعادته هذه اللغات القديمة . ولكن تقهقر المدن وضعف البورجوازيات البلدية قد رافقها بالضرورة بعض الانكماش منذ ذاك الحين ؛ فكانت النتيجة المحتمومة ظهور اللهجات الاقليمية الخصوصية تحت تأثير الفطرة الشعبية ، التي ستزداد قوة في العهود اللاحقة بفعل تأثيرات اخرى . واذا ما اقتصرنا على اليونانية واللاتينية ، جاز لنا التأكيد ، حين تفضي الاحداث السياسية وغزوات البرابرة الى انفصال الامبراطوريتين ،

ن هذا الحدث سيسهله الحد من استعمال هاتين اللغتين .
لا يجوز ان نغالي في نتائج هذا الوضع على الصعيد الفكري . فنذ قبل نهاية العهد
الامبراطوري الأول كان لكل من اللغتين تراث قمين ، بثروته وتنوعه ، بتهديب العقل وتوجيهه
في اية طريق يسلكها . اصف الى ذلك ان كل كتاب ينطوي على بعض الامة لا يلبث ان يُنقل
اقله من اليونانية الى اللاتينية .

٢ - المؤلفات

ليس والحالة هذه من تبدل يذكر في الظروف العامة . ومع ذلك فان النتائج المحققة ، اذا ما
نظرنا اليها كمجموع ، ليست من الامة بكان . فالانحطاط الذي نلمسه في القرن الثالث بنوع خاص
— والذي يحتمه الاضطراب العام — قد توقف بعض الوقت في القرن الرابع ، ثم عاد الى الظهور
متسماً بحركة حثيثة .

ان هذا التقهقر لمحزن على الصعيد العلمي . فان بعض التقدم في التطبيقات العملية ،
التقهقر العلمي الذي لا يجوز ان نقدره فوق قدره ، أبعد من ان يخفي ما هو أعظم خطورة :
تأخر الروح العلمية وانصرافها عن الملاحظة والبحث بشغف مجرد ووفقاً لقواعد المنطق . فهل
من ريب في ان المسؤولية الكبرى في ذلك تقع على الاولوية التي سلم بها الانسان آنذاك للمشاكل
الدينية ؟ شقت الوثنية هذه الطريق بفعل سيطرة الصوفية عليها . فهي قد شعرت قبل أي شيء
آخر بالميل الى دقق عاطفي وبال حاجة الى الاتحاد بالكائن المطلق : لم تبد لها معرفة أسرار الكون
أمراً مرغوباً فيه إلا اذا قادت الى يقين راسخ حول الحكمة الإلهية ؛ بل تصبح محزنة اذا صرفت
النفس عن العبادات التي تشكل واجبها الرئيسي وعزاءها الاوحد . غير ان هذا الموقف المنافي
للعلم قد صادف انصاراً أشد حماساً ايضاً عند المسيحيين الذين حصلوا على الوحي الاعظم الذي آتاهم
اياهم الكتاب المقدس فتوجب عليهم بالتالي ان يستغرقوا في درسه . وليس من العسير علينا ان
نجمع ، لدى آباء الكنيسة ، تصريحات مبدئية تصدر حكماً مهتماً على كل مجهود يبذل في سبيل
غايات أخرى . ولم يشذ عن هذه القاعدة سوى القديس باسيليوس الذي رضي بالبقاء على بعض
التحقيقات السابقة بمقدار ما تتيح ادراك عمل الخالق العجيب ادراكاً افضل . اما النظرية التي
عرفت ألراج فهي تلك التي حددها القديس اوغسطينوس باعلانه نافلاً كل ما هو خارج اطار
الكتاب : « كل ما يستطيع الانسان تعلمه خارج الكتاب يخطئه الكتاب اذا كان مضراً ، ويحتويه
اذا كان مفيداً » .

ليس بكاف من ثم ان نتكلم عن ركود العلم : فهناك تقهقر يرثى له على كل صعيد . ولنقتصر هنا ،
دوفاً استشهاد بأسماء المؤلفين والمؤلفات ، على الاشارة الى اهمال الرياضيات التي انحصرت تعليمها في
الاسكندرية ، وتأخر علم الفلك الذي طما عليه علم التنجيم ، والذي مقتته المسيحيون اسوة بهذا
الاخير ، بصورة غير مباشرة ، وذوبان العلوم الطبيعية في الكيمياء الممقوتة ايضاً ، بسبب اتصالها

بالسحر ، وفي التلهيات المعجبة ، واندثار المعارف الجغرافية التي كان تحصيلها في السابق امراً عادياً ، وذلك على الرغم من وجود البرابرة الآتين من المناطق النائية ، ومن المحافظة على العلائق التجارية بالشرق الأقصى . انتحلوا بلين القديم وبطليموس دونما اهتمام للحفاظ على ما جمعه هذا الأخير . أنكروا ان تكون الارض كروية الشكل وان يكون بحر قزوين بحراً مغللاً ، كما أنكروا شمس نصف الليل وتفسير المد والجزر يجاذبية القمر . وأضيفت « الطريق البحرية » الى فهرست « طريق انطونينوس » (أي كر كلا) وأحصي فيها البارناس في عداد الجزر .

فلا أهمية من ثم للتراث العلمي الذي تركته للعصور الوسطى ، بصورة مباشرة ، عصور قديمة تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وسيكون للقرون الوسطى الفضل أقله في العودة الى مؤلفات القرن الثاني العظمى .

اما القانون ، وهو علم روماني دخل الشرق في العهد الامبراطوري الأول ، فلم يزد في هذا العهد ، بل في عهد سلالة ساويروس . وقد بلغ رجال القانون من الشهرة آنذاك ، وهم في معظمهم من السوريين ، ما جعل هذه السلالة الشرقية تستدعهم الى روما ؛ فاصبح الثلاثة المشهورون بينهم ، وهم بابينيانوس وأوليبيانوس وبولس ، قادة لحرس القيصر ، ولم يكن ذلك لخيرهم على كل حال اذ ان وظيفة الاولين قد انتهت بهما الى موت فاجع . اتصفت مؤلفاتهم بالقوة والاقناع وحاولت التوفيق بين النظام والعدالة . واتمت وضع تنسيق وتسلسل المبادئ وميزت المفارقات الضرورية لتطبيقها . فرفعت القانون الروماني ، بعد مؤلفات كلويس ، الى مستوى فكري لن يتجاوزه فيما بعد .

فاذا ما حافظت بعد ذلك مدرسة بيروت ، التي اشهرها رجال القانون ، على اولوية لن تتخلى عنها للقسطنطينية قبل القرن الخامس ، فان هؤلاء لم يهتموا للنطق النظري اهتمامهم للتطبيق العملي . اذ الى ذلك ان غزارة القرارات التشريعية والادارية انما رسمت لهم هذا الاتجاه . وقد غدت مهمتهم الرسمية محصورة في الحفظ والتنسيق . فظهرت حينذاك ، في اواخر القرن الثالث واولائل القرن الرابع ، « مجموعات الدساتير » الامبراطورية ، اي النصوص الرسمية التي تحدث او تحور القانون ، مرتبة ترتيباً منطقياً وزمنياً بحيث يعمل باحدثها عهداً اذا كان مناقضاً لما قبله . جاءت هذه المجموعات في البداية ثمرة مجهود خاص ، ثم غدت عملاً رسمياً في القرن الخامس حين تألفت لجنة ، باتفاق الامبراطورين ، عملت طوال تسع سنوات في القسطنطينية وانتهت في السنة ٤٣٨ الى نشر « مجموعة القوانين الشودوسية » التي اطلق عليها هذا الاسم اكراماً لامبراطور الشرق ثيودوسيوس الثاني . وقد عادت اللجنة فيها الى قسطنطين لجمع وتنسيق الدساتير الحقيقية . ولكن صدور الدساتير الجديدة لم يتوقف سبله . فظهرت حينذاك « دساتير اباطرة الشرق » المتعاقبة ، الخاصة بهذا الملك او ذلك ، بانتظار مجهود اجمالي جديد سيقوم به جوستينيانوس . هذه المجموعات عمل مفيد حقاً لاسيما للمؤرخ ، ولكن اهميتها عملية اكثر منها علمية .

الصلم الرابع
في السابق وجد الميل الهليني الى علم اللغات ارضاً مؤاتية جداً في روما حيث
اسفرت الابحاث العلمية الواسعة في حقل الصرف والنحو، والابحاث الاثرية، في
حقلي القانون والدين، عن مؤلفات هامة .

اضمحل كل ذلك، في القرن الثالث، في الشطر الغربي من الامبراطورية، ولم يسفر في الشطر
اليوناني الا عن مؤلفات صغرى خالية من القيمة الفكرية أو اقله من الايضاحات المفيدة للعلماء
المعاصرين : وليس في الحقيقة ما هو جدير باستيقاننا هنا في كتاب « السفسطيون في المأدبة »
لاثيناوس، وكتاب « تراجم مشاهير الفلاسفة » لديوجينس لايرس، وكتاب « تراجم السفسطيين »
لفيلوستراتوس، وجميع هؤلاء المؤلفين من معاصري سلالة ساروريوس .

لم يتوصل خلفاء هؤلاء المؤلفين، في الشطر اليوناني، الى التفوق عليهم . اما في روما فقد
حدثت نهضة حقيقية في النصف الثاني من القرن الرابع رافقت المقاومة الوثنية التي شجعها
جوليانوس . فليس من باب المصادفة ان ينكب مشاهير الشيوخ، الذين حاولوا الدفاع عن الوثنية
آنذاك، بريتكستاتوس وسيمناكوس وآل نيكوماكوس فلافيانوس، على نشر وشرح الروائع
الكلاسيكية الكبرى، ولا سيما مؤلفات فيرجيل وتبت - ليف . واعتبروا الحفاظ على هذا
التراث الادبي، المدين بالبقاء لهم الى حد كبير، واجباً من واجبات المواطن الروماني والمقيم على
اخلاصه للديانة القديمة . وقد دون « ماكروب » احاديث هذه الندوة الفاتحة الثقافة في كتابه
« اعياد ساتورن » الذي اطلق عليه هذا الاسم بسبب العيد الذي درجوا على اختياره للاجتماع
عند هذا أو ذلك من اعضاء الندوة . تناول هذا الكتاب في الدرجة الأولى مؤلفات فيرجيل
وفضله، واننا لنجد فيه كما في الشرح الذي يكرسه ماكروب لـ « حلم شيبون » الذي اختاره
من احد ابحاث شيشرون، شتى المعارف الدقيقة التي تفرض مطالعات كثيرة وجهها تفكير صائب
تحلى به هذا الفيلسوف الوثني الصوفي . ولكن ما يدعو الى الاسف ان هذه الشعلة الاخيرة لتقليد
طويل قد انطفأت بسرعة خاطفة .

ومما يدعو الى الاسف ايضاً ان شعلة مماثلة لم تتقد في المعسكر المقابل، لا تقليداً ولا تصميماً
على المجادلة، مع ان الطريقة القديمة ممكنة التطبيق على مسادة جديدة . وليس بمكنتنا ان
نستشهد، من الجانب المسيحي، الا بالقدس ايرونيوموس الذي تتلمذ في صباه على دوناط . ناق
الى الوضوح والدقة في تفسير الكتاب المقدس فدرس العبرية كي يترجمه : وستصبح ترجمته
« فولجاتا » (أي الترجمة العامة) الكنيسة اللاتينية . نهض بعمل تفسيري عظيم تطلب منه
جداً وجهداً لا سيما في الاسفار النبوية، وقاده الى ترجمات وابحاث عديدة . ولكن عمله الذي
لم يقدره مسيحيو عصره حق قدره لن يصبح نهجاً لغيره الا في عهد لاحق .

سار التاريخ سيراً موازياً تقريباً .

التاريخ
فقد برزت في الشطر اليوناني، في القرن الثالث، بعض الاسماء المحترمة كـ « ديون
كاسيوس » و « ديكسيوس » و « هيروديانوس » : ومع ان واحداً من هؤلاء الكتبة لم يكن

عبرياً ، كما يبدو ، فان ما وصل الينا من مؤلفاتهم يعملنا نأسف لتشويها او لا يمازها .
 اما من الجانب اللاتيني فليس آنذاك ما يستحق الذكر سوى مجموعة ممقوتة صدرت في القرن
 الرابع تجب الإشارة إليها رغبة في اظهار فساد لون من الالوان الادبية ، هي المجموعة المعروفة
 بـ « التاريخ العظيم » . فنحن هنا امام تراجم الاباطرة ما بين هديرانوس وديوكلسيانوس . اما
 مرد المقت فليس في عددهم الذي ضاعفته الفوضى ، وبالتالي في فقدان الوحدة العضوية . وليس
 كذلك ، الى حد ما ، في تقليد قاسد لـ « سويتون » و ايشار الاماليح و عفونات الحياة الخاصة .
 فان شر ما هنالك ، وما لا يمكن ان توضح عنه أية صفة من صفات الكتابة ، انما هو عدم
 الاستقامة الفكرية . فقد زين كثير من هذه التراجم بكذب مفتعل لا ينطلي على احد . يتضح
 لنا منها ان واضعيها مؤلفون نجمل عنهم كل شيء وانها مقدمة اما لديوكلسيانوس واما لقسطنطين .
 ولكن تحليل النزعات السياسية والمستندات الكاذبة يرغمنا الى استبعاد هذين التاريخين . و تقوم
 « معضلة التاريخ العظيم » اليوم ، التي لم يفصل فيها بعد ، في تحديد تاريخ آخر لوضع هذه التراجم
 او عدة تواريخ اخرى للتحويلات المتعاقبة التي أدخلت عليها .

وصلت الينا هذه المجموعة كاملة ، في حال ان الاجزاء الثلاثة عشر الاولى - المكرمة
 للانطونيين في القرن الثالث والنصف الاول من القرن الرابع - من مؤلف اميانوس مرسلينوس
 المشهور قد اضمحلت بأجمعها ايضاً . اجل ان الاجزاء الثمانية عشر التي قد ر لها البقاء هي أم
 اجزاء هذا المؤلف لأنها تتناول السنوات الخمس والعشرين التي سبقت موت فالنس : فمن حيث
 ان اميانوس قد عاشها اما ضابطاً واما مراقباً مقرباً متحمساً ، فقد تجمع لديه عنها أصدق
 الاخبار وادقها . لقد آثر هذا الاغريقي الكتابة باللغة اللاتينية ، و اذا ما حالف التوفيق مجوده
 احياناً ، فان طريقتة الكتابية غالباً ما تتصف بالخشونة والصلابة . بيد ان هذا العيب يتضاءل
 امام صفات الفكر والمبنى . سار اميانوس على خطى « تاسيت » وبدأ تاريخ الامبراطورية حيث
 توقف هذا الاخير . وهو ليس دونه حسدة في السيكولوجية . ولا حياة نابضة في الرواية ، ولا
 اصطفاقاً في المشاعر . بل هو يتفوق عليه بخبرته العسكرية ، و باهتمامه لحياة الولايات وحق حياة
 الشعوب الغريبة ، و بعدم تحيزه في الإشارة الى سيئات بطله جوليانوس وصفات كونستانس الثاني
 او فالنس . ومن دواعي الاعتزاز لروما ان القرن الاخير في تاريخ عظمتها قد اجتذب اليها
 رجل عمل وفكر من امثال هذا المواطن الانطاكي .

غير ان اميانوس مرسلينوس كان آخر مؤرخ كبير ، ولن يبرز مؤرخ سواه قبل مرور فترة
 طويلة . فلم يكن بمكنة المسيحيين آنذاك ان يكتبوا التاريخ إلا عرضاً لأجل الدفاع عن ايمانهم
 والدعاوة له . وكانت هذه ، في اوائل القرن الرابع ، حال لاكتانس الذي روى « موت
 المضطهدين » ، و حال اسيقيوس القيصري الذي وضع مؤلفاً تاريخياً قيماً هو « التاريخ الكنسي » .
 وهذه ، بعد ذلك ، حال واضعي التراجم الكثيرين الذين قلدوا لون الترجمة القديم بغية تقديم
 قدوة للمؤمنين . قد يجد المؤرخ المعاصر ما يفيد في كل هذه المؤلفات . ولكن شتان بينها وبين
 ذلك النظام الفكري الذي أوحى في اليونان وفي روما بذلك القدر الكبير من الروائع .

البيان
لقد جرى اميانوس مرسلينوس على النهج القديم فنثر الخطب في تاريخه . و مرد ذلك الى ان البيان لا يزال يحتل مركز الصدارة ، ويمتد بصلة الى كل المواضيع . فالعالمين بأصول البيان يفضل الخطيب المحترف من حيث انه الانسان المثقف بالذات الذي تفتقد صفاته العقلية والكتابية والفكرية واللغوية المتلازمة ، في كل مكان : الى جانب الخطب ، توفر له الابحاث القصيرة ، والمقالات الانتقادية ، والرسائل ، وسائل تعبير متنوعة جداً .

يثبت لنا اسما فيلوستراتوس ولونجيتوس ان البيان لم يضمحل من العالم اليوناني في القرن الثالث . أما من الجانب اللاتيني فان هذا القرن صفر وخاو ؛ بيد ان بوادر نهضة قد رافقت فيه العودة الى النظام الامبراطوري . فقد لمع اذ ذاك نجم مدرسة (اوتين *Autun*) ووضع بعض اساتذتها أفضل الخطب الاحدى عشرة التي جمعت ، مع « تأبين ترياينوس » ، في مجموعة «التأبينات اللاتينية» . واشتهر بعد ذلك المؤلف سيمناكوس الذي تحلى بثقافة عالية وامتاز بالأناقة والظرافة ، وبرهن أحياناً عن صدق طوية مؤثر . ومع ذلك ، فقد بقي البيان اليوناني اكثر لمعاناً في القرن الرابع : فقد برز فيه أربعة محترفين ذاتي الشهرة هم بروهيريديوس وهيميريوس في اثينا وتيميسيوس في القسطنطينية وليبانيوس في انطاكية ، وقد اتقنوا جميعهم رخامة دوائر الكلام التي زاد في ابرازها فنهم في الإلقاء ؛ ولكننا نؤثر على هذا الاتقان مادة أعمق جوهرأ . ويجب ان نضيف اليهم جوليانوس الذي تتلمذ على الأولين وأعجب بهم جميعهم ونافهم في مؤلفات حالت هموم حياته ومنيته دون الاكثار منها .

هذا هو مظهر النشاط الأدبي الذي فاق المظاهر الاخرى استمراراً . فقد تأثرت به بعض مؤلفات سينيزيوس نفسه ، كما تأثر به مباشرة اكثر من واحد من آباء الكنيسة .

الشعر
أما اللون الاخير من الألوان الأدبية الدنيوية ، فهو الشعر . كان الشعر اليوناني في مظهره الكلاسيكي ، متهدماً ، ان لم يكن ميتاً . بيد انه يجدر بنا الاشارة الى طرفه قريبة هي استمراره حتى اواخر القرن الخامس في « القصائد الديونيسية » ، للشاعر (نونوس *Nonnos*) الذي ولد في بانوبولس في مصر العليا . فقيس في ذلك : ان تومبوكتو أنجبت آخر مقلد لـ « راسين » ؛ وقيل في ذلك فكاهات أخرى يصعب تبريرها ؛ ولكن هذه الفكاهة تلفت الانتباه الى ما ينطوي عليه الفكر اليوناني من قوة استساعة مدهشة دائمة . اما الشعر اللاتيني فلا يزال ينبض بالحياة في اواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس ، تغذيه الذكريات ويسانده التقليد . ومع ذلك فهو قد استعاد بعض التميز . ولنقتصر هنا على اسمين لا يستحق الذكر سواهما . فان استاذ البيان اوزون يحسد الاعتدال ، بعد ان تاه فترة من الزمن في حياة البلاط والسياسة ؛ والدليل على ذلك ان مسيحيتته لا تترامى في قصائده القصيرة التي تتجلى فيها سهولة الاتقان ؛ واذا ما شعر بمواطن صادقة واتسم شعوره بالنضارة امام جملات الطبيعة ، فانه يقتصر على التعبير عن مشاعره تعبيراً مازحاً وريقاً لأنه يمقت المغالاة والافراط ؛ ولكن هذا الاعتدال يضيف على أشعاره بعض السحر احياناً . وعلى نقيض ذلك فان القوة الفاعلة

التي اعوزته تفيض فيضاناً عند كلوديانوس، وهو اغريقي من أتباع ستيليكون الذي جمع قصائده بعد موته ونشرها في شتى الاوساط . اجل لقد تملقت هذه القصائد القائد الحامي . ومع ذلك فقد ألهم كلوديانوس يقين حاد . فهو يجمع ، باعجاب واحد ، بين عظمة روما وعبقرية حاميه ، كما يجمع ، بكرامية واحدة لا تتراجع امام أية اهانة ، بين الثائر الافريقي والبرابرة والحضي الحقير افترابوس الذي يسيّر حكومة القسطنطينية على غير ما ترى ميلانو . وترغنا متانة اللغة التي توصل هذا الاسكندري الى اتقاتها ، ومهارة صناعته الشعرية ، ونضارة استعاراته ، وحمياً وطنيته ، على ان تذكر ، في الكلام عنه ، اسماء فيرجيل ولوكان وجوفينال .

والى جانب الشعر الدنيوي ، ظهر آنذاك الشعر الديني : فلدقق الروح مطالبه الموسيقية ايضاً . فبعد ان كان الشعر فلسفياً ، بما انطوى عليه مفهوم هذه الكلمة آنذاك في اناشيد الاغريقي سينيزيوس ، غدا مسيحياً صريحاً في مؤلفات اللاتينيين برودانس والقديس بولين النولي ، احد تلامذه اوزون . ولكن افراغ المشاعر الجديدة في قالب كلاسيكي كان مهمة شاقة : وقليلون جداً هم المسيحيون الذين توفقوا الى النهوض بها قبل زوال الثقافة القديمة .

يبقى امامنا ، في القرن الرابع ، انتاج رائع هو انتاج آباء الكنيسة اليونانيين آباء الكنيسة واللاتين على السواء . افليس مغايراً للباقة ان نتوقف عندهم هنا وننظر اليهم من زاوية الأدب يا ترى ؟ لا ريب في انهم كتبوا وان بعضهم كتبوا بغزارة ، وغالباً ما اصفى اليهم بعض المستمعين واختزلوا كلامهم نفسه بغية تأمين نشره . ولكن هذا المظهر الأدبي لنشاطهم يبقى ثانوياً في نظرهم . فهم قد اهتموا ، بالاضافة الى دورهم كاساقفة ، ومن ثم كساسة زمنيين ، لنفسهم وللنفوس الموكول امرها اليهم في الدرجة الأولى . ولا حياة ، من جهة اخرى ، بدون صراع : فقد ناضل المؤلفون المسيحيون الاولون ضد الاعداء الخارجيين ؛ ثم توجب عليهم ، بعد احراز الغلبة ، الدفاع عن الايمان ضد الهرطقة ، وتعليم المؤمنين وتوجيههم في الحياة الأرضية الملأى بالمكائد . فالعقيدة والتعليم والاخلاق كانت من ثم مواضع ابحاثهم المذهبية وعظاتهم ورسائلهم .

بيد انهم ، على الرغم من كل ذلك ، وبما صرح به بعضهم ، كتبة يمثلون عهدهم . استمع لهم الوقت فاقتصدوه . وانسجموا عن قصد احياناً مع من يستمع اليهم من عامة الشعب . ولكنهم لا يستطيعون احتقار مستمعين او قراء آخرين . أضف الى ذلك انهم تلقوا تربية تطبيع الانسان بطابعها الخاص ، وتخرجوا من مدارس تعلمت الآداب الجميلة وألقوا فيها الدروس احياناً . فالقديس باسيليوس ، الذي كان ابن معلم بيان ، وعلم البيان هو نفسه حيناً ، كان رفيقاً في التلمذة لثريغوريوس النازينزي - ولجوليانوس ايضاً - في اثينا ؛ ولعله تتلمذ على ليبانيوس على غرار فم الذهب ؛ ودرس القديس اوجسطينوس البيان في قرطاجة وروما وميلانو . ولذلك فقد توجب عليهم الاعتناء بالمنى .

فاذا غذى الكتاب المقدس يقينهم وشجذت الافلاطونية جدلهم احياناً وغمرت التقوى الحارة

كل وجودهم ، فقد توفيق بعضهم ، في مخالطتهم الطويلة لروائع الادب الكلاسيكي ، الى امتلاك وسائل التعبير التي روضها كتبة العهود السابقة . فيحق للكنيسة ، بفضلهم ، ان تعتبر نفسها ، على هذا الصعيد ايضاً ، وريثة الحضارة المتوسطة .

لنقتصر على ذكر اثنين منهم فقط من الجانب اليوناني : القديس غريغوريوس النازينزي ذو الفطرة الشعرية والخيال الفاتن والتأثر الحزين ، والقديس يوحنا فم الذهب الذي يكفي لقبه للدلالة على فصاحة دائمة الشهرة تبررها مواعظه الانجيلية الرشيقة وأماليجه التي تهدىء ، بتأثير من قوة سحر كلامه ، غضبات الجماهير الهائجة ، في انطاكية والقسطنطينية .

ولنقتصر ، من الجانب اللاتيني ، على ذكر عظيم واحد فقط هو القديس اوغسطينوس . اتصف الرجل والاسقف فيه بقوة لا تجارى : كان في مدينته الصغيرة ، هيبون (عنابة) ، الرئيس الروحي للعالم المسيحي الافريقي ، وحتى الغربي احياناً . لا ريب في انه مدين بهذه القوة الى عمله التنظيمي ونضاله الذي لا يعرف الكلل ؛ كما انه مدين بها ايضاً الى علمه اللاهوتي الذي لا يجاريه علم في الغرب آنذاك . ولكن كتابين فقط ، من اصل مؤلفاته الكثيرة التي يصعب مطلب معظمها على غير الاختصاصيين ، ما زالوا ينبضان بحياة دافقة : « الاعترافات » و « مدينة الله » . كلاهما يفيض فصاحة وشعراً مطرباً ، وصوراً وأسلوباً غنائياً ، واحساساً مصطلقاً وحرارة حماسية . الاول هو التاريخ الداخلي الخاص لانسان ولروح ثابها في ضلال الخطيئة وبحثا عن الحقيقة يقلق حتى الاستنارة النهائية : فالعصور القديمة لم تترك لنا أي أثر سيكولوجي تناول تحليلاً مؤثراً على مثل هذا العمق . اما الثاني فبحث فلسفي في تاريخ العالم الغاية منه اثبات النزاع القائم بين مدينتين موجودتين معاً ، احدهما تمارس « محبة الله حتى نكران الذات » بينما تمارس الثانية « محبة الذات حتى نكران الله » . وهو لا يكثرث بانحطاط روما حين ينظر الى الأشياء بهذا المنظار . فالثبء المهم الوحيد في نظره هو انتصار المدينة الالهية الذي هو معنى الحياة الحقيقية ومبرر وجود العالم : هذا هو المثل الاعلى الذي ستتغذى به القرون الوسطى والذي ستحييه قوة تعبير مدهشة .

أجل القرون الوسطى : ولكن المبني ، مهبا كان من طابعه الشخصي ، قد بقي قديماً . فما هي مدة هذا البقاء يا ترى ؟ توفي القديس اوغسطينوس في السنة ٤٣٠ ، ولم يأت بعده خلف بكل ما للكلمة من معنى . فعرف الأدب المسيحي بعده ، بمقدار تمادي الأدب الكلاسيكي فيه ، الانحطاط البطيء المقيم الذي دب في هذا الأخير بعد نهضة القرن الرابع لا سيما في الغرب

٣ - الفن

ان الحياة الفنية في العهد الإمبراطوري الثاني أشد تعقيداً من الحياة الفكرية ايضاً . فهي شأن هذه الأخيرة تخضع لبعض التقاليد . ولكنها أسرع تأثراً بالصعوبات المادية وأقل خصباً ، بالتالي ، منها في العهود السابقة . أضف الى ذلك ان الذوق العام يتطور فيها تطوراً سريعاً ،

معظم مناطق الامبراطورية - ومنها ما استحال فيها ترميم اطلال القرن الثالث بسخاء - حين توصل المنقبون الى التمييز بين التحويرات المتعاقبة في هذه الابنية ، يبدو ان أعظم بذخ قد تحقق في القرن الرابع . وان تاريخ المقاصف الغالية - الرومانية ، وهي أشهر المقاصف باتساعها وزخرفها ، في مناطق نهر الموزيل ، (نينينغ ، اودرانغ الخ .) ، يعود ، وفقاً لوضع ترميمها اليوم ، الى ذاك العهد الذي اقام فيه ملك وبلاط في تريف ، ما بين ديوكليسيانوس وثيودوسيوس . ولكن نموذج المقصف كان قد ظهر في وقت سابق ، ومن النافل اعادة الوصف الذي أعطي عنه في الكلام عن القرن الثاني : فقد اقتصرَت حضارة القرن الثاني على تحقيق عدد كبير منه وعلى توسيعه وتحسينه .

لم يحل هذا التطور ، على الرغم من ارتباطه بالتطور الاجتماعي ، دون الحفاظ على الوفاء للعشل الاعلى القديم الذي استازم في الدرجة الاولى الابقاء على مظهر المدن الفخم وتحسينه . استفرغت الامبراطورية الثانية مجهودها على هذا الصعيد دون ان تحدث تغييراً جوهرياً في النماذج التقليدية . بيد ان العهد قد تضرر من جراء اعتناق السلطة الرسمية الديانة المسيحية ، مع ان قسطنطين نفسه قد أمر بتشيد بعض المعابد في القسطنطينية . لذلك فقد أتى الفن البنائي المدني هنا وهناك بتحقيقات عظيمة . في عهد سلالة ساويروس ارتدت المدن الافريقية أبهى حلها ، لا سيما مدن منطقة طرابلس الغرب ، لأن سبتيموس ساويروس الذي ينتسب الى ليتيس العظيمة قد غمر هذه المنطقة باعطياته : قبالبنية المدنية التي احاطتها أعمال التنقيب الايطالية ، ما بين الحربين العالميتين ، بشهرة حلال ، يعود الى هذا العهد .

غير ان روما لم تهمل ، اقله خلال فترة طويلة نسبياً (راجع الشكل ١٩ ص ٥٩٣) . فبالاضافة الى قوسي نصر ، جهز سبتيموس ساويروس قصرأ منيفاً على أكمة البالاتين ، وحجبت أساساته بجبهة كاذبة مائلة ، بطبقات أعمدها الثلاث وجدرانها المتعرجة ومشاكها ، للجبهات الكاذبة التي ازدانت بها الجدران الخلفية في المسارح . وقام كركلا في حيّ الاقنيتين ببناء حمامات لا تزال أطلالها تحدث تأثيراً قوياً في نفس الزائر المعاصر . فبينما تبلغ مجموع مساحة الميادين الامبراطورية في القرنين الاولين تسعة هكتارات ، بلغ آنذاك ١٤ هكتاراً ، واتسعت الحمامات المنبئية في وسط الحدائق لألف وستائة مستحم ، لا يدخل في عدادهم اولئك الذين كانوا يمارسون التمارين الرياضية في ميادين الرياضة الجسدية او يترددون الى دار الكتب وأروقة التصوير والنقاشة : في هذه الحمامات وجدت التحف الهلينية المعروفة باسم « هر كول فارنيز » و « ثور فارنيز »

من البديهي ان اضطرابات القرن الثالث قد أثرت في هذه الحركة . ولكن الحركة لم تتوقف يوماً توقفاً تاماً : فقد حرص غوردانوس الثالث وداسيوس وغاليانوس واوريليانوس ، على الرغم من قصر عهد ملكهم او صغوراته ، على ان يميزوه بتشيد الابنية . وما ان استتب النظام حتى بدت الحركة وكأنها عادت الى حالتها السابقة . فان متحف الحمامات الوطني ، في روما الحالية ،

قد أنشئ في جزء ما زال قائماً من اجزاء حمامات ديوكليسيانوس التي تجاوزت مساحتها البالغة ١٥ هكتاراً مساحة حمامات كركلا . وأكمل قسطنطين الكنيسة الملكية التي شرع ببنائها ماكسانس وشيد قوس نصر ورواقاً وحمامات .

بيد ان هذا المجهود لم يدم طويلاً . فليس باستطاعتنا ، بعد قسطنطين ، ان نذكر سوى قوسي نصر وبعض الاعمال الترميمية : ومرد ذلك الى ان الاباطرة قد أقاموا في غير مكان ولم يهتموا لتزيين العاصمة التي لم تعوزها مظاهر التزيين . فانطفأت حياة العمران في روما التي أمست مدينة - متحفاً قلت العناية بها تدريجياً : لا بل أخضعت ، بما انتزع من روائعها الفنية وأعمدها ومسلاتها لتجميل القسطنطينية ، لعملية استلاب مماثلة لتلك التي جمعت بها هذه الثروة من التحف . فبدأ الهبوط في الافق شيئاً فشيئاً .

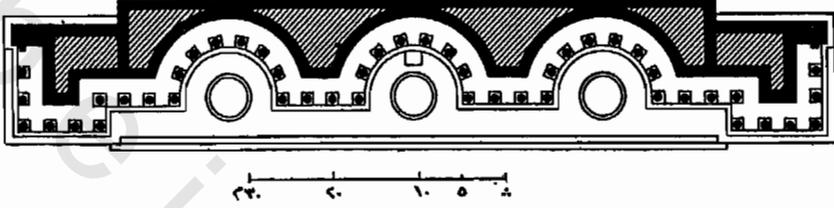
على نقيض ذلك ، استأثرت بالعناية الامبراطورية ، منذ ديوكليسيانوس ، المقرات الامبراطورية : المدن الاقليمية التي اختيرت ، لاعتبارات ادارية او عسكرية ، مقرات القسطنطينية للأباطرة والقيصرة . فتوجب تشييد الكنائس الملكية والحمامات والمسارح والملاعب في نيكوميديا وسيرميوم وميلانو وتريف وفي مدن أخرى ايضاً . وتوجب كذلك تشييد القصور التي يبدو انها اختلفت شكلاً عن مساكن اللها التي هواها في روما بأباطرة القرنين الاولين . ألحقت بها الحدائق كما في السابق ؛ ولكن قاعات الالهة ، انسجماً مع تبدل النظام ، عدت أعظم روعة ، كما ان الابنية العسكرية أمست أكبر عدداً . وألّف القصر ، داخل السور المحصّن ، مدينة حقيقية : اما نموذج هذه الابنية الجديدة فهو القصر الذي قضى فيه ديوكليسيانوس أيامه الاخيرة بعد تنازله عن العرش والذي لا تزال اطلاله حية حتى اليوم في مدينة سباتو على شاطئ الادرياتيك .

بذل أضخم مجهود ، في سبيل تجميل المدن ، في القسطنطينية التي أرادوها منذ البدء مساوية لروما . غير ان اعمال التنقيب الأثري ، لسوء الحظ ، كانت محدودة فيها حتى تاريخه ، اذ ان آثار القرون الوسطى العظيمة تحجب ما تركته فيها العصور القديمة : ولا يمكننا اليوم سوى تكوين فكرة اجمالية عما كانت عليه المدينة في القرن الرابع واولئل القرن الخامس .

نمت المدينة بسرعة بفعل ارادة اسياد الاقاليم الشرقية وبفضل النشاط الاقتصادي الذي ظهر فيها . كانت البقعة التي خصصها لها قسطنطين اربعة اضعاف بقعة بيزنطية القديمة ؛ ولم يمر قرن واحد حتى أبعد السور كيلومتراً الى الورا . لم يدخل على الاحياء القديمة ، في الشمال الشرقي ، تحويل يذكر ، ويبدو انهم لم يعتمدوا في المدينة الجديدة تصمم المربعات المتساوية الذي اعتمده التجميل اليوناني ، والروماني من بعده ، في التحقيقات المماثلة . إلا انهم اتخذوا احتياطات بنائية ، بتحديد ارتفاع البيوت مثلاً ، وبارغام الملاكين على تجهيز القسم الاسفل من هذه البيوت بأقواس تطل على الشوارع الهامة . لم يكن هناك في القسطنطينية سوى « جزر » سكنية نادرة ، ولعلها لم توجد فيها اطلاقاً . ولكن السكان تكدسوا فيها تكديساً ولم تنج المدينة من الحرائق .

تم تزيين المدينة جزئياً ، رغبة في السرعة ، على حساب مدن او معابد أخرى . وهكذا فقد نقل قسطنطين ، من دلفي ، مشجب «بلاتيه» في ميدان السباق ، ومن روما ، العمود المنتصب في وسط ساحتها العامة ، الذي وضع في أعلاه تمثالاً ذا رأس شعاعي الشكل كان يمثل في الأرجح . واقتفى أثره عدد من خلفائه . وعلى الرغم من ذلك فقد توجب تشييد أبنية كثيرة أنهكت الخزائن الامبراطورية .

توسط المدينة الرسمية ميدان الاوغسطيون الذي قامت الى الجهة الجنوبية منه ثلاثة قصور



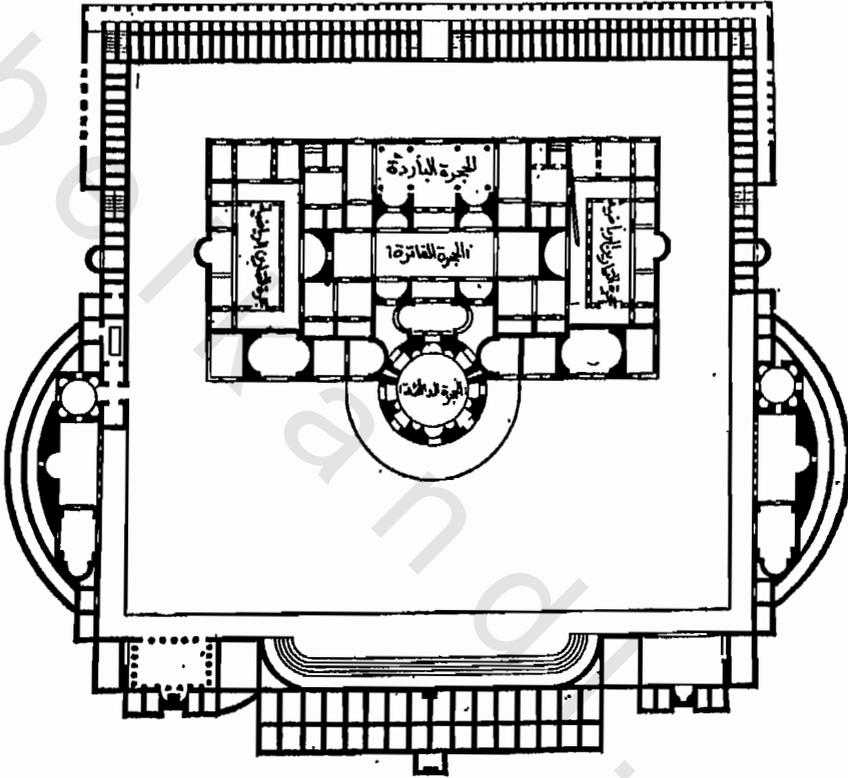
الشكل ٢٤ - السبتيوزونيوم او صرح سبتييموس ساويروس في اتجاهها نحو الشرق ، ازدانت هذه الواجهة ببتايل الكواك السبع ، وأمها جميعاً تمثال الشمس الذي رمزوا به الى الامبراطور سبتييموس ساويروس ، وكان يقوم في المشكاة الوسطى . وهذا المبنى شاهد على تأثير النجامة والنزعات التي تأثرت بها الايدولوجيا الامبراطورية .

تؤلف غالما على حدة . كان باستطاعة الامبراطور ان يلتقل مباشرة من احد هذه القصور الى مقصفه في ميدان السباق الذي شيّد في عهد سبتييموس ساويروس ثم وسّع حتى يساوي ميدان سباق العربات في روما . من هذا الميدان انطلق الشارع الرئيسي الذي ينقسم بعد ساحة طوري التي أعدها ثيودوسيوس ، الى شارعين فرعيين : يؤدي الشمالي منها الى كنيسة الرسل القديسين التي جهز سردابها قبل وفاة قسطنطين وأعدّ لاستقبال جثان الاباطرة المتوفين . وقد حرص جوليانوس على ان ينقل اليه بأبهة عظيمة جثان كونستانس الثاني الذي كان هو قد اغتصب منه الحكم في لوتيسيا .

لن تستطيع القسطنطينية ، اذا ما استثنينا قصورها ، مضاهاة روما بعظمة أبنيتها وستنحصر مظاهر الأبهة والبذخ فيها تقريباً في حياة البلاط والاعياد التي تقام في ميدان السباق . ولكنها وفرت للامبراطور ، منذ اواخر القرن الرابع ، اطاراً لائقاً بنفوذه وعظمته .

ولكن ، ما هو شأن مدينة ، بل عدة مدن ، في جانب أعمال لا تحصى حققتها المخطاط التنئية
الامبراطورية الاولى؟ فالمجهود البنائي قد توقف عملياً في المدن الصغيرة والمتوسطة التي انحصرت في طوق من الأسوار . وفي سبيل تشييد هذه الاخيرة استخدمت الأبنية القديمة محاجر أو مساند . ثم ان الخزائن البلدية قد أفقرت ، والمطاء الخاص قد نضب ، فأعوز المال حتى لتعهد الأبنية الباقية . تدنى من ثم طلب البناء ، ولم يعوّض عنه بتجديد المقاصف وتوسيعها ، فأفضى ذلك الى كارثة حقيقية ، نزلت في القرن الثالث بمهندسي العمارة والنقاشين والمزينين واليد العاملة الماهرة . وقد دام هذا التدني الى ما بعد استعادة الاستقرار . فلم يكن باستطاعة

الامبراطورية ، اذا ما نظرنا إليها كجموع ، ان تقدم على ما أقدم عليه الانطونيون .
لذلك ، فنحن لا نكون مسلمين بنظرية مادية ، اذا ما حاولنا أن نفسر بذلك واقعاً راهناً :
أعني به التدني الصريح في تقنية المنفذين المتوسطة . فهؤلاء قد غدوا أقل عدداً ، وقلما مارسوا
مهنهم أو تعلموها تعليماً فقط ، ففقد معظمهم سر الحارط اليدوية ، والحيل الصناعية . لقد



١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ١١ ١٢ ١٣ ١٤ ١٥ ١٦ ١٧ ١٨ ١٩ ٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢ ٣٣ ٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠

الشكل ٢٥ - حمامات كركلا

شكا الفن الامبراطوري الروماني ابدأ من الحاجة الى انتاج كثير وضخم وسريع ؛ ولكنه برهن في
السابق عن مهارة تلفت النظر في تحقيق ما يطلب منه . أما الآن فيتوجب عليه انتاج ضخم
وسريع ؛ يرغمه عليه نفوذ النظام والامبراطور . ولكن التدني العظيم في كمية الانتاج ، قد رافقه
تدنٍ أعظم في النوعية ؛ فلا أثر للاتقان ، وحتى للمهارة احياناً . وليس من الصعب علينا ان
نرى بين الملاحظتين نسبة العلة للعول : فقد تدنى عدد المحترفين الممتازين ؛ ونخف انتقال
الصناعيين الماهرين في الامبراطورية ؛ وأصبح من العسير وجود العمال المتميزين محلياً وتألّفت
الفرق من بينهم .

عديدة من القرميد . ولكنهم ، لم يترددوا أحياناً في استعمال الحجر دون ملاط : فها هو « الباب الأسود » في تريف قد سخر من الزمن ، ولا تزال ضخامته ، التي تتفق وغايته كحصن ، تفرض إعجاب الزائرين المعاصرين .

نهاية النقاشة ، بالمقابلة ، فتتصف بمزيد من الغلاظة . وليست هذه الغلاظة ، لسوء الحظ ، احتقاراً للاصطلاحات او عودة الى طوية أكثر بهيمية ، بل مجرد خرق مرده الجهل . وما نحن نختار قليلاً من كثير من الأمثلة المحزنة على ذلك . فالتشيم الذي تعرض له قوس نصر غالبروس في تسالونكي لا يخفي دونية تنفيذه . اما قوس قسطنطين في روما ، فان القطع المنتزعة من بعض أبنية القرن الثاني والمنزلة فيه تبرز بمزيد من الوضوح ركافة القطع التي نقشت له . وكيف لا نذكر هنا جمود الامبراطورين والقيصرين المتعاقبين الذين تمثلهم المجموعات الارجوانية في كنيسة القديس مرقص في البندقية ؟

تحسنت النوعية في اواخر القرن الرابع . ولكن بعض المكاسب التي حققتها النقاشة منذ اواخر العهد اليوناني القديم ، فقدت نهائياً . فقد فقدت في الدرجة الاولى معرفة الجسم البشري : فتوارت قسامته تحت الثياب الكثيفة والحطوط الایجازية . وفقدت في الدرجة الثانية ، بنتيجة مباشرة ، ايحاء الحركة وحتى تمثيلها : فجمدت الاجسام وبدت متصلبة ، هندسية ، مبسطة ، جبسية ، موزعة بتناسق في النقوش الناتئة على التواويس وغيرها . فكان ذلك نهاية المطابقة والحياة في الحجر ، أي نهاية النقاشة كما فهمتها الحضارة اليونانية الرومانية التي أنتجت ذاك القدر العظيم من الروائع .

ولكن كل هذه المصطلحات ، من جمود كهنوتي وجبسية وتناسق ، مصدرها التأثيرات الشرقية شرق بعيد جداً في الزمان خنقت نظرتة الجمالية القديمة او اخذتها ، منذ الحروب الميدية ، قوة النظرة الجمالية اليونانية المعدية ، فأحيتها الآن تأثيرات عديدة مختلفة ومتشابهة . لم تترك في الفن الهليني ، وفي فن الامبراطورية الاولى من بعده ، سوى عناصر ثانوية قليلة ، كبعض المواضيع التزيينية مثلاً ، او بعض النزعات العريضة ، كالميل الى ما هو عظيم وما يفوق الانسان . اما الآن فنحن وجهاً لوجه امام نهضتها العلنية والجريئة والتوسعية التي شجعها رجوع الملكية الساسانية القومية ، كما شجعها ، داخل الامبراطورية ، نشاط الولايات الشرقية على الصعيد الاقتصادي وغيانها الديني ويقظة تقاليد البلدية .

الشرق : كلمة غامضة ونطاق شاسع تترامى فيه أكثر من نزعة خاصة . فدراسة الفن في العهد الامبراطوري الثاني هي اليوم احد أعظم نطاقات علم الآثار نشاطاً ومستقبلاً باسم بالآمال . ولا يرد ذلك الى أهميتها الخاصة بقدر ما يرد الى انها تحضير للفن البيزنطي . وبفضل تقدم هذه الدراسة ، اخذ العلماء يلقون بعض الضوء على اسهامات مختلفة ، القبطية والسورية والایرانية . ولكن غالباً ما يجدون أنفسهم امام شرق هو نفسه معقد التركيب اذ ان ماضيه التاريخي قد اوجد

اتصالات قوية بين مختلف اجزائه . فليس باستطاعة مجثنا ، والحالة هذه ، ان يتناول سوى الخطوط الكبرى .

فللشرق يعود الافراط في التزيين الذي أظهر الفن الامبراطوري نفسه ميلا إليه ، رغبة منه في اخفاء المواد السيئة المستعملة في البناء : وقد برز هذا الافراط في عهد سلالة ساويروس ، ولا سيما في اواخر القرن الثالث ، كما يمكننا التأكد من ذلك في بقايا قصر ديوكليسيانوس . وأضاف هذا التزيين ، الى الافراط ، الغنى المادي المعد للتأثير في الخيلة ، وذلك عن طريق استخدام الألوان اللامعة ، لا سيما الذهبي منها ، والحامات النادرة الثمينة : كالأرجوان المصري مثلا للنواويس الامبراطورية ؛ والعاج ، والجواهر ، ومكعبات معجون الزجاج ، ومينا الفسيفساء ، والخيوط الذهبية في الحرائر المطرزة ، للفنون الصغرى ؛ الخ . ثم نزع هذا التزيين ، الذي لم يترك سوى حداً أدنى من المساحات المكشوفة ، الى فرض نفسه بنفسه ، مستقلاً عن المشاهد المصورة ، مع ما يستلزمه ذلك من ابتكارات غريبة قوامها الخطوط المحبكة . فبرزت آنذاك مواضيع تزيينية يعود أصلها الى ما قبل التاريخ . ونحن نكتفي بتقديم مثل بسيط عن ذلك : صفوف القلوب التي تزين اطارات صور « روزنامة السنة ٣٥٤ » ، وهي مخطوط نفيس جداً متقن الخط كتبه وزينه فيلوكالوس ، أحد فناني روما المشهورين في ذاك العهد . فانت هذا الموضوع التزييني موجود على الفخاريات النيوليتية في بلاد ما بين النهرين . ثم زال بعد ذلك ولن نراه إلا في الفن اليوناني - البوذي في القرن الأول للميلاد ، وفي فن روسيا الجنوبية في القرن الثالث ، وعلى بعض الأقمشة القبطية في القرن الرابع ، واخيراً في هذا المخطوط الروماني .

الروحانية
كانت نتيجة أهمية التزيين نقصاً في الرسوم الحية ؛ وغالباً ما انتهت هذه الأخيرة الى الزوال نهائياً في الموشيات والأقمشة والفسيفساء مثلاً . وحين لا تزول ، فانها تفقد حياتها وحركتها وتجسد في تصلب نقلته النقاشة عن الفنون الأخرى ، ولا سيما عن التصوير ، ولكن الفنان يسمى الى جعل اوضاع اليدين والوجوه تنم عن تعبير باطني خالص . ولهذا الاوضاع ، في معظم الحالات ، معنى طقسي ، كالتقدمة والصلاة والبركة . وفي معظم الحالات ايضاً ، لا يتوقف خرق التنفيذ الى اخفاء المقصد الذي يجب ان يعبر الوجه عنه . وترسم في الأعين بنوع خاص ، وحتى في غضون الشفاه ، روحانية كانت آنذاك مشتركة بين الوثنيين والمسيحيين : فان هذا العصر عصر صوفية ، ويمجمل الناس جميعهم بخلصهم في حياة ثانية .

لقد سبق وظهرت مثل هذه النزعة في الفن الهليني : ولم يجهلها الفن الروماني نفسه كلياً . ولكن ذلك لم يتعد المفارقات الطفيفة . أما فن العهد الامبراطوري الثاني فقد اندفع عن قصد ، وبعاطفة حادة مؤثرة ، على ما فيها من خرق ، في استقصاء الخيال الذي يستسلم له الآدميون ، ملقياً عليه أحياناً ضوء اليقين الواثق . فهل هذا هو الشرق ايضاً ؟ أجل ، أقله بمقدار إيمائه بهذا القلق الديني ، الذي لم يعرفه فن اليونان الكلاسيكية المستندة الى العقل ، ولا فن روما الظاهرة المستندة الى القوة .

الكنيسة :
البناء والزخرف

وجدت هذه النظرة الجمالية الجديدة ، في الكنيسة ، خير حقل تطبق فيه ،
بالاتفاق مع الظروف التي أوجدها انتشار المسيحية . فالمسيحية ، على نقيض
الوثنية التي تبقي جمهور المؤمنين خارج المعبد ، تفرض حضورهم الى الكنيسة
حيث تقام مراسم العبادة ويلقن التعليم الديني .

ألحت الحاجة من ثم الى أبنية أكبر من المعابد ، لا سيما وان المعابد ، حتى في حال اتساعها ،
كانت مقسمة الى عدة حجر . فمن النادر جداً ان يحول معبد الى كنيسة ؛ أضف الى ذلك ان
هذا الحدث ، ويصح قولنا في الابنية العالمية الاخرى ، لا يمكن ان يحصل إلا في عهد متأخر ،
لأن المسيحية تستقر الى جانب مجتمع وثني ومجتمع علماني يستمران في ممارسة حياتها الخاصة .
فتوجب عليها البناء . ولكن الموارد الكثيرة التي وفرها لها سخاء الأباطرة والمؤمنين أتاح لها
احداث أبنية عديدة : فمنذ اوائل القرن الرابع برز النشاط البنائي في تشييد الكنائس
بنوع خاص .

اعتمدت في هذه الكنائس نماذج مختلفة جداً: فلم يكن هنالك من تقليد يفرض نموذجاً معيناً .
ولا يزال الغموض ، على كل حال ، يكتنف مدى تأثير هذا النموذج في ذاك ، او هذه المنطقة في
تلك ، او هذه المدينة في تلك المدينة الاخرى . وليس من سبيل الى جلائه إلا بمعرفة تلك الابنية
المسيحية الاولى ، في حال ان معظمها قد اندثر او قامت على أساساتها أبنية احدث عهداً ، كما
لا سبيل الى ذلك ايضاً إلا بتحديد التواريخ . لذلك فمن التحكم في الايجاز ردّ جميع الكنائس الى
نموذجين رئيسيين .

قد يكون منطلق النموذج الاول مدفن شهيد يقوم في وسطه ويرغب العدد الأكبر من المؤمنين
في الاقتراب منه . اما بصدد السقف فقد لجأ نموذج الكنيسة هذا ، عادة ، الى القبة ومشتقاتها .
واعتمد النموذج الثاني وهو أكثر تطبيقاً ، في الكنائس الكبرى . وهو لا ينطوي في الحقيقة ،
على أية ميزة خاصة ، اذ انه حوّل للاستعمال الديني ، بأقل تغييرات ممكنة تقتضها حاجات
الطقس ، طرازاً بنائياً قديماً غير غريب عن هندسة العمارة العلمانية الرومانية ، كان الطراز
الوحيد الذي صمم بغية استقبال جمع كبير نسبياً . و « الكنيسة الملكية » المسيحية - التي لم
يتبدل اسمها - بناء مستطيل يستند سقفه الى هيكل خشبي ويقسمه في أغلب الاحيان الى ثلاثة
صحون صفان من الاعمدة ، او الى خمسة صحون احياناً أربعة صفوف من الاعمدة في الكنائس
الكبرى ، كما في روما مثلاً (كنيسة القديس يوحنا ، كنيسة القديس بطرس ، كنيسة القديس
بولس) وفي القصاب يقوم المذبح ، كما يمد عرش الاسقف في خنية شبيهة بتلك التي كانت يحتملها
القاضي جالساً على المنبر في الكنائس الملكية العلمانية . ثم وسّع البناء تدريجياً وأحدث طبقة
ذات منصات لاستقبال المزيد من المؤمنين . ثم ادخل على هذا التصميم البسيط ، تدريجياً ، مزيد
من التعقيد : فأحدث النارتكس عند المدخل للجولوس الموعوظين (غير المعمدين) وظهر في بعض
الكنائس ، بين صحن الكنيسة والخوروس ، رواق أفضى الى توسيع هذا الصحن . اما نشأة هذا
الرواق فلا تزال موضوع جدل بين علماء الآثار وقد تكون تغيرت وفقاً للحالات المختلفة . ومهما

موت روما القديمة وإرثها

هل كان من شأن حضارة الامبراطورية الثانية هذه التي استمرضنا استمرار العهد الامبراطوري الثاني في الشرق مظاهرها الرئيسية ان تعطي انتاجاً اوفر وأجل لو قدر لها أن تعيش حياة أطول؟ يجيب بعض المؤرخين على هذا السؤال بالإيجاب، ولكنهم قليلون جداً. اما الآخرون، وهم السواد الأعظم، فيكتفون بملاحظة دونيتها امام الحضارات القديمة الكبرى والمحطاطها المفاجيء في اوائل القرن الرابع: فيستندون الى هذين الواقعين لإصدار حكمهم المطلق على الحضارة التي شيدها القرن الرابع كيفما استطاع الى ذلك سبيلاً.

بيد ان في طرح السؤال خطأ كما يبدو. فلم تمت حضارة الامبراطورية الثانية، بموت الامبراطورية نفسها، سوى في الغرب: اذ انها قد استمرت في الشرق. فقد تبادت روما في بيزنطية. ولم تقتصب هذه الأخيرة اسم «روما الجديدة» اغتصاباً. فاذا ما اخذت الكلمة «هليني» آنذاك، بتبدل غريب، ولأسباب بينها جوليانوس، المعنى الذي تنطوي عليه كلمة «وثني»، فإن كلمة «روماني» قد اطلقت طيلة العهد البيزنطي وحتى بعده، - رومي - على كل مسيحي دونما اعتبار للأصل العنصري: وهذه المفارقة الدينية هي التي سيستفيد منها السلافيون حين يلقبون موسكو، والوريثة الارثوذكسية للقسطنطينية، بـ «روما الثالثة». ولكن الارث الذي تركته الامبراطورية الثانية لبيزنطية يتخطى النطاق الديني تحطياً بعيداً، يستحيل هنا ان نضع به بياناً مفصلاً.

وغالباً ما يحدث ان تنكر أهمية هذا الإرث. والحقيقة هي ان الحضارة البيزنطية ليست حضارة الامبراطورية الثانية. فعلى غرار ديانة هذه الأخيرة، لم تبتق نظمها وأساليبها واخلقها ومثلها الفكرية والجمالية دون تبدل في القسطنطينية، حين حافظت عليها هذه العاصمة وحدها، منذ القرن الخامس. وقد تأثر التطور المحتم الذي تناولها بظروف البيئة الخاصة التي حدث فيها. وقد تفوق الشرق آنذاك على الغرب في الحقل الاقتصادي بفضل تجارته الدولية وصناعاته البديخة: فاستطاع الحفاظ على اشكال حياة كانت في طريق الزوال في الغرب. فكان بصورة خاصة الشرق المستقل، دونما نظير في الغرب، تسيطر عليه حضارة يونانية لا تخشى سوى

التأثيرات البربرية ، ولا سيما التقاليد الشرقية ، التي عادت آنذاك الى الظهور بعد ان ساد الاعتقاد بأنها أثر بعد عين . ولو ان اطار التطور الجغرافي والبشري كان اكثر اتساعاً ، كما في السابق ، لسلك هذا التطور سبيلاً آخر ، ولبدا نسبة الروماني بسهولة .

أما في الغرب ، فقد زالت حضارة الامبراطورية الثانية ، وحدد زوالها نهاية زواله في الغرب عهد تاريخي عظيم . فهي قد مثلت التجسيد الأخير ، ان لم يكن الذروة ، للحضارة الوحيدة التي احتفظت ببعض الحياة ، منذ ستة أو سبعة قرون ، في العالم المتوسطي . بل مثلت في الحقيقة حاصل العصور القديمة كلها ، اذ ان الاغريق والرومان لم يتأخروا ، في تشييدها ، عن أن يعضوا إليها كل ما بدا لهم ، في أرسخ الحضارات قديماً ، مفيداً ومنسجماً مع نزعاتهم الخاصة ، ومع حاجات العصر . فقد جهل الغرب منذئذ ، وطيلة قرون عدة ، ما استمر الشرق في معرفته ومحبته . وقد حدث في القرن التاسع نفسه ، كما جاء في املوحة رواها بسلّوس Psellos ، ان رجلاً من حاشية الامبراطور في القسطنطينية قد اكتفى ، كي يعبر عن اعجابه باحدى النساء ، باستعارة الكلمات الاولى مما ورد على لسان الشيوخ في الالياذة حين مرت هيلانة أمامهم . فهل كان باستطاعة أي رجل بطانة في الغرب ، آنذاك ، ان يستشهد ببيت شعر من أشعار هوميروس ، وحتى من أشعار فرجيل ؟ يجب ان تحدث النهضة ويبرز (رونسار Ronsard) ، حتى تجتمع مرة اخرى العاطفة الشخصية والتذكريات الهوميروسية . ليس طمس الثقافة الكلاسيكية سوى مظهر من ظاهرة أعظم شمولاً . بيد انه يستهيننا ان نعطي قيمة الرمز . فكما تعذر تعداد كل ما تسلمه العصر الوسيط البيزنطي من الامبراطورية الرومانية الثانية ، كذلك يتعذر الآن تعداد ما رفضه العصر الوسيط الغربي من هذه الامبراطورية . اجل ان الخطوط المميزة لحضارة العصر الوسيط ، اذا ما وضعنا الديانة جانباً ، اخذت تترسم ، في أكثر من نطاق ، في حضارة القرن الرابع ، وقد اقتضت الاشارة ، عندما حاولنا تحديد هذه الاخيرة ، الى بذور ، بل الى أسس تلك التي ستغدو حضارة المستقبل . وعلى الرغم من ذلك ، فالفاصل كبير جداً بين الحضارتين ! فما هي قيمة الرواسب امام التخليعات ؟ ونكتفي هنا بذكر أبسط هذه التخليعات الماثلة للعيان ، وهو تخل يستتبع اموراً اخرى كثيرة ، أعني به انهيار النظام السياسي والوحدة الامبراطورية ، أي نهاية دور التوجيه الذي لعبته روما ، طيلة قرون ، في مصائر العالم المتوسطي .

كان موت حضارة الامبراطورية الثانية في الغرب ، في الدرجة الاولى ، انحطاطاً لروما كعاصمة . وقد مرّ زمن طويل قبل ان تعوض لها اولويتها الدينية عن خسارة اولويتها السياسية نهائياً . وفي هذه الأثناء تجزأ الغرب ، الذي كان واحداً من قبل ، أجزاء حقتت كلها استقلالاً تاماً في تنظيمها السياسي والاقتصادي والاجتماعي . وقد بقي إحياء الامبراطورية الغربية في يوم عيد الميلاد من السنة ٨٠٠ مشروباً ابدأً بالنقص . أضف الى ذلك ان روما لم تكن يوماً مركزها الزمني الحقيقي . وما عسانا نقول عن الحياة ، الحقيرة غالباً ، التي عاشتها هذه الامبراطورية حتى

تنازل فرنسوا الثاني الذي أصبح ، في ٦ آب (اغسطس) من السنة ١٨٠٦ ، فرنسوا الأول ، امبراطور النمسا فقط ؟

فنحن اذن امام تبدل كبير في مصير الانسانية ، تسامل المؤرخون - وغيرهم - أسباب الانهيار عن أسبابه منذ زمن بعيد . ولا سبيل الى انكار ما قدمه احدهم حديثاً بقوله ان الحضارة الرومانية لم تمت « موتاً طبيعياً » بل « اغتيالاً » بأيدي البرابرة : وان في استمرارها في شرق لم تتل منه الغزوات إلا في عهد متأخر لدليل قوياً جداً . غير ان الاكتفاء بهذه الصيغة ، أي بهذا السبب الخارجي ، ليس سوى تبسيط لقضية معقدة يدعوناً تحليلها الى تحمل قسطنا من مسؤولياتها . فلا سبيل كذلك الى انكار الحقيقة التالية الاخرى : كان لدى الامبراطورية ، وهي اطار هذه الحضارة ودعامتها الطبيعية ، موارد بشرية تجعلها قادرة ، لو استخدمتها ، على ابداء مقاومة اقل ضعفاً في وجه مغتاليها . وتجدر الاشارة هنا ، دون ادعاء منا بقول كل شيء ولا بتقديم كافة الايضاحات اللازمة لما سنقوله ، الى ان هنالك ملاحظات لا تسمح لنا أهميتها باهمالها . ولكن لن يدعش احد ، بعد هذه الابحاث التي غالباً ما شددت ، في الجهود المختلفة ، على اقتباسات الحضارة الرومانية عن حضارة الشرق اليوناني ، اذا ما بدت المسؤوليات ، من وراء الامبراطورية الثانية ، منعكسة على الحضارة الرومانية بصورة عامة ، وغالباً ، من وراء هذه الاخيرة . على الحضارة الهلينية التي هي امتداد لها بألف حجة ودليل . ولعل بعض المسؤوليات ، في الحقيقة ، تنعكس على التاريخ القديم كله الذي جاء وانصهر في الامبراطورية الرومانية .

لنبداً بانكار ترغنا عليه انتقادات عرفت انتشاراً واسعاً : ليس من الانصاف ان يستوقفنا هنا ، بين اسباب الهبوط ، التطور العاطفي والديني الذي بعثته الحضارة الهلينية واقتصرت الحضارة الرومانية على مواصلته بمزيد من السرعة منذ القرن الثاني . فان هذا التطور ، بعد كل حساب ، وعلى الرغم من زيفان مؤسف ، قد جعل الانسان باقصائه عن تجريد عقلي جاف لم يكن إلا باستطاعة نخبة مثقفة قليلة بلوغ ذراه . وبعد كل حساب ايضاً ، لم ينزع من الجندي ومن الدولة سلاحها ، بسل اضاف ، بمثل الملكية ذات الحق الإلهي ، طابعاً دينياً الى واجب الطاعة السياسية والعسكرية : فأفضى الى مبدأ سلطة الملك المطلقة ، من حيث هو إله او نائب إله ، وكان من شأنه ، بالتالي ، ان يوطد متانة الدفاع .

يحدد بنا هنا ان تفكر بالتحيز الذي أفادت منه المدن افادة دائمة . كان لا بد من الوحدة الادبية كي يسهم كل فرد طوعاً في الجهود المشتركة ، ولكنها لم تتحقق . اما سبب هذا الاخفاق فيجب البحث عنه في اهمال سكان الارياف باعتماد سياسة هدفت الى استئالة العناصر المدنية ، فعلاً او قوة ، دون غيرهم تقريباً . فنتج عن ذلك ان الأعباء التي استتبعتها الطابع العمراني والمدني للحضارة كما نظروا اليها قد سحقت الفلاحين سحقا : فحال البؤس الذي كان يصيبهم بفعل هذه الاعباء دون التفاهم المخلص ودفهم احياناً الى اللصوصية المسلحة والتمرد ، ودائماً الى السلبية .

اجل سبق للملكيات اليونانية الشرقية ان تأملت من هذا الداء . ولكن روما لم تستخلص أي درس من امثولة مصير هذه الملكيات . بل قوّى فيها اتصالها بالعالم اليوناني مثل المدينة الذي كان مثلها منذ البدء ، فخدمت هذا المثل في نطاق جغرافي أوسع بمزيد من الثبات والوسائل المادية ، وبالتالي بمزيد من النجاح الظاهر . فقطعت من مجهودها الطويل الثمار المرة نفسها : وهل يعقل ان يتفانى الريفيون بحماس ، او اقله بخضوع ، في سبيل قضية ما زالت غريبة عنهم ؟

وعلى غرار الحضارة الهلينية ايضاً ، لم تحاول الحضارة الرومانية استخدام المعارف النظرية التي توصل اليها العلماء لصناعة الآلات المتقنة . وليس من الهمية بمكان هنا ان لا يحقق العلم أي تقدم في روما . فان روما قد وقفت على العلم اليوناني ولم تستفد منه عملياً ، كما لم يستفد منه العالم اليوناني من قبل . ولعل النخبة الاجتماعية الرومانية تفوقت على النخبة الاجتماعية اليونانية ، لا سيما في اواخر الجمهورية ، على صعيد استثمار رؤوس اموالها ، كما تفوقت عليها في الاهتمام لاستثمار املاكها وبيع مصنوعاتها . ولكن ذلك لم يدم طويلاً ، اذ ان نشاطها الاقتصادي الرئيسي ، حتى في هذه الفترة ، قد تناول الربا على أشكاله . وهي لم تحدث ، على كل حال ، مصانع كبرى تقوم الآلات فيها مقام اليد العاملة وتؤمن انتاجاً صناعياً أوفر بكلفة أدنى : فبقيت الآلة أداة حرب او طرفة غريبة . ومع اننا لا نستطيع اجمالاً قسوة الحكم القديم على العمل الصناعي ، فان وجود الرق يفسر جزئياً هذا الاحجام . ولكن هذا الاحجام بدوره يفسر استمرار الرق : اذ ان شخصاً واحداً لم يفكر بالغائه لأن شخصاً واحداً لم يتصور امكان تنفيذ الأعمال المادية الضرورية بدون ارقاء . ويمكن القول ، من ثم ، بسبب التنافس بين ارقاء وكلفة الانتاج المرتفعة ، ان هذا الاحجام يفسر ايضاً استمرار يؤس الطبقات الاجتماعية الدنيا ، الريفية منها والمدنية .

لم يحسن الانتاج الزراعي والتعديني والصناعي اذن طرائقه القديمة . فقد أنيط ، في مجموعه ، بيد عاملة متألّمة وغير راضية بمصيرها ، لا يستميلها الى عملها شيء ، ويميل عددها الاجمالي - اقله بسبب صعوبة الحصول على ارقاء جدد - الى الانخفاض ، بينما يزداد عدد السكان الماطلين عن العمل . فهل من عجب اذا ما هدد هذا الانتاج خطر عجز دائم ؟ لم يعرف التوازن الاقتصادي في العالم الروماني أي استقرار : فكان تحت رحمة موسم سيء ، او اضطراب ، او حادث ينشئ منه ان يتطور الى أزمة .

لذلك فان الدولة التي تتوقف مواردها في النتيجة على الانتاج العام قد عرفت المزيد من الصعوبات المالية . ولم تنج منها الجمهورية إلا بفضل اسلاب أفقرت المناطق التي احتلتها ، كما لم تنج منها الامبراطورية إلا خلال فترات قصيرة جداً ، بعد وضع يدها على الكونز التي كدسها أفراد أثرياء صادر الامبراطور ثروتهم او شعوب غرباء كالدايسيين الذين هزمهم تراجانس . ثم ألحت الحاجة بأن تصبح الدولة بيروقراطية وتستلم زمام الاقتصاد وتسن نظام جبائية مرهقاً : فلفنتها .
الدرس هنا ايضاً ملكية هلينية على الاقل هي ملكية البطالسة في مصر .

نشأ الخطر الأشدّ أخيراً من ماضي روما الجمهوري الذي اوجب عليها تأمين الغذاء للشطر الأكبر من الكادحين الرومانيين ، ومن النظرية الملكية التي فرضت سياسة البذخ في البناء ، فكان للعجز المالي صداه في القوى المسلحة بنوع خاص . ولم يكن المجندون يوماً يكفون للقيام بالمهام المطلوبة منهم . فقد ورثت الامبراطورية من الجمهورية جيشاً محترفاً باهظ النفقات . ومن حيث انها ملكية قامت على أشلاء الحريات السياسية ، لم يسعها إعادة خدمة عسكرية اجبارية ألغائها النظام الذي سبقها : فتوجب عليها ، والحالة هذه ، استمالة المتطوعين بالوعود المادية . وتوجب عليها ، بسبب افتقارها الى المال ، اللجوء الى اقل العناصر البشرية تطلباً ، أي الى غير المواطنين ، وتدرجياً ، الى البرابرة : فكان وقت فقد فيه الجيش الامبراطوري صفته الرومانية . غير ان هذا الجيش لم يبلغ عدداً مرتفعاً في يوم من الايام : فكان التوازن العسكري متضعضاً على غرار التوازن الاقتصادي . فمئذ ان أضافت الثروات الناتجة عن الفتوحات ، خلال القرن الثاني قبل المسيح ، الى اجر حقير يتقاضاه مواطن يخاطر بحياته لأجل وطنه ، الفنمية والمكافآت التي توفر له اليسار ، صدر الحكم على روما بهذا التضعض . ولن يلبث هذا التضعض ، عاجلاً ام آجلاً ، ان يعود عليها بالشؤم .

بعد قولنا هذا ، او بالاحرى بعد جمعه ، - لأن عناصره كانت موزعة على اجزاء هذا الكتاب - يجدر بنا الاعتراف بأن هنالك مجهولاً لا يجوز نكرانه . لتتصور حضارة اقل طابعاً مدنياً ، تبذل جهودها لتحقيق المزيد من الانتاج ولتوفير المزيد من اليسار للمساكين ، وتقدم للدولة المزيد من الموارد ، وتتيح لها تعهد جيش أكبر عدداً ، وتلجأ الى خدمات مواطنيها على مدى اوسع : فهل كان من شأن كل ذلك ، الذي يبدو ممكننا نظرياً ، ان يسمح لروما بوقف موجات البرابرة المستمرة التي يدفعها نحو الرين والدانوب شعوب أخرى تتدافعها من وراء آتية من عوالم نائية ؟ ان في الاجابة على هذا السؤال ، اثباتاً او نفياً ، لفسارة كبرى : لا سيما وان الطريقة الاختبارية لا يمكن تطبيقها للتأكد من مثل هذه الافتراضات . فلنكتف بالقول ان هذه الشوائب قد أضعفت دفاع روما حين احدثت بها كل هذه الاخطار : فالداء مزمن ولم تستطع الامبراطورية الثانية معالجته على الرغم مما انطوت عليه انتهازيتها من حزم .

لقد ماتت روما القديمة اذن . في السنة ٤١٧ ، اي بعد مرور سبع سنوات على انهيار حضارة غارة أاريك ، عاد روتيلوس ناماتيانوس ، الغالي الوثني ، الى مسقط رأسه ، ورغب في الرد على تصريحات القديس اوغسطينوس اللامبالية في « مدينة الله » ، فأعرب آنذاك ، في ابيات شعرية كلاسيكية مؤثرة عن اليقين الواثق الذي اوحى به اليه مستقبل « المدينة » الزماني : « ان القرون التي ستعيشينها لن تعرف نهاية ما دامت الارض ارضاً والكواكب ساجدة في السماء . انت تستمدن قوة جديدة مما يهدم الممالك الاخرى . فالبحث في المصائب عن مبدأ النمو هو سنة الانبعاث » . ولكن الوقائع لن تلبث ان تناقص هذا التفاؤل . فماذا بقي من الامبراطورية الغربية مائة سنة بعد ثيودوسيوس « الكبير » ؟ او ماذا بقي من الحضارة الرومانية

التي هي الأهم في منظار هذا الكتاب⁹

لا شيء يذكر مما هو حي. لا شيء تقريباً سوى المسيحية التي لا تزال تحمل في تنظيم كنيستنا وفي الفكرة المسكونية التي تجيش فيها طابع الامبراطورية الذي لا يمحي . ولكن المسيحية ديانة تبنتها روما وشاركتها دون ان تصدر عنها اساساً ؛ لذلك فالمسيحية أثر عظيم بحد ذاته ، هزيل بالنسبة لوقائع السابقة . اما ما تبقى فأطلال وأطلال : ممالك بربرية مستقلة ؛ مناطق تنكش على نفسها انكاشاً بدائياً وتعيش حياة خاصة ولن تلبث ان تنفصل ، حتى في لغاتها ، عن جذع الحضارة اللاتينية المشترك ؛ مدن مشلولة تعاني سكرات الموت تنداعى ابنتها شيئاً فشيئاً ؛ مجتمع ريفي بنوع خاص يسيطر عليه سيّد تنازلت له الدولة عن حقوقها .

يرث روما بيد ان هذه الانقراض المتراكمة لم تحل دون بقاء ارث غير مادي . ولا نعني بقاءه في القلوب : لأن لتكران الجميل ، الذي يفرضه النسيان ، مزية تسمح للانسانية بأن لا تذوب أسفاً على الماضي المفقود وتتطلع الى المستقبل . بل في الكتب التي ما زال بعضهم يستنسخونها ، ولو لم يفهموها دائماً ، والتي سيوجد في عهد لاحق من يعرف كيف يجمعها ويحيي تعليمها .

فروما لم تكتف بأن نقلت الى الغرب العناصر الهامة في الحضارة اليونانية بعد ان استساغتها لاستعمالها الخاص . بل أضافت اليها إسهامها ببناء القانون وبناء دولة غير المدينة الصغيرة . اجل ، وضعت الملكية الهلينية الرسم الايجازي لهذه الدولة . ولكن روما هي الاولى التي سوّت ، امام السلطة الموكول اليها امر ادارة المصالح المشتركة ، الوضع القانوني لكافة الرجال الاحرار . وهي الاولى التي تحطت انتصارها وألغت التمييز بين غالب ومغلوب باحلال قوميتها محل كفاة القوميات . فقد أطلق المعاصرون على الامبراطور فيلبوس اسم « العربي » ، وهو الذي احتفل في السنة ٢٤٨ بأعياد الذكرى الالفية للمدينة التي أسسها رومولوس : وهو في الواقع قد ولد في ما وراء الاردن ، وان صفته الامبراطورية في مثل هذه الذكرى لرمز الى اعظم المظاهر تميزاً في السياسة الرومانية . وكذلك فان روتيلوس ناماتيانوس قد كتب ، لمناسبة « عودته » الى غالبا هذه الأبيات الشعرية المشهورة ، موجهاً كلامه الى روما :

« صنعت وطناً واحداً من شعوب مختلفة ،

... وصنعت « المدينة » مما كان العالم من قبل »

وتحمل شهرتها الحلال ، احياناً ، على اممال التحفظات التي تستوجبها : فان لقب « المواطن الروماني » ، حين وزعته الامبراطورية الرومانية بسخاء ، كان خالياً ، منذ زمن بعيد ، من جوهره السياسي ، كما ان « المدينة » التي أصبح حامل هذا اللقب ابناً لها لم تعد هي نفسها مدينة الاخوين غراكوس ، او حتى مدينة شيشرون . بيد ان « المواطن » الجديد قد انتسب الى دولة تسهر على سيادة النظام وتفرض الطاعة على الجميع وتمنع تجاوزات السلطة وتحيط النشاط الجماعي

إدارة منظمة . فهذه المفاهيم لن تلتظر عهد النهضة حتى تنهض ، اذ انها في الاساس من كل جهاز سياسي معاصر .

وهل يجوز للمؤرخ اخيراً ان يتعد عن روما دون ان يعبر عن دهشته وذهوله امام مصيرها الذي هو واحد من اعجب المصائر التي رسمها التاريخ؟ ولدت ولادة مغمورة كمرکز لناحية ريفية صغيرة ، فأصبحت سيّدة عالم بأسره ، ثم عاصمته ، قبل ان تنحني امام هجوم فوضوي انطلق من عالم آخر . عرفت كل الانظمة على التوالي : الملكية التي حلت محلها جمهورية ارسوقراطية ، والديموقراطية المترنحة التي انتهت الى الدكتاتورية العسكرية ، والملكية المعتدلة التي انتهت الى الحكم المطلق ذي الحق الإلهي . كما عرفت ، في داخلها ، شتى الانظمة الاقتصادية والاجتماعية : الاملاك الريفية الصغيرة والاملاك الواسعة ، والشركة المالية القوية ، والصناعة اليدوية الفردية ، والغل التعاوني القاسي الذي فرضته السلطات العامة ، وملوك الثروة ، والعاطلين عن العمل الذين تفديهم الدولة ، والمصارعين الذين تقدم معاركهم ودمهم وموتهم لأهلي للجهاير . وحققت بجهودها المتواصلة واقتباسها عن الاجانب ، ثقافة عقلية وكلاسيكية ما لبثت ان طفى عليها تدريجياً التصنع والإسفاف والرمزية . فما هي الجماعة البشرية التي قطعت مثل هذا الخط المنحني الطويل وجمعت هذا القدر من المظاهر المختلفة في ديمومة تطورها المنطقية ؟ ان من يرغب في تكوين فكرة عن التناقضات والتحويلات التي يمكن ان يطلع بها مجتمع ما ، لن يجد في غير مكان امثلة ومواضيع تأمل ام عظيمة ووفرة وافادة علمية .